

الكتاب العربي السعودي



٨٠



الدكتور عبد الرحمن حسن النفيسة

أحاديث وقضايا إنسانية

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم



الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

أحاديث وقضايا إنسانية



الإهداء

إلى روح شقيقتى « هَيَا » في جنة الخلد بعد أن رحلت عن هذه الدنيا وهي فى ريعان شبابها ، ورجعت إلى ربها راضية مرضية ، وكانت رمزاً خالداً في الوفاء والإنكار المطلق للذات . تغمدها الله برحمته وأنزل عليها سحائب الغفران .

مقدمة

ظَلَّ الإنسان وسيظل السر المحير في هذا الوجود . ومن أجل ذلك ستظل محاولة فهمه فى مزاجه ، وصراعه ، وعلاقاته مع نفسه ، ومع غيره من أعْقَدِ الْعُقَدِ ، وأصعب المسائل .

فمن حيث العموم كيف نتصور الإنسان فى سلوكه وصراعه ، وفى وحدته وحقوقه ، وفي حضارته وعقله ، وفي صراعه مع مادته وروحه ؟

ومن حيث الخصوص كيف نتصور إنساننا العربي فى قضايا أرضه ؟ وكيف نتصوره فى حربه مع عدوه ، وفي صراعه مع فكر يتجاذبه من بين يديه وعن يمينه وعن شماله ومن خلفه ؟

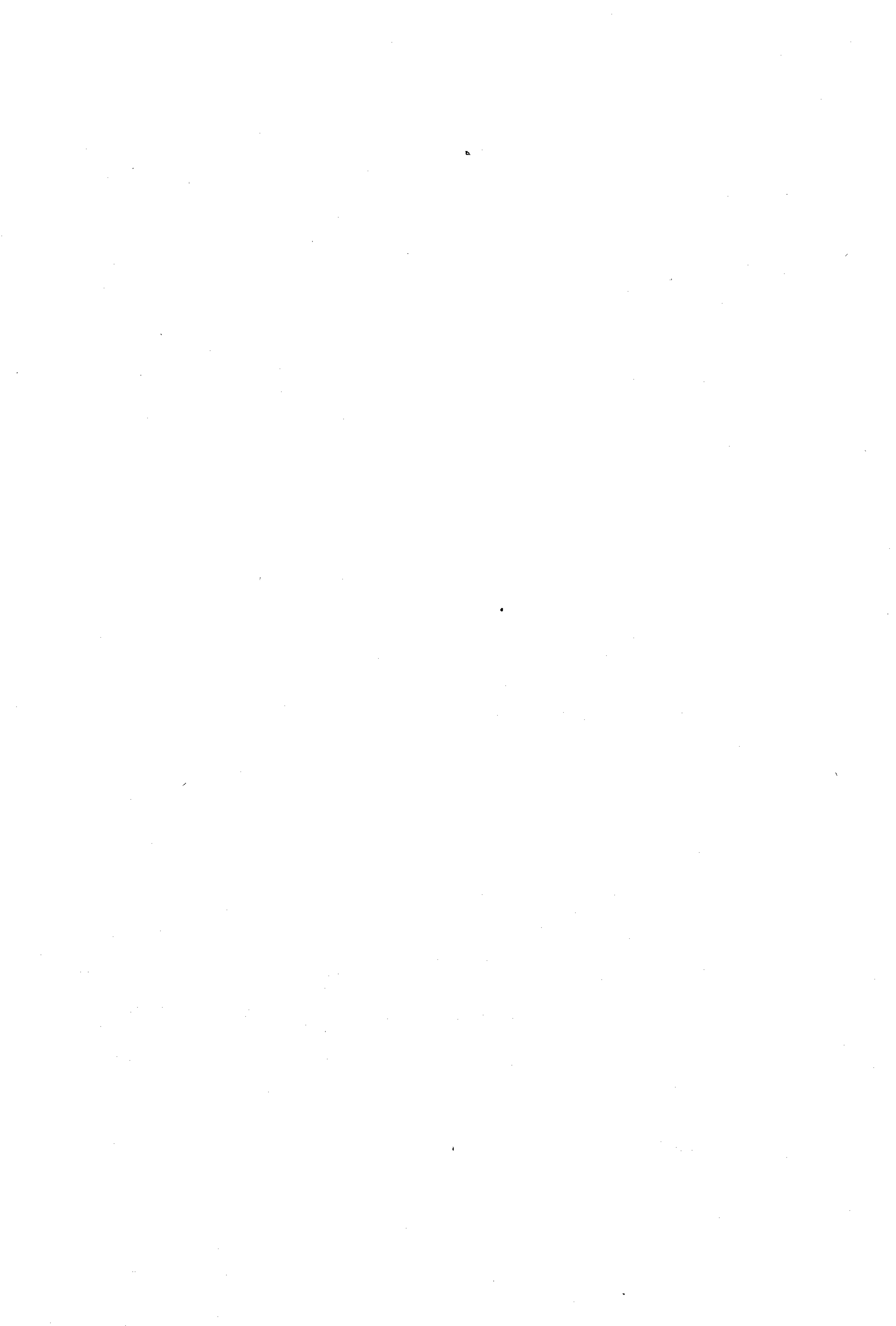
ربما يجد القارىء فى هذه الأحاديث لَمَسَاتٍ مختلفةً لا تجيب على هذه الأسئلة الصعبة ولكنها ـ على أي حال ـ تحاول طرحها كقضايا فكريةٍ تتنازع الإنسان فى عمومه ، وإنساننا في خصوصه .

لقد نُشرَتْ هذه الأحاديث من قبل . (معظمها في مجلة المنهل منذ عدة سنوات) وقد اعتمدت فى إعادة نشرها على سببين . أولهما : أن هذه الأحاديث لم ترتبط بمناسبةٍ تتأثر بها عدما ووجودا . وثانيهما : أن القارىء قد لا يُتَابع كل ما يُنْشَرُ خاصة إذا كان متفرقا فى الزمان والمكان .

وأملي أن يجد فيها القارىء العزيز شيئا مفيدا .

وعذرى أن النقص والخطأ يَعْتَرِيَانِ كل ما يعمله الإنسان .

المؤلف



الفصل الأول

الإنسان : السلوك والصراع

- الأخذ والعطاء والمسؤولية الخُلُقيّة .
- الإنسان وتناقضاته .
- الإنسان والصراع الأزلي .
- الإنسان بين تفكيرين .
- راية الذات في مفهومين مختلفين .
- كائنات الغابة .
- مَثَلٌ له دلالة .



الأخذ والعَطاء والمسؤولية الخُلُقيَّة .

اختلفت الناس كثيراً حول قاعدة الأخذ والعطاء فهم فى ذلك ثلاثة أصناف ، الأول : يرى الأخذ مقابل العطاءِ ، والثانى : يعزف عن الأخذ مقابل العطاء ، والثالث : يبحث عن الأخذ مع انعدام العطاء .. قاعدة الأخذ والعطاءِ تَعَارَفَ عليها الناس منذ غابر العصور حيث يرون فيها تَوازُناً عملياً فى المبادلة يقبله المنطق ويستسيغه العقل ، فمقايضة الشىء بالشىء هو أخذ وعطاء ، ودفع النقود مقابل شراءِ الحاجيات عطاءٌ وأخذ . أما أصحاب العطاء بلا أخذ ، فهم قلة من الناس ، لها طابع مميز يختلف عن الطبائع المألوفة عند البشر ، أو إنها من ناحية أخرى ، وفي سلوكها المتجرد تنحو إلى الانحسار كلية عن واقع الإنسان ، وكأنها تبحث عن واقعٍ آخرَ ، لَهُ ميزاته واستقراره وأبديته فى مفهومها . وإذا كان للموازنة بين هذه الأصناف سبيل فان الذين يعطون ولا يأخذون هم الصفوة التي قَدَّمَتْ ، على ضآلة عددها ، للبشرية مناهِجَ تربويةً علَّمت وتعلم الإنسان كيف يكون مثالياً ، يعمل من أجل الآخرين بدافع المحبة للإنسان ، ليعمر الأرض كما أريد له أن يكون ، وهم كذلك الندرة من البشر في كل زمان ومكان . ولعل من الطَّبعيّ أن يكونوا كذلك إذ ان الناس لو كانوا فى غالبيتهم من صنف هؤلاء لركدت الأرض ، ولَسَئِمَ الإنسانُ من نفسه ، وسَئِمَ غيرهُ . فكأَنَّ المفهوم الطَّبَعيَّ للحياة يقر بأن التناقض .. التضادَّ . الانزلاقَ والانحسارَ : عوامل طَبيعِّيةٌ للحياة تبرز كوجود يدفع إلى تحسن الواقع غير الطَّبعيّ ، وإلى محاولة إصلاحه بوسائل مضادة ، وهكذا دواليك . وإذا كان أصحاب الأخذ والعطاء لا يناقضون مفهوم الطبيعة البشرية المألوفة للانسان ، فان أصحاب الأخذ بلا عطاءٍ هم النشاز .. يتجمدون .. يزدهرون .. يمتلئون ، لا يهمهم انصهار الغير فى بوتقة العدم ، أو ذَوَبَانُه في حقل الهشيم .. ليس من المهم لديهم أن يموت الشجر ، أو يذبل الزهر ، أو تخرس الطيور المغردة ، أو ينحدر الماءُ إلى الأعماق البعيدة من الأرض ..

ويتساءل من يتساءل : أتلك ظاهرة طَبَعِيَّةٌ في علاقة الإنسان ؟ فيجاب بأنها تبدو غير تلك .. إنها نشاز .. تُخَالِفُ المألوف والمعروف .. ويجيب آخرون بأنها ظاهرة معقولة ، إن لم تكن ضرورية ، فربما تكون هذه الفئة أو الصنف هو القادر دون غيره على الالتفاف حول ظواهر أخرى أكْثَرَ منها انتشارا ، وأكْثَرَ منها تجمداً ، أو أقسى منها امتصاصا للأزهار ، فقد ظل عَالِمُ أمريكيٌ من ولاية « بنسلفانيا » يبحث عن نوع من الكائنات الحية اعتاد أن يعيش على نوع معين من الاشجار ، وعندما كاد هذا النوع ينقرض ـ راح ذلك العَالِمُ يبحث بكل وسيلة مع سلطة الولاية للابقاء عليه ، رحمة بانسان الولاية ، لأن ذلك الكائن الفريد متخصص فى التسلط على كائنات أخرى ، ذوات خطورة على البيئة وعلى الانسان .

إنَّ الأخْذَ والعطاء مسؤولية مركبة . والذين يعطون ولا يأخذون يُفْتَرضُ أداؤهم لهذه المسؤولية فى تركيبها المادى والخلقى .. والذين يأخذون ولا يعطون يفترض أنهم تجردوا من كل ذلك . ولكن ما هو الحال بالنسبة لمسؤولية الذين يأخذون ويعطون ؟ إن المسؤولية فى تركيبها الماديّ تُعْنَى بأداء عمل مُعَينٍ ، يبرز الى الواقع في شكل مجسم كانتاج جهاز كهربائى مُعَينّ ، كما تبرز فى شكل محسوس ، كأداء موظفٍ لعمل اداريّ فى مصنعٍ مّا ، وهى فى تركيبها الخلقي تَعْنِى جودة الجهاز الكهربائيّ ، فى شكله المجسم ، وفى غايته المرتجاة . ويوجد تفاوت من حيث أداء أيّ منهما : فالتركيب الماديُّ ، للمسؤولية شيء يمكن الحصول عليه بسهولة ، لأنه عمل ظاهريٌ يدركه الانسان بسهولة أيضا ولكنَّ المشكلة تكمن فى التركيب الخلقي للمسؤولية وفى ظَنِيّ أن هذا التركيب يختلف من بيئة إلى أخرى وفْقاً لعوامل التربية والنشأة والثقافة ، فهناك أناس لا يعرفون المسؤولية أصلا ، وهناك من يعرفها مغنماً ، وهناك من يراها وسيلةً ، وهناك من يراها عَمَلاً خُلُقِيّاً مُلْتَزِماً ، ومن يراها غيرَ ذلك . النَّوعُ الأخير يتصورها تكمن فى خدمة ذاته خدمةً عمياء ، وان انْسَحَق الآخرون .. نفوس ترى المسؤولية تتجلى فى امتصاص رحيق الأزهار ، ولا يَعْنِي ذلك أن تعمل النحل فى اعطاء شَهْدِهِ للآخرين ، بل تَصْنَعُ كما تَصْنَعُ الزنابيرُ فى لَسَعَاتِهَا المُوجِعَةِ للأبرياء .. لقد رأت شعوب أو على الاقل حُكوماتُها أنَّ مسؤوليّاتِها تكمن فى استمرار عُلُوِّهاَ ، وبغَضِّ النظر عما اذا كان هذا العلو يَعْنِى آلام الآخرين وموتَهُم .. وكان اخرون يرون أن مسؤولَيّتَهَمُ تتجلى فى سَوْقِ الجحافل ذوات الالوان الداكنة لتقوم بحفر الأنفاق فى

اعماق الأرض ، ليمر عليها القطار الكهربائى . وقبل ذلك ، ومنذ مائة وخمسين سنة وفى مَنْطِقَتِنا العربية ـ قَتَلَ أعوان حاخام أَحَدَ القسيسين وقطعوه إربا إربا حتى يقدموه لسيدهم ليشرب دمه وفقا لطقوسه الدينية . وعندما حصل الجفاف فى منطقة (أوكامبانى) فى كينيا الافريقية ، قامت عصابة بسرقة الأطفال من مَنَاطِقَ فى الدولة ، لتبيعهم إلى سكان المنطقة ليذبحوهم كقرابين لآلهة المطر .. كل أولئك الأنماط كانوا يعتقدون أنهم يؤدون مسؤوليتهم رغم ما فعلوه من بشاعة فى نظر الآخرين ..

وللناس أغراض في تكييف المسؤولية كما يشاؤون ، فالرُّوَّادُ من المستعمرين كانوا يظنون أن مسؤوليتهم توجب وضع مسامير صَدِئَةٍ في الأمكنة التى يرحلون عنها . لكى تتحول هذه المسامير إلى أدوات سامّة وقاتلة تحفر خُرَّاجاً فى الجسم ، يصعب اندماله إلا بعودة الراحل مرة أخرى ، ولو بأشكال مختلفة ، فالبرتغال تركت « أنجولا » المستعمرة ، بعد أن أوجدت ثلاث فئات تختلف على الحكم ، وبقى من البرتغاليين أفراد يقاتلون فى أحد صفوف المتقاتلين ، وهكذا .. ويتداخل مفهوم المسؤولية مع مفاهيم كثيرة عِرْقِيَّةٍ وسياسيةٍ ونحو ذلك ، فمرة كان طالبان أحدهما من الباكستان والآخر من الهند ، يتناظران فى قضية « بنغلاديش » في إحدى مدارس القانون ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وارتفع صوت الهندى يُهَوِّلُ الكارثة ، ويبكى على حقوق الانسان ، ويعلن للحاضرين أن جيش باكستان قَتَلَ خمسة ملايين من البنغاليين .. وفي هدأة من غضبه وصحوته إلى الواقع قيل له : ألا تعتقد أنك قد تجاوزت حدود المبالغة عند طلاب لم يكونوا أقل منك عِلْماً بما حدث ، وان كُنْتَ قد عشتَ المأساة كما ذكرت ؟ .. فقال فى همس : أليست هذه مسؤوليتى تُجَاهَ بلدي قُلْتُ : لو تعلَمتَ المسؤولية في الصدق كما فعلها « المهاتما غاندى » لما قلْتَ ما قُلْتَ من مبالغة ، ولكان السامع أكثر لك احتراما وأصغى لك سمعا ، وان اختلف معك رأياً .. قال : وكيف فعل غاندى ؟ قُلْتُ : صدق مع نفسه أولا عندما دعا الهنود إلى محاربة المستعمرين ومقاطعة بضائعهم .. شرب من لَبَنِ عنزه وبات يحتضنها ، رمزاً للاعتماد على النفس .. أليست تلك هى المسؤولية فى الصدق عَلِمَ بها الهنودُ فانتصروا .

وللوصول الى أداء المسؤولية الخلقية سأل سائل : هل تُخْلَقُ بالعصا اللينة أو الغليظة ؟ .. هل تَنْشَأُ مع النفس حين سذاجتها فى الطفولة ؟ .. هل توجدها التربية المنهجية الملتزمة... وهل وهل ؟ .. « دانتى » فى حديثه مع صاحبه « فيرجيل » تساءل عن

السبب فى فقدان الفضائل في الانسان .. فأجاب قائلا على حد تفكيره : السماء ليست مسؤولة عما يحدث ، فالانسان هو سببُ فَسَادِ الكون الأرضي ، وليست هى بالتالى مسؤولية النفس فى نشأتها الأولى ، لأنها تخرج الى الوجود طاهرة بريئة أى إنه يرى أن السبب فى انعدام المسؤولية يكمن فى اختلال مناهج التربية المصاحبة للنفس فى نشأتها ؛ فما هي الوسيلة فى نظر « دانتى » ؟ .. هل بوجود القوانين ؟ .. إنه يرى أن هناك ضرورة لازمة في إيجاد قانونٍ حاكمٍ ينظم أمور البشر ، ولكن هل يكفى ذلك ؟ .. إن العبرة فى رأي « دانتى » لا تكمن فى سن القوانين المجردة . بل العبرة فيمن يضعها ويطيعها من الحاكمين ، ثم هل تكفي إطاعة القوانين كمسؤولية مادية فقط أم إن هناك مسؤولية خلقية ؟ .. يرى « دانتى » أن الاصلاح الحقيقيَّ لا يتأتى فقط عن طريق تغيير هذه القوانين أو العقائد أو خلافها ، بل يتمثل فى واقع النفس .. نفس الانسان حين تتحرر من الاوضار المادية باطنا وظاهرا (ذلك بتوفيق من البارى لها جل وعلا) .

« كلاجين كلارا » واحد من اليابان كان يعمل مديراً لمطعم شركة الخطوط الجوية اليابانية ، وحدث أن كانت إحدى طائراتها مسافرة إلى شمال أوروبا ، وعندما كانت فى الجو شَعَرَ معظم ركابها بالآم شديدة ، نتيجة الوجبة التى تناولوها ، وعندما وصلت الطائرة أسعف الركاب فى المستشفيات ، وجرى التحقيق مع المتسببين ، واتضحت براءة « كلاجين كلارا » تماما .. لا مسؤولية .. لا عقاب .. ولكنه فضل أن يموت على طريقة اليابانيين فى نقد الذات .. لقد شنق نفسه إلى الأبد .. ترك الحياة بيده ، لماذا ؟ .. لقد ترك ورقة أوضح فيها أنه رغم براءته من مسؤولية تسمم الطعام . ومع أنه لم يمت من الركاب أحد ، فانه وجد نفسه خَجِلاً من تقصيره فى اداء مسؤوليته الخلقية ، مما سبب الآما لركاب ابرياء .. حقا إنها المسؤولية الصعبة لازمت « كلارا » فى داخله ، فأنبه ضميره ، واستبد به الندم ، واحتواه الخجل من أمته ، ففضل ـ أن يموت رغم براءته بحكم القانون .. وقَبْلَ « كلارا » بمدة وجيزة كان وزير النقل فى حكومة اليابان .. فقد حدث أن تَلَقّى تقريرا بسقوط طائرة فى مُطَارِ طوكيو ، فكتب استقالته ، قبل أن يرى الناس وقدمها على الفور .. لم يفارق الحياة ، لكنه فارق المسؤولية ، لأنه كان يتصور أنه قصر في تحملها ، فتركها للآخرين بدافع من ضميره .. وحادثة أخرى قريبة ، فقد تعرضت اليابان حديثا لمشكلات صناعية ، نسبتها الى مشكلات الطاقة ، فتضررت بعض الشركات الصغيرة لفترة مُعَيَّنَةٍ ،

وكان ضِمْنَ هذه الشركات شركةٌ لمواد كهربائية أعلنت إفلاسها ، فخرج مديرها المسؤول إلى الشارع ، وأمام الملأ من الناس أطلق النار على نفسه ، لماذا ؟ .. لم تكن تقارير الافلاس تُدِينُهُ بتقصير فى أداء مسؤوليته ، ولم يتعرض للملاحقة القانونية ، ولم يَلُمْهُ أحد من أصحاب الشركة ، ولكنه قال فى وصيته : « لقد شعرتُ بالخجل من إفلاس شركة تساهم فى اقتصاد اليابان ، وتطعم عُمَّالاً : ثم تتوقف فى الوقت الذى كنت مديراً لها » .. هؤلاء الثلاثه قلة من كثرة من اليابانيين ينهون وجودهم على طريقتهم الخاصة فى نقد الذات ، خَجَلاً من انعدام المسؤولية الخلقية .. إنهم يتفقون مع « دانتى » فى نظرته إلى تطهير النفس ، لكن دانتى لم يكن يقصد القصاص من النفس على طريقة اليابانيين ، ولكنه أراد أن تنشأ المسؤولية الخلقية مع النفس تربية .. منهاجا .. التزاما .. سلوكا ..

قُلْتُ : ولا نختلف مع « دانتى » فى نظرته الى تطهير النفس باصلاحها باطناً وظاهراً ، فليست القوانين هي الحْاَكِمَ الحقيقيَّ للناس .. ليست القوانين العصا السحرية التي تحلُّ مشكلات الانسان .. إنها اطار مُعَيَّنٌ ينظم السلوك الظاهريَّ للانسان فقط ، واذا كانت القوانين تشتمل على عقوبات جسدية تلقاء المخالفة ، ورغم كره الانسان للآلام الجسدية ، فان العقوبات كالقوانين ليست الوسائلَ الضامنةَ لخُلُقِيَّةِ السلوك .. إن الضابط الحقيقيَّ للسلوك هو النفس فى بواطنها وإحساسها بمسؤولياتها المختلفة تجاه الخلية الاجتماعية التى تعيش فيها .. وهنا يبرز عامل التَّنْشِئَةِ والثَّقَافَةِ ، فمن يعيش في بيئة تعتبر السرقة عاملا من عوامل الرجولة ، ــ لابد أن يكون سارقا ، ومن يولد على أنغام أفضليةِ قومه على غيرهم سيظل يحمل عقدة العُلُوّ ، وإن كان فى حقيقته يحمل كل عوامل التخلف .. والمألوف في عرف الطبيعة أن المستنقعات لا تنبت الا السيىء من النبات .. والاستثناء في كل الأحوال لا يُعْتَدُّ به ..

إن « دانتى » أهمل التوجيه المادى الملزم كأحد عوامل الاصلاح للنفس البشرية ، وربما كان ذلك بسبب استغراقه الكامل في النظرية ، فجعل عِبءَ الاصلاح على النفس ذاتها .. إن التوجيه المادي الملزم ضرورة ملحة ، وفى عقيدتنا حديث مرويّ يقول : « عجباً لقوم يُقَادُونَ إلى الجنة بالسلاسل » ، ولا يعنى ذلك الا إخضاع النفس لعملية تطهير مسلكية حين تُجَانِبَ الطريق المألوف .. وأَخْلُصُ الى القول بأن المسؤولية الخلقية عامل هام فى أداء المسؤولية .. نراها كما يراها دانتى تنطلق من داخل النفس وسلوكها ،

وهى في ذات الوقت تحتاج إلى رقابة قَسرِيَةٍ كَضَامِنٍ مَرْحَلِىّ ـ على الأقل ـ إلى أن تبلغ النفس سلوكها الطبيعى بفعل عوامل التغيير ضد السلوك المتخلف المنحدر من عصارات التأخر .. إنها ـ الرقابة ـ لازمة للذين يأخذون ويعطون ، حينما يخطئون فى الاخلال بميزان التعادل بين الأخذ والعطاء ، ولَكِنَّ الرقابةَ تصبح مطلبا إلزاميا تفرضه ضرورة حماية المصالح الحقيقية للخلايا الاجتماعية حين ينتصب فوقها قوم يأخذون ولا يعطون ..

***

الانسان وتناقضاته .

عجيب من الانسان أن يكره الألم . يكره الفقر . يتقزز .. من السآمة . يريد مرة ركودا عندما يروق له ، ويريد أخرى حركة عندما تعجبه . لا يرى من الكون فى صوره المتعددة إلا ما هو لَذَّاته وما يلائمه . يحسد المُعَافى اذا هو مرض ، ويتمنى غِنَى الْغَنِيّ إذا هو افتقر ، بل هو أكثر من ذلك : الغنيُّ يريد أكثر من غِنَى مَنْ هو أغنى منه . والصحيح يريد أكثر من صحةِ من هو أصَحُّ منه . وهو حين يَشِيخُ يتمنى حِدَّة الشباب عند هذا أو ذاك . وينسى واقعه حين كان فى أحلى أيام الشباب والادراك . وذاك فى متاهات الطفولة . فهو الغَنِيُّ لا يريد أن يرى الفقير ، ليشكر على ما أوتى من غِنًى ، ولا اقول: يعطف . بل يشارك فى رأب صدع من لم يُعْطَ ذلك الْغِنَى وهو الصحيح لا يرى المريض حين يتأبط ألمه بين جنبيه ، ليحمد ويُوَاسِي ويساعد .. ومن ذلك تبدو حركة التناقضات في الانسان .. طبعا لا أحد يعتقد بأن تعم فى الكون مقاييس المثالية الفضلى ، ولا أحد يحلم ـ مجرد الحلم ـ بجمهورية أفلاطون حين تأملها وهو فى سبحة من سبحات الخيال .. التناقضات أمر معقول في حد ذاته . فالشجرة ـ أى شجرة ـ يغرسها غارس لا يريدها الا هى ، ومع ذلك تزحمها نباتات أخرى بسيطة ، ولكنها مؤذية تَمْتصُ من غذاء الشجرة المرادة .. تتغذى من غذائها حين يكون ، ويقف الغارس مشدوها متقززا . لا يريدها .. يكرهها .. يتأذى من نوعها ، ومع ذلك فهى التناقض الذى لا بد منه حين يفرض نفسه ولو كان غير مراد ولا محبوب . داءٌ ينمو فى المنعطفات ، وإن بَدَا صغيرا فى ذاته فهو الداء المُؤْذي في تأثيره ، فما هو علاجه ؟ إنه الغارس حين يتفقد غِرَاسَهُ .. يحصد الدخيل عليها .. لا يكتفى بجذبه من اعلاه أو وسطه بل يُنْفِذُ مِنْجَلهُ في اعماق النباتات الطُّفَيْلِيَّةِ . يستجـر عروقهـا ..

يميتها .. يلقيها على حافة الغراس ، ذاويةً هشيمةً ، وهكذا دواليك .. تلك سُنَّةٌ مألوفة . تفرض تناقضا مألوفا ، قد يكون لمصلحةٍ مُدْرَكةٍ منذ البداية . وقد تكون كذلك ولكنها تُدْرَكَ في النهاية ، وما حسبتها الا الدافع ليد الانسان أن تعمل .. ترى لو كانت أغصان الشجرة لا تنمو ولا تتكاثر .. أكانت تُشَذَّبُ وتُصْبِحُ جميلة يرتاح لها النظر ويستطيبها الذوق ؟ إنها مقاييس واحدة للتناقضات وان اختلفت الانواع .

قُلْتُ : إن الجهل واقع طبيعى وان بدا فى كل مراحله على انه تَشَوُّهٌ غير عادىّ ، ولو لم يكن كذلك ما كان هناك تنافس بين الأجيال من اجل الخلاص منه .. الجهل وان بدا في ذاته تَشَوُّهاً فهو حافز من حوافز الانسان يدفعه إلى معاكسته بضده . ترى لولا التنافس فى التحرر من الجهل أَيَصْعَدُ الانسان إلى متاهات العلم يلتمس أملاً ويستكشف لُغزاً ؟ . والفقر هو الآخر تَشَوُّهٌ في مجتمع الانسان يثير له مشكلات تتكاثر وتنقص تبعا لنسبته هبوطا وصعودا . أناسٌ يريدون الخلاص منه كَحَلٍ لمشكلاتهم ، يعتبرونه نقصا فى كيانهم . يجدون فيه مذلة ، وينزعجون منه وصَمَةً ، وآخرون يرون فيه حَلاً لمشكلاتهم هم ينظرون اليه محققا لمبتغاهم ، لأنه عقابٌ لأنَاسٍ ، لأنه يريحهم من كثرة التنافس . فهى الجماعات المتنافسة ، كلما تناقص عددها كان ذلك رغبة أعضائها ، لان المجال قليل فيكسبون منه كثيرا .. بلا غرابة الفقر يريده أناس لآخرين مثلهم فى الجنس والنوع . يجدون فيه جِسراً لغايات خاصة .. رُوادَ النظريات ومحترفو السياسة .. أصحاب المآرب يرون فيه عاملا للاثارة .. للنجاح .. للكسب . وتبقى هذه الرغبات متصارعة كل يحركها حسبَ غايته . والفقر هو الفقر داء ثقيل الوطأة على أناس وتثلّم في الكيان وتشوه في الشكل .. والمرضُ هو ثالث الأَمَرَّين ـ بالتشديد ـ فَتَّاك يسعُرُ حين تضعف المقاومة في الانسان وفي البيئة .. يفتك كأنه المنقذ ، من التكاثر السُّكَّانِي ، وكأنه ميزان التعادل بين كميات الانتاج والاستهلاك في دنيا البشر ، واذا كان هو المقْلقَ للانسان فى حركاته وسكناته ، فهو هدفه في المحاربة ، ظَلَّ ينتصر عليه بالخوف منه . جرب كل العقاقير ، وكل النباتات من عهد « جالينوس » وقبله الى هذا الوقت الذى زرع فيه الاعضاء المنقولة أو المصنوعة .. إن ما عنيت قوله بايجاز هو : أن هذه الأدوية الثلاثة تشوهات يرى أناس أنها مُفْتَرَضَةٌ او هى تناقضات حيوية ليست سيئة بالمقياس الذى نتصوره لأول وهلة ، ولكنها بالنسبة لآخرين تبدو أقسى تشوه يصاب به الانسان في مجتمعه بل هى معاييرُ جموده وتبلده ، ومعايير أذاه

ومشكلاته ومعايير نهايته فى الوقت الذى يستسلم عن طواعية او يسلم عن عسف لهذه الأدواء ..

قُلْتُ : ليست هذه الأدواء سيئة اذا كانت حافزا من حوافز الانسـان تدفعـه الى معاكستها .. ليست سيئة اذا كانت تجد من يوجد مجال التعاكس ولا هى بالتشوه اذا وجدت من يحوله بمبضعه الى جمال وتأنق ، ولكنها تظل كذلك اذا فقدت تلك الادوات وتبقى المشكلة تكمن فى وجود الغارس هل يستطيع ان يحمل منجله وينفذه الى اعماق الطفيليات ويلقى بها على حافة الغراس لتبقـى الغرسـة المرادة خالية من الـطفيليات المميتة ؟

هل ثمة تناقضاتُ حيوية أخرى غير تلك يعيشها الانسان ؟ وهل هى بارادته او مفروضة عليه ؟ إن التناقضات الحيوية كثيرة ، قد يصعب الحصر والتفصيل لها ، فالأدواء الثلاثة الملمح اليها يقابلها أخرى طبيعية اكثر ما يقال عنها انها مفروضة عليه تبعا لسنة وجوده دون ان يكون له استطاعة في ردها أو غلابها ، فقد يعتبرها بعضه خصيصة نفسية ، وهو لو خير فيها ما اختارها على اى حال . وقد يعتبرها بعضه خصيصة ملائمة لو خُيِّرَ فيها ما ابتغى غيرها كأفضل منها وهى لو وُضِعَتْ تحت مجهر التعليل لَوَجَدَ أنها خصيصـة جوهرية له ، أهم ما فيها أنها لا تجعله على نمط واحد ، أو على صورة واحدة يَمَلُّهَا في جنسه ، حين يراها فى نفسه ، وأهم ما فيها كذلك تغيير رؤيته وتباين ذوقه . فالسواد والبياض مثلا نقيضان لا يتقابلان فى الملامح وان بدا فى البلدان المتحضرة اليوم تفارق يذهب الى القطيعة بين الجنسين،ففيه بالمقابل تمازج بينهما فى أكثر الحالات ، فمن البيض من يتعشق السود مع كره لقومه . ومن السود من يتعشق البيض مع حقد على لونه وجنسه . ترى لو كان الجنس كله على لون واحد أيكون هناك تَصَارُعُ تكون نتائجه غرس مبادىء واسس يضعها الانسان كجزء من حضارته وتاريخه ؟ والقبح والجمال نقيضان . وما كان للجمال ذلك التأثير والانجذاب لو لم يكن بجانبه قبح .. فالقبح هو موجد الجمال والمحبب اليه،والقبح قد يرى الجمال فيجانب مقاييسه . والتنافر فى الطباع وتباين الامزجة والاذواق يبعدان السأمة ، ويطردان الملل ، ومرة أخرى لو كان الانسان يرى زوجته شبيهة به فى الملامح والصفات أكان يتحبب اليها بالقدر الذى يتحبب اليها به فيما لو كانت تختلف عنه؟ ثم ماذا يكون الحال لو كان الانسان يرى بنى جنسه ، وهم على شاكلته يشبهونه فى الطباع والصفات والقسمات الا يسأم من النظر اليهم ؟ ـ الانسـان بطبيعتـه يميل الى الاشياء

المتنافرة. فهو لا يحب ان يكون اولاده كلهم على نمطه وان كان يعتقد فى ذاته الحسن والجمال وحسن الصفات .. الانسان بطيعته ميال الى المتضادات في الأشياء يُمتّع بها حسه ، يجدد بها ذوقه ، يسلى بها نظره وخواطره . يرى حوضا من الأزهار فيه أزهار مختلفة فيقلب بصره في كل أزهاره لا فى زهرة منه ويشم بأنفه ما وسعه الشم من جميعه .. يعجبه ساق هذه وورق تلك ورقة هذه وعبير تلك وهلم جرا .. ومن هذه المتضادات الطبيعية انطلق يتفنن في عمله ونتاجه يعمل الشيء يرضى به أذواقا . ويضع القبيح يرضى به أذواقا اخرى ، فهو المتناقض فى ذاته .. المتضاد فى طباعه وكينونته . تناقض وتضاد حتى في أخص الخصائص له .. وبالتالى هو المتناقض فى عمله ومقاييسه .. وكل ذلك من روافد مروره عبر التاريخ السحيق ، أو هي على الاصح حكمة رب العامين .

****

الإنسان والصراع الأزلي .

الحياة ميدان صراعٍ متنوعٍ .. والانسان ذلك الكائن الحى المتطور مرغم أن يعايش ذلك الصراع مهما كان نوعه وشكله . ولولا صراعه ذلك لما برزت تلك القوى الحية التى في بروزها منفعته . فهو حين يتفاعل مع ذلك الصراع قد يتمكن من ابراز قدراته وإمكان صموده فى صراعه مع نفسه ، وصراعه مع غيره .. صراعه مع نفسه حين تتفاعل فيها عوامل الخير وعوامل الشر وحين يشدو له في قمة نزواتها .. وصراعه مع غيره حين يصارع أعداءه من اجل بقاء حياته وبروز مواهبه وطاقته .

لقد عَوَّدَت الحياة الإنسان أنه دون ابراز تلك القدرات والمواهب لا يمكن بقاؤه ولو بقى فسيظل انعدامه خيرا من وجوده .. فالحياة نفسها تجبره ـ ابى أم أراد ـ على الصراع والتأثر والتأثير .. فالحقيقة مثلا تصارع الزيف ليكون هناك حقيقة ولولا ذلك الصراع لطغى الزيف على كل مظاهر الحياة ، والحق هو الاخر يصارع الباطل ليظل هناك حق ، والضعف حين يصارع القوة قد لا يتمكن من ازالتها بالكلية ولكنـه حتما سيقلل من قسوتها ، حتى لا تعصف بكل شيء . والقيم الروحية المتطورة تصارع القـوى المادية المتلونة .. والقيم الخلقية هى الاخرى حواجز عائقة للتحلل والابتذال ، وهـكذا يظـل الصراع مُستَدِيماً تنتصر فيه القوة وتنهزم فيه أخرى . فقد تنهزم الحقيقة أمام الزيف ، وينتكس الحق امام الباطل وتصبح القوة هى السيد الحاكم لكل شيء . ولقد علمتنا الحياة منذ العصور السحيقة أن الانتصار يلازم الافضل ، والأجدر بالبقاء ، فالانسـان ذلك الذي يمسك بزمام الحقيقة يكون في النهاية هو المنتصر بها على الزيف ، واذا كان لا ينعدم بتمامه فذلك ضرورى لبقاء الحقيقة نفسها . ولولا وجوده لما صارت ولما صار لها معه عراك ثم انتصار ، والحق يظل دائما هو الوسيلة المثلى المنشودة حتى بين الكائنات الحية الأخرى

لا يعدم فى صفوفها من ينتصر للحق ، اذا تعرض لطغيان الباطل وجبروته والضعف لامراء فى انه يتحول الى قوة مضادة للقوة المقابلة اذا تحسس الضعيف مكان خطاه وحاول ولو مجرد محاولة ـ أن ينطلق بنفس انطلاقة القوة المقابلة .

وقوة الضعيف حين ينتصر فى صراعه ستكون بلا شك قوة موازنة لتلك ان لم تكن طاغية عليها .

ومجمل القول أن حياة الانسان منذ الأزل لم ولن تخلو من صراع (متجدد ومُتَنَوعٍ) ولا تبدو قيمة الانسان وأصالته الا حين يعايش ذلك الصراع المتنوع ويحاول التغلب على خصمه والانسان فى عالمنا العربى عايش منذ القدم صراعا متنوعا فيه شراسة وصلابة وفيه

جرأة وعناد . وكأى إنسان اخر مثيل له تفاعل معه وانفعل وأثر فيه وتأثر . هذا الانسان العربى يمر فى وقته الحاضر بصراعين مريرين .. صراعه مع نفسه وصراعه مع عدوه وكلا الأمرين متمم للآخر .

قلت : إن المؤكد أنه لو انتصر الانسان في صراعه مع نفسه لانتصر بالتالى على عدوه مهما يكن استعداد ذلك العدو وشراسته . فما انهزم الانسان العربى امام اى عدو الا لأنه قد انهزم امام نفسه .. انهزم فى ثقافته الحديثة التى أخذها ، وهى مغلفة بغطاء لم يتفحصه جيدا .. وانهزم فى قيمه الروحية التى اعتبرها بكل أسى شيئا منسيا .. وانهزم في قيمه الخلقية ، ثم انهزم تدريجيا فى حكمه وعلاقته وثقته ببعضه .. فهل يستطيع انساننا ان ينتصر اليوم فى صراعه مع نفسه لينتصر بالتالى على عدوه ؟ لقد أخبرتنا وقائع الازمنة السالفة انه فى الوقت الذى كان فيه انساننا منتصرا على نفسه لم ينهزم امام عدوه ولا مرة واحدة؛ الم يكن انهزامه فى الاندلس قد حدث بسبب انتصار نفسه عليه ؟ الم يكن انتصاره فى حروب الصليبيين مع انعدام التوازن والتجانس فى الاستعداد قد حدث بسبب انتصاره على نفسه اولا ؟ وبالامس القريب .. لماذا انهزم ـ بسهولة ـ فى صراعه مع عدوه ؟ ان الجواب يعرفه كل عربى تفحص جيدا حالة ذلك الانسان قبل بدء الحرب واثناء الحرب .. مرة اخرى نقول ان انتصار انساننا العربى فى اى معركة يدخلها مرهون بتحقيقه النصر على نفسه اولا . فهل يعى انساننا العربى هذه الحقيقة ؟

الإنسان بين تفكيرين .

كتب الحجاج إلى المهلَّبِ بن أبى صُفْرَةَ ، قائلا : « أما بعد فإن بِشراً رحمه الله استكره نفسه عليك ، وأراك غِنَاءَهُ عنك ، وأنا أريك حاجتى إليك ، فَأَرِنى الجِدَّ فى قتالِ عَدُوّكَ ، ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله ، فإنّى قاتلُ مَنْ قِبَلى ، ومن كان عندك من ولي مَنْ هَرَبَ عنك فأعلمنى مكانه فإنّى أرى أن آخذ الْوَلِىَّ بالولىّ والسَّمِىَّ بالسَّمِىّ » . فكتب اليه المُهلَّبُ .. « ليس قِبَلى إلا مطيع ، وإنَّ الناس اذا خافوا العقوبة كَبَّـرُوا الذَّنْبَ ، وإذا أمنوا العقوبة صَغَّرُوا الذنب ، وإذا يئسوا من العفو أكفرهم ذلك ، فهب لى هؤلاء الذين سَمَّيْتَهُمْ ، عُصَاةً ، فإنما هم فُرْسَانُ أبطال أرجو أن يُقَتِّلَ الله بهم العدو ، وكلهم نادم على ذنبه » . انتهى .. (من كتاب الكامل لأبى العباس المبرد) .

قُلْتُ : وبين الحجاج والمهلب هوة ساحقة فى التفكير حول الانسان ، وسَبْـرِ غَوْرِهِ والتَعَرُّفِ على نزعاته . فالأول ينطلق من تفكير القوة العاتية تَقْتُلُ دون تمييز .. تطغى على نزعة العقل دونما بصيرة ، كأنها ترى الانسان يَخْضَعُ بالسوط ، ويُقَاد بالعصا ، وقد نجح هذا التفكير لفترةٍ مَّا ، ولقومٍ مَّا ، ولكنه يفشل فى كل الفترات ولكل الأقوام . والثانى : ينطلق من تفكير القوة الواعية تفرض العقاب حين يكون مجال ، وتزرع الرحمة متى وَجَدَتْ لذلك سبيلاً ترى أن العقاب الطاغِىَ ليس هو الوسيلةَ البالغةَ إلى الغاية الفاضلة ، فهى تُوجِدَ التَّعَامُلَ ، وَفْقاً لواقع قد يكون فيه العقابُ هو الفاصِلَ بين منطقين لا يصلح احدهما الا به ، وقد يكون هو القاتِلَ لحالين ، كلتاهما لا تَصْلُحَانِ به . هذان المنطلقان من التفكير مازالا يلازمان الانسان ، حين يكون آمراً أو مُنفّذاً ، منذ غَابِرِ التاريخ ، فَسَادَ قومٌ حين اهتدوا إلى طريق القوة الواعية ، وزال آخرون حين سلكوا درب الرهبة الطاغية ، فَالأَوَلُ

أنبتوا زَهْراً كانت حصيلته ألواناً جميلة ، والآخرون أنبتوا شوكا مُدَبَّباً كانت حصيلته أرضا باهتة ومَلاَمِسَ واخزة . ويتساءل أحدنا عن تأثير ومكان هذه التجربة التى كانت السبب فى وجود هذين المنطلقين من التفكير المتضادّ ، وقد يكون الجواب على ذلك سهلا حين يكون مكانُ التجربة قطعةً من أرض أُعِدَّتْ للإنْبَاتِ ، أو حَقْلاً هيّيء للتَّجَارِبِ ، أو حتى قطعة مادية تخضع لتجربة نظرية علمية فى شتى العلوم ، وَلَكِنَّ الأمْرَ يبقى أصعب من إدراك كُنْهِهِ حين يعرف أن محل التجربة هو « الانسان » .. إن الانسان حين يكون ميتا يمكن أن يكون مادة سهلة لتجربة طبيب أو اختبار عالم .. ولكنَّ الصُّعُوبَةَ تبرز حين يراد التحكم فى مزاجه أو إخضاعه حين يكون حَيًّا .. هل يمكن إخضاعه بالرهبة حين يَهِيجُ غاضبا ؟ هل تتم السيطرة على نزعاته حين يكون متقلباً ؟ هل يستطاع إقناعه حين يكون مائلا لمنحى ، أو عاشقا لفكرة ؟ هل يطلق له العنان ليقول كل مافى قلبه وروحه ؟ وهل تغل يداه حين يبسطها لتطال ما يرغب فيه ويتمناه ؟ قد يقول قائل : إنَّ كل ذلك ممكن حين يخضع الانسان لتربيةٍ منذ نشأته تُعَلِّمُهُ متى يكون بَاسِطاً يديه ومتى يكون غَالَّهُمَا .. تُعلّمه متى يفكر بحدود ، ومتى لا يكون لتفكيره حدود ، وأبعد من ذلك ، قد تجعله يغضب حين يكون للغضب مجال ، ويرضى حين يكون لِلرِّضَى حال ، أو هى ـ التربية ـ بالاجمال تجعله يتحكم بإتْقَانٍ فى مزاجه النفسّى متى شاء وأنى أراد .. وأنا مع الذين ينادون بأهمية التربية للانسان ، فهى المهذبة لكثير من أفعاله ، وهى الضابطة لجموحه ، إذ تمنع من الكذب ، وتمنع من الغش والطغيان .. تمنع الانسان من كثير من سَقَطَاتِهِ ، وَلَـكِنْ هل التربية تمنعه من كل سقطة ؟ أو تغرس فيه كل فضيلة ؟ سؤال ما حَسِبْتُنِى إلا واحداً من أولئك الذين يترددون بالجواب عليه ، نفياً بالكامل أو إثباتا بالكامل .. إن أهم عوامل التربية فى الشعوب المتدينة هو الدين ، وعلى اختلاف تفكير الشعوب نحو هذا العامل التربوى ثمة حقيقة لا ينكرها أحد ، حتى أولئك الذين يجحدون أهمية الدين ، هى أن التربية الدينية قد أثرت فى الانسان أيما تأثير .. فمنعته فى بعض الأحوال من أن يقتل إنسانا آخر ، أو يسرقه أو يغشه . وقد رأينا كيف فعل الاسلام فى القبائل الجاهلية فمنعهم من الاستعلاء على بعضهم أو على غيرهم .. منعهم من قتلِ بَنَاتِهِمْ .. رَبَّاهُـمْ أعظـم تربية ، وجعل منهم وحدة ودولة .. واذا تخطينا إلى العالم الآخر فسنجد أن ثمة عقائِدَ أخرى ليست من وحى السماء ، ومع ذلك فقد عرف الذين وضعوها كيف يمكن ان تتم

السيطرة على إنسانهم وتهذيبه . فمن تعاليم بوذا مثلا تحريم القتل والزنى والسرقة ونحو ذلك . فعقيدة اليابانى والتايلندىّ والكُورِىّ تحظر هذه الجرائم ، فكان هذا الحظر تربية أوجدت لهؤلاء قانونا على مر الأزمان . ومع أهمية التربية بوجه عام كما ذُكِرَ ، بَقِى الانسان يسرق ويكذب ويقتل . يريد أحيانا ان يتكلم بلا ضوابط .. يريد أن تمتد يده إلى كل شيء .. رُبِّىَ تربية حسنة فرفضها بكل معانى الرفض وغِلْظَتِهِ . وقد يُعَلِّلُ علماءُ النفس القتلَ حين يكون له أسباب . حين يثأر القاتلُ . حين يغارُ . حين يحملُ كل معانى الانتقام فى نفسه . ولكن يصعب التعليل حين يقتل إنسانٌ آخَردون أىّ دافع سوى التلذذ بالقتل ، كما فعل زعيم الهبيين فى « لوس أنجلوس » منذ سنوات ، أو حين تمتد يده الى شيء يسرقه من محل تجارىّ حينما هو غَنِىٌّ يملك أكثر مما فى ذلك المحل ، أو حين ينحرف شخص رفيع إلى مرتع لا يتفقُ والفضيلةَ أو قيمةَ المكانِ الذى يمثله . ومع أهمية التربية الدينية للانسان بوجه خاص ، ورغم غرسها فيه من صغره على نمط هذه الأديان واختلاف أساليبها ، لم تَسْلَمْ هذه التربية من التحلل منها بعضاً أو كُلاً ، فكم من قوم يظلمون وهم يَدَّعُونَ الايمانَ ، وكم من قوم يفسقون وهم كذلك ، وكم غَشَّ الانسانُ بضاعته دون مراعاة لضوابط تربيته وسلوكه ، وكم أكل مالَ آخَرَمع علمه بعدم أحقيته له . وكم هَتَكَ عِرْضَهُ وهو يعرف حرمة ذلك . وهكذا ظل الانسان ، وسيظل على ذلك المنوال إلى أبد الآبدين . ولا عجب من ذلك فالرب وهو الخالق كشف لنا سلوكَ الانسان هذا : « كَلاَّ إنَّ الأنْسَانَ لَيَطْغَى[1]أنْ رآه أسْتَغْنَى »[2] « إنَّ الانْسَانَ خُلِقَ هَلوعاً »[3] « إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً »[4] « وَإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً »[5] . (أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَينْ[6] وِلِسَاناً وَشَفَتَيْنْ[7] وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[8]) (قُتِلَ الأنْسَانُ مَا أكْفَرَهُ[9]) ومع ذلك يعتبر الانسان من أسمى المخلوقات وأكرمها ، به عَمِرَتِ الأرضُ وازدهرت وبه قامت حضارات . ورغم هذا التناقض فى الانسان الذى قد يعتبر سرًّا من أسراره ، ثمة ضابطان هامان ما ظننتُ لهما ثالثا . أولهما : التربية وسبق الاشارة بها . وثانيهما : « القوة الناظمة » ولا مرية فى أن هذه

---

(١) سورة العلق الآية (٦) .
(٢) سورة العلق الآية (٧) .
(٣) سورة المعارج الآية (١٩) .
(٤) سورة المعارج الآية (٢٠) .
(٥) سورة المعارج الآية (٢١) .
(٦) سورة البلد الآية (٨) .
(٧) سورة البلد الآية (٩) .
(٨) سورة البلد الآية (١٠) .
(٩) سورة عبس الآية (١٧) .

قد تفوق الأولى ، ليس فى كل الجوانب ، من حيث اعْتِبَارُهَا الخالق للتربية فى بعض الأحيان واذا كانت القوة الناظمة هى الوسيلةَ المُوصِلَةَ إلى الغاية الفاضلة فان الخطر حينئذ يكمن فى الكيفية التى قد تنقسم بها هذه الوسيلة على نفسها . فكما ذكرنا قد تكون هى الطاغيةَ ، وقد تكون الواعيةَ ، وبين الأمرين فجوة عميقة فى النتائج .. وقبل أن نأتى على تباين تفكير الْحَجَّاج والمُهَلَّب نعود قليلا إلى بدء الموضوع ومدى تأثير القوة ، فى نوعيها المذكورين سَلَفاً على الانسان . فعندما كان واجبُ الدراسة يفرض نفسه على طالب مِثْلى كان من اللازم كتابةُ بحثٍ عن « الارهاب » أسبابِهِ ودَوافِعِـهِ ونتائِجِـه ، وكيف يمـكن علاجُه . وكان هذا يستلزم قراءة محَاضرِ المؤتمراتِ الدولية وقَراراتِهَا عن الارهاب منذ عصبة الأمم الى آخر مؤتمر عقد قريبا فى نطاق هيئة الأمم المتحدة . ولشد ما كانت الدهشة حين ترى مثالا واحداً قاله ممثل دولة « جواتيالا » فى أمريكة اللاتينية عن الارهاب فى بلاده فقد واجهت تلك الدولةُ صنوفا ضاريةً وقاسيةً من قِطَاعٍ معين من إنسانها .. كان يسكن فى مرتفعات شاهقة جعلت الدولةَ هدفاً لسهام العصيان والتمردِ وتمزقِ الانسان ، هناك جَرَّبَتِ الدولةُ القوةَ العاتية تخيف بها إرهابا ينبغى إخماده احتراما لكيان الانسان ووَحْدَتِهِ . قَذَفَتْ بكل صُورِ القوة الممكنة ، وأخافت كل من يفكر فى الارهاب .. دفعت الملايين من النقود ، من أجل خطة المكافحة ، فجَرَحَتْ من جرحت ووَقَتَلَتْ من قَتَلَتْ ، واستمر ذلك الانسان فى جباله هو العاصى المكابد ، رغم ما يراه من نار تحوم حوله ، وبقى الأمر سنوات طوالاً فيها المعاناة له ، وفيها المعاناة منه . فيها حرمان الانسان الآخر من قومه ، من موارد رزقه ، من أجل خطة المكافحة . لقد فكرت الدولة كثيرا فى علاجٍ يُسْقِطُ الْقُوَّةَ العاصيةَ بعد أن جَرَّبَتْ خطة القوة . لقد درستْ ذلك الانسان من خلال واقعه ودوافعه ، فوجدت فيه الحرمان . وَجَدَتْ فيه اليأسَ فلم يفرق بين الموت والحياة . وجدتْهُ محروماً ، وزادته القوةُ العاتية حرماناً فاستغلظ وتَصَلَّب ، كأنه يريد الموت انتقاما لحرمانه ، أو خلاصا من واقعٍ مرير يعيشه ، فكأنه يريد قتل الآخرين لأنهم ظلموه . لذلك كان البديلُ للحراب وضع خطة أسمتها الدولة : « الخطة البيضاء « نشرت أعلامها فى كل منعطف ، وفى كل زاوية من البلاد . فيها التربية لأولئك الجهلة ، وفيها التعليم للأعداد الناشئة ، فيها : حُنُوٌّ على فقير بائس ، وعلى شيخ هَرِمٍ ، وعلى صبية صغار لفحتهم الشمس المحرقة ، وجَمَّدَهُمْ البردُ القارس فكانت المدرسةُ ، وكان العونُ والمكاشفةُ هى الوسائلَ البديلةَ التى جعلت القوةَ

الواعية هى المنطلقَ لعلاج معاناة الانسان هناك ، وإن لم يذكر المندوب كل التفاصيل عن مآل الانسان الذى أَلْقَى بسلاحه ، فان النتيجة معروفة ، هى أنه تخلى عن حِرَابٍ كان يستعملها ضد القوة ، ليحمل حِرَاباً تحارب فى صف تلك القوة . وعلى سبيل التمثيل : لو كان المُهَلَّبُ عمل بوصية الحَجَّاج لصار أكثرُ القوم أعداءً له ، يحاربونه مع أعدائه ، لو حدث ذلك لأمكن القول بأن التاريخ قد تغيرت معالمه تماما ، فالعقوبة ليست هى كُلَّ الوسيلةِ الموصلةِ إلى الغاية الفاضلة ، بل إنَّ المهلب رآها فى صورة معاكسة تماما ، فالتصلب والعناد من طبائع الانسان ، وتخويفه قد يكون الدَّافِعَ على تأصل العناد فيه ، كأنه يتصور الرفض هو المنجى من العقاب ، يتصور ان الخشية ليست هى رَدَّ الفعل للرهبة ، بل إن الرهبة تقابل الرهبة .. لتزرع الخشيةَ فى ذهن المُرْهِبِ ـ بكسر الهاء ـ وإذا كان الأمانُ من العقاب يدفع إلى تصغير المذنب فذلك ليس هو المعنى الذى يَنْظُرُ إليه قاصرُ ذهنٍ ، فلا يمكن تركُ العقاب ليحتكم الانسان إلى نفسه وعواطفه ودوافعه .. الأمان من العقاب أن يشعر الانسان فى ذاته أن مقاصد القوة الناظمة تكون فى عدم تَحَدِّيهِ بعقاب لا سبب له ، إمَّا لخطأ فى تكييف هذا العقاب بتوجيهه نحوه دون ذنب منه ، أو لقسوة العقاب بالمقارنة مع الذنب المُرْتَكَبِ . وإذا كان الانسانُ فى ردة فعله لكبر الذنب والأمان من العقوبة يفعل مايفعله فانه أقرب للكفر والعصيان إذا وجد أن لا مجال لعفو يمنحه ، حتى مع وجود الذنب منه ، فالانسان حتى عندما يقترف الذنب لسبب من الأسباب يطمع فى الرحمة .. يطمع فى تكييف ذنبه ليكون صغيرا حتى يكون العقاب صغيرا .. يطمع فى الرحمة إن كان لذنبه بحال رحمة فينظر إلى تخفيف سجنه كما ينتظر العتاق منه . وبالنسبة للقوة الواعية قد ترى ذلك وقد لا تراه ، ورَأْيُها لابد أن ينطلق من زاوية العامة ، إذ ليس من المستحب التضحية بالعامَّةِ فى سبيل فرد ، ولكن ليس من المستحب أيضا أن يكون هذا الفرد هو الضَّحِيَةَ الدائِمَةَ ، ويبقى الحفاظ على هذين الخيطين الدقيقين هو المُحَكَّ فى قدرة القوة الواعية لادراك واجباتها ومعرفتها للانسان .

* * *

رايـة الذات في مفهومين مختلفين .

عندما نتلقى فلسفة دعاة الإنسانية فى العصر الحديث ، وعندما نقرأ عبارات ميثاق الأمم المتحدة ، نتصور أن الانسان المعاصر فى أفعاله وتصرفاته قد تغير ، من حيث السلوك عن ماضيه ، فأصبح هو الوادعَ المسالمَ المتعاطفَ مع الإنسان الآخر وفوق ذلك يرتفع التصور إلى درجةٍ أعلى ، عندما تصغى الى كلمات المرشدين فى مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك ، فتستسلم لحُلمٍ يجذبك إلى تَخَيُّلِ أمة الأمم فى وقت ماقد تشهده الأجيال اللاحقة ويزداد هذا الحلم عندما تَطَّلِعُ على فلسفة كثير من الشباب بَدْءاً برفض ذبح الحيوان بدعوى أنه مخلوق يجب أن يظل له كيانه إلى أن يزول وهكذا .. نحن مع الحالمين بأمة الأمم وبالإنسان المتآلف مع بعضه ، المتعاطف مع جنسه ، ولكن يتنازعنا القول بأن الإنسان هو الإنسان فى تكوينه ونزعاته ، مع الاعتراف الكامل بأثر التربية والتهذيب وتغاير الزمان والمكان .

هناك من يرى أن صراع الإنسان مع بعضه منطق حَتْمِيٌّ ، وخصيصةٌ من خصائصه السيكولوجية وهذا السبب ـ فى رأى هذا البعض ـ يُدْرَكُ من كون الانسان يتألف من مادة وروح : الأولى لها خصائص المادة ، والثانية تتكون من عدة موزونات دينية أو ركائز خُلُقِيَّةٍ أو مَذاهِبَ عقديةٍ، وأنه ـ أى الإنسان ـ فى علاقته مع غيره يتأثر بتينك الخصيصتين، أى إن عَلاقته تتعادل إيجابا بقدر ما تتعادل هاتان الخصيصتان ، وأنها تجنح بقدر ماتسيطر الخصيصة المادية ، وأن منطقه وتصرفه يكونان مثاليين عندما ترجح الروح على المنطق المادىّ .. وهذه المثالية قد لاتكتفى بتعادل العلاقة بين الإنسان وجنسه ، بل تأخذ مَنْحَى التفضيلِ والإيثارِ على النفس ، ولكن فلاسفة عِلْمِ الإنسان وعلاقاته يعتقدون أن هذه المثالية فى أسمى معانيها خصيصة تليق بعدد معين من الناس له خصائصه المتميزة التى

لاتتوافر فى كافة الناس ، فهم الاستثناء من الأصل ، أما الإنسان العادىُّ فاعْتَبَروُا أن تَخَلِّيَهُ عن ذاته وغرائزه يشبه فى النتيجة عمله لاحتواء ذات غيره .. ويظل هدفُ هؤلاء هو البَحْثَ عن طريق للتعادل فى العلاقة ، تَعَادُلٌ نِسْبِىٌّ يعطى لكل خصيصة دَوْرَها المألوف ، فليس يطلب من الإنسان إعطاء ذاته لغيره ليكون هو الفاقد لكل شئ ، ولايراد منه بالمقابل احتواء ذاتِ غيرِه ليكون هو المَالِكَ لكل شيىء .. ويذهب قوم آخرون إلى أن سبب هذا الصراع قد لايكون كما قيل ، بل يأخذ طابعا آخر هو : كون الإنسان يفكر دائما فى حمل « رَايَةِ الذات » كما لو كانت جزءاً من كيانه وسرًّا من أسراره ، يتصور أنه فى ذاته أو أسرته أو قبيلته أو مدينته أو قريته كُلُّ شئ ، ويختلق الأسباب والعلل ليثبت عُلُوِيَّة ذاتِه على غيره ، حتى وإن كان يغالط نفسه أو تاريخه أو واقعه ، ففى الأساطير عند الْغَجَرِ أن الانسان الأبيض غير سَوِىّ الخِلْقَةِ ، وأن تكوينه غير طَبَعِىّ من الناحية التركيبية ، وأن الإنسان الأسود هو الآخر كذلك ، فمن ترى هو الإنسان سَّوِىُّ الخلقةِ فى نظر الأسطورة ؟ إنه الانسان الْغَجَرِىُّ لكونه يجمع أحسن المزايا والصفات الجسمية من سواد وبياض ، فى قالب واحد متناسق .. وفى عراك الذات بين الإنسان تَجِدُ الأمر أبسط من أسطورة الغجر ، إنه عراكٌ مستمر بين إنسان الدولة الواحدة ، أو حتى إنسان القرية فى تقسيمها البسيطِ حين يزعم أنه كل شئ بالنسبة لغيره .. البنجابىُّ فى القارة الهندية الباكستانية مثلا لايمنع نفسه من أن يحدثك كما فعل زميل لى من الهند ـ بأن البنجابيين هم الطبقة القوية فى تلك القارَّةِ ، وأن النصر ماكان ليتم إلا على أيديهم لقوة بأسهم ، وجرأة شجاعتهم ، ولكنك لاتلبث أن تسمع من هندىّ آخر من غير البنجاب ـ أن البنجابيين فى افراطهم فى الأكل وحبهم للنوم يتخلون عن صفات الإنسان العامل فى العصر الحديث ..

ويتخذ حب الذات أشكالا وأنواعاً مختلفة تتجلى فيها البراعةُ والحذقُ فى تعميق هذا الحب ، وفى اجتذاب الأعوان فى ذات الوقت « فأليجا » محمد المقيم قبل موته فى ولاية « الينوى » بالولايات المتحدة كان يغرس فى نفوس أتباعه أسطورة تزعم أن السود لم يَحْظَوْا بنبىٍ مرسل ، وأن العناية الآلهية أرسلته ليكون هو ذلك المنقذ لهم فى العصر الحديث ليرثوا الأرض من الشيطان الأبيض فى يوم مَّا وهكذا . إن ذاتية الانسان فى غُلَوائِهَا لاتتولد من أساطير كالأسطورة الغجرية ، كما لاتتولد من شخص له أهداف قيادية يجر وراءه قوما لِيُكَوِّن بهم قوةً .. إنها تتولد من الإنسان فى مختلف صُوَرِهِ وثِقَافَاته ، فأحد العلماء الغربيين

المتخصصين فى علم الأحياء طرح حديثا نظرية « الذَّاتِيَّة » فى أضيق صُوَرِها عندما ناقش التفاوت الاقتصادىَّ بين دول العصر الحديث ، فقسم العالم إلى قسمين . غَنِىّ وفَقِير ، فشبَّه الغنِىَّ بالرجل الساكن فى « قارب نجاة » وشبه الفقير بالرجل الساكن فى « البحر » ورأى أن القارب يجب أن يستمر فى سيره واندفاعه لأنَّ توقفه يَعْنِى اتاحة المجال للساكنين فى البحر بأن يتعلقوا بالقارب ، وذلك يَعْنِى أنهم سيجذبونه حتما ، فيغرقون جميعا ، ويتساءل ما اذا كان من الفائدة أن يغرق الجميع أم يغرق طرف واحد ؟! وأجاب على سؤاله بأن من المصلحة أن يغرق طرف واحد ـ هم الفقراء .

واذا كانت الذاتيةُ هى وجوداً عُضْوّيا فى الإنسان .. فى تفكيره وفى عمله وفى علاقته مع غيره ، فكيف يمكن ايجاد « تعادل » فى علاقته مع غيره ؟.. لقد ثبت أنه ربما يصعب خلقُ « تَعَادُل » مطلق يغير هذا الوجود العُضْوىّ فى الإنسان ، ولكن ثبت بما يشبه الجزم أن الدعوة الإنسانية فى مضامينها الفردية المتسامحة وفى التجمعات السياسية والاقتصادية تَخْلُقُ نوعا من هذا التعادل ، بدليل التجربة .. وهذه الدعوة ليست وليدةَ هذا العصر ، بل هى موجودة وجود الإنسان نفسه مع فوارق الأمكنة والأزمنة والتغيرات الحضارية . وقد برزت فى السابق فى شكل تَعَالِيمَ روحيةٍ وخُلقيَّةٍ ففى الأديان السماوية تركيز على المحبة بين الانسان فى علاقته مع غيره بالقدر المطلق أو النسبى فى محبتـه لنفسـه ، ففـى عقيدة الإسلام ـ مثلا ـ قاعدة واضحة : « لايُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى يُحِبَّ لأخيه مايُحِبُّ لنفسه » .. هذه القاعدة كما ترى تَقْرِنُ الايمان بوجود التعادل فى العلاقة مع الغير كما لو كان هذا التعادل فى العلاقة مع الشخص ذاته ، واذا كان الإسلامُ قد انفرد بهذه القاعدة فإنَّ ذلك يستتبع القول بأنه خرج عن قاعدة التعادل بمعنى الوجوب إلى قاعدة الإيثـار بمعنـى الاستحباب . أو أحد معانى الالتزام وفى ذلك أسمى معانى الانسانية .. فقد ورد أن أحد الأعراب كان فى ضيافة الرسول ﷺ ، وفى ذلك اليوم لم يأكل الرسول مع صحبه ، فتأخر الأَعْرابِىُ عن الأكل مع الحاضرين قاصداً الأكل مع الرسول نفسه ، وكان ثمة افتراضان حول هدف الأَعْرَابِى : فاما أن يكون قد ظن أن الطعام اللاحق سيكون أطيب مما قُدّمَ ، أو قد يكون قصد فضيلة الأكل مع الرسول .. وأيا كان الأمرُ فما وجَدَ الطَّعَامَ الخاصَّ بالرسول إلا من نخالة الشعير .. أليس فى ذلك السلوك أسمى معانى الايثار من شخص كان يستطيع إعطاءَ نفسه ماتريد من ملذات الطعام ..؟

وفى سيرة القائد عمر بن الخطاب ضروب عدة من التضحية ، وأمثلة كثيرة لتعميق المحبة بين الإنسان ، رغم تفاوته فى الْعِرْقِ أو الديانة ، فلقد رأى مرة ذِمّياً طاعنا فى السن يستجدى الناس القوتَ ، فسأله عن حاله فقال : « فقير أعوزته الحاجة » فأخذه عمر إلى داره وأعطاه شيئا مما يملك .. ثم رفع عنه الجزية ، وأمَرَ له براتب من الدَّوْلة ، وقال قولته المعروفة فى خطابه إلى صاحب بيت المال : « والله ما أنصفناه أنْ أكلنا شَبَابَه ثم نخذله عند كبره » إن صنيع عمر بن الخطاب من خلال هذه الحادثة ـ وهى جزء من كل ـ قد تخطى مفاهيم العلاقة المألوفة أو العلاقة القانونية المادية إلى معانى العلاقة الإنسانية الْخُلُقِيَّةِ ، قبل أن تُعْرَفَ بشكلها أو مفهومها النظرىّ فى العصر الحديث .. ومن معانى العلاقة الإنسانية إلى معانى العلاقة المتوازنة أو المتعادلة فى شكلها الْمُلْزِمِ والْمُلْتَزِمِ ، ضرب عُمَرُ مثلا فى تقنين الْقُدْرَةِ ـ الْقُدْرَةِ على الشراء ـ فتلتزم بالوفرة لتراعى قدرة العجزة والضعفة من الناس ، فقد شَحَّ اللحم فى المدينة ،فَقَنَّن عُمَرُ شراء اللحم فى يوم بعد آخر من الأُسبوع ، أى إنه حظر شراءه فى يومين متتابعين .. وإمعانا منه فى تنفيذ الأمر كان يخرج إلى المجزرة ـ مجزرة الزبير بن العوام فى المدينة ـ فَإِذَا تبين له أن شخصاً مَّا اشترى اللحم فى يومين متتاليين زَجَرَهُ ، بَلْ وَضَرَبَهُ .. ألم يكن عمر بذلك الفعل يرفض « راية الذات » فى مفهومها الأنانىّ ، لترتفع بجانبها «راية التَّوازُنِ» فى العلاقة ـ فى حدود ماتقضى به القواعد الروحية والخُلُقِيَّة ؟ .. هذا من جانب غيره اما من جانبه نفسه ، فكان يرفع « راية الايثار » كما فعل فى منعه أَهْلَهُ من تناول الزيت واللحم عام المجاعة إلى أن يشبع الناس .

ومن « راية الذات » كسلوك مُتَخَلِّفٍ عندما تنتصب فوق هامة العلاقة الإنسانية كرغبة ذاتية فى جعل الإنسان من نفسه سيد الآخرين ، تذهب « رايةُ الذات » إلى سلوك خُلُقِىّ أو بالأحرى ضرورى يستلزمه واقع الإنسان أو وجوده ، عندما يريد أن يحيا ضمن إرادة ذاتية تدفع رغبة السيادة إلى توازن العلاقة بين إنسان وآخر .. هذا الاختلال فى ميزان العلاقة يستلزم من ذى المصلحة رفع رايته الذاتية بأساليب مختلفة ، فقد يتخذ طابع الإلزام المبنىّ على قاعدة خُلُقِيَّةٍ أو قاعدة آمرة كما هو الحال فى (المكاتبة) ليحصل بذلك على حريته الطَّبعيّةِ .. وقد يتخذ رفع راية الذات أسْلُوبَ القسر المادىّ عندما لاتتم إعادة

العلاقة إلا به .. ومن هنا شرَّعَتْ كلُّ القواعد الخلقية حقَّ الإنسان الثابت والمستمر فى أن يبنى لنفسه كيانا ذاتياً ، وأعطته فى سبيل ذلك حَقَّ استعمال أَيَّةِ وسيلة خُلُقِيَّةٍ تهدف إلى خَلْقِ أو تثبيت هذا الكيان ..

ويقول آخر يمكن الإشارة إلى أن « راية الذات » للإنسان فى كل مَنَاحِى مايحتاجه مما تعارف عليه الناس خُلُقِياً ، أو ورثوه رُوحِياً ، حَقٌ من حقوقه لايَحُدُّهُ إلا التصادم مع مايماثله من حَقّ غيره ، فى أن يكون له هذا الحق .. ومن هنا تطرح عملية التعادل النسبىّ أو عملية العلاقة نفسها كأسلوب يمكن أن يكون بديلا لعملية الإيثار ، لأن هذه ـ كما قلنا ـ ليست من خصائص كل البشر .. وأخيراً يَطْرَحُ سؤالٌ نَفْسَهُ : متى وكيف تتم هذه العلاقة المتعادلة نسبيًا ؟.. وماظننته إلا سؤالاً صعب الإجابة ، ولكن يسوغ القول بأن تحقيق ذلك ، فى الغالب يرجع إلى سلوك الإنسان نفسه ، حين ينبغى أن يرفض أسلوب الاحتواء كقاعدة وسلوكٍ ، وحين ينبغى أن يتبرأ من « راية الذات » فى مفهومها الأنَانِىّ على أن يرفع هذه الراية وفقا للقواعد الخُلُقِيَّةِ ، عندما تتعرض ذاتهُ لخطرٍ حتى لايكون كَبْشَ الفداء فى عملية الاحتواء .

***

كائنات الغابة .

عندما تسقط أوراق الغابة فى فصل الخريف الواحدة بعد الأخرى يكون ذلك معقولا وطَبعياً .. إنها تسقط فى عملية تجديد للشجرة نفسها ، لأن الفصول الثلاثة كافية لعمر الورق وضعف نضارته ونمائه .. ومادام لكل الكائنات الحية موعدٌ للنهاية فنهاية الورق فى الخريف ، وهذه النهاية هى الخلاص من ورق ثقيل ذَوى وَمَات ، ليبدأ بعده ورق جديد فيه خفة المحمل ، وجمال المنظر ، وقابلية التَّغَذّى ، ليعيش فترة أخرى تماثل الفترة الماضية .. إنَّ فترة الخلاص من هذه الأوراق هى معنى التجدد ، واكتمال العمر ، عمرِ الشجرة وأغصانها التى لن تكون بعد هذا الاكتمالِ الا هَشِيما يؤول إلى ذراتٍ من ترابٍ ، وهى ذلك الذى نمشى عليه ونطؤه بأقدامنا ليكون بعد عشرات السنين وحدات من تلك الجُزْيئَّاتِ التى تتدفق لتشارك فى تكوين الطبقات المتراكمة للأرض ، إنها بالمعنى تكوين الطبقات المتراكمة للارض ، إنها بالمعنى الواضح طبيعةُ الحياة فى جُزْئيَّاتِها ومُكوّناتها : وجود وتجدد ، ثم تآكل وفناء ، مع اختلاف كينونة هذه العناصر وأيلولتها بعد هذا الفناء أو نهايتها ، ولكن أوراق الشجر فى الْغَابَةِ ليست كلُّها ذلك القائِمَ على هذا الترتيب المتدرج ، فى عملية آلية متكررة ، قد يكون هوذاك وقد يكون ذاك الذى نما ، ولكنه انتهى قبل اكتمال مدته الطَّبعِيَّة فقط تسقط الأوراق قبل حلول الخريف ، وفى الشتاء ، فى الصيف ، فى الربيع ، وقد تموت الشجرة الْأُمُّ بأكملها قبل اكتمال حياتها المعتادة ، إمَّا بفعل عوامل طَبعيّة مُعَيَّنةٍ كفقدان الماء أو تغير التربة وانجرافها ، وإمَّا بفعل اعتداء يمتد إليها من عابث أو بعوامل الحاجة للاستظلال أو التدفئة .

ذلك الشجر وأوراقه فى الغابة ، أمَّا الحيوان فى عناصره ومسمياته المختلفة فهو واحد من الكائنات الحية فيها ، وهو ذو دور كبير فى استقرارها أو اضطرابها .. له فصائل متفاوتة

فى الشكل والتكوين فيه الضعيف والجبان ، وفيه الْقَوِىُّ المقدام ، وفيه سلالات أصيلة ، وأخرى رديئة .. فيه الجميل بطبيعته ، وفيه القبيح .. حيوان الغابة كأوراقها يتساقط فى عملية « خَلَاصٍ » إمَّا من كائنات ضعيفة يأكلها الأقوياء ، اشباعا لغريزة شرهة ، أو طمعا فى السيادة تطبيقا لقانون الغابة .. فناء الضعيف فى جانب القوِىّ ، وإما من كائنات قوية يتفق الضعفاء على الخلاص منها ، فى عملية اجتماع الكثرة الضعيفة على تفتيت القوة ، والخلاصِ منها ، ودفعا للضرر المحتمل وقوعه ، وذلك هو الاستثناء دائما .. المساكن فى الغابة موزعة فى شكلٍ تِلْقَائى أوجدته المقادير لكل فصيلة حسب واقعها .. الحيوانات المسالمة لا تعيش إلا مع بعض .. والكاسرة هى الأخرى لاتعيش إلا مع بعض .. الطيور النافرة المميتة هى الأخرى لاتعيش إلا مع بعض .. تلك سنة الله فى شكلها الأزلىّ . وماذا عن الانسان ؟ هل هو من هذا الصنف المتساقط فى الخريف ؟ أو ذاك الأليف ؟ أو ذاك الشرس الكاسر ؟ إن الحياة التى يعيش فيها الإنسان تماثل الغابة وإن اختلفت الأساليب .. تماثلها فى هذا التساقط اللا إرادىّ ، وَفْقَ الحكمة الربانية المحكمة .. وتماثلها فى وجود هذه الأصناف المتنافرة من البشر فى طبائعها .. فى تقاليدها ، وفى طقوسها فى تباين مصالحها ، والأدواتِ التى تُمَثِّلها على هذا المسرح ، وَفْقَ ظروفها وواقعها ، وإذا كان الفارق الأول بين سكان هذه الغابة وتلك ، هو وُجُودَ العقلِ فى هذا الصنف وفقدانه فى ذلك الآخر ، فإنَّ الأول لايعنى بالضرورة أنه ملتزم به تطبيقا وتحكما .. قد يتجرد منه مدفوعا بأنانية الذات ، ومصلحة الأنانية،دافِعُه ابتغاءُ الانفراد بالسيادة ليحكم فى النتيجة سيادة القوة ، ومن واقع الحال يعرف أن العقل ماكان فى كثير من الأحوال هو الحكم بل ماأكْثَرَ ماكان خاضعا للمصادرة والمجافاة ، واذا كان الفرق الثانى هو النظام وتَحَكُّمَهُ بوجوده فى غابة الانسان وفقدانه فى غابة الحيوان ، فإنَّ النظام ليس إلا صورة غير حقيقية لتصرفات الإنسان ، فما يطبقه ويلتزم به واجبا وأداءً قد يخالف به ماهو مكتوب نظرية ومثالاً .. فأىُّ فارق بين الحيوان والإنسان حين يعتدى هذا على الآخر ، دون حق وينهى وجوده ؟ قد يقال : ذلك هو النادر فى تصرفاته وليس هو غَالِبَ سُلوكه ولاسَلوكِ كله .. ذلك نادر ، ولاعبرة بالنادر ، ولكنه على أىّ حال ، موجود فى تصرفاته مع فارق الأزمنة ومقاييس تحضره .. وأىّ فارق بين كائنات الغابة ، وبين تصرف رئيس دولةٍ حين يَسُنُّ قانونا يقضى بحق رجال سلطته فى اغتصاب من يشاء من الفتيات فى بلاده ؟ وأىّ

فارق بين هذه الكائنات وبين عصابات تبيد شعبا بقوة المال والسلاح ؟ الفارق كبير جِداً . ومادامت مقاييس التعقل ، ومَفَاهِيم النظِام لايأخذان دَوْرَهُمَا فى تصرفات الإنسان ، ومادامت القوة هى وسيلةً فى حياته فهو مثيل الحيوان فى وسيلته ، المفاهيم واحدة والوسيلة واحدة ، وإذَنْ لاقيمة لشكليات العقل والنظام ، ما دامت النتيجة متماثلة . وما غَفَلَ عن إدراك الحقيقة أؤلئك الذين يعتقدون أن وجود الإنسان يكمن فى امتلاكه قوة السيادة ليوجد له بالتالى سيادةَ القوة فى هذه الغابة المؤدبة ، وعلى أىّ حال تقلبت فيها المقاييس وانعكست المفاهيم فى تصرفات الإنسان يبقى ـ مادام مرتكزه العقل وسنده النظام ـ الأولى بالتكريم : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فى البر وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهَمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىَ كَثِيرٍ مِّمِن خَلَقناَ تَفْضِيلاً)[1] . صدق الله العظيم .

* * *

(١) سورة الاسراء الآية (٧٠)

مَثَلٌ له دَلالة .

عندما تَنـصبُ الأنانيةُ فوق هامة السلوك الإنسانى ينسى الإنسان نفسه وأن له شركة مع الآخرين فيما تجوز فيه الشركة فتتحول ذاته بمشاعرها وأحاسيسها إلى أنانية حمقاء تريد كل شيىء حتى وإن كان فى مِخْلَبِ طائر يحوم فى الفضاء ، وتنسى الاعتباراتِ والْقِيَمَ .. تغوص به فى حمأة الوحل، وتنزل به إلى متاهات الضياع . فما أقبح الإنسان حين تتقمصه الأنانيةُ بسرابيلها السُّودِ ، وما أجهله وأضره بنفسه حين يجعل من ذاته طغيانا أنـانياً مُقِيتاً .. إنها مأساته .. نهايته مادةً وخُلُقاً وإن طال به زمن ، وجادت له حال .. لقد كنا نسمع فى القصص الشَّعْبِيَّةِ المتداولة أن رجلين اتفقا على البحث عن طيور ثمينة فى مغارة بعيدةِ الْعُمْقِ مظلمة الجوانب ، سيئة الطَّالِع ، أحدهما اسمه « مقيط » وهو مدار المثل كان حظه التعيس قد جعل منه أنانياً فَجاً ، لايعرف إلا ذاته ولايشعر إلا بمنفعته .. نزل إلى عمق المغارة ، ولما بحث عن الطيور الثمينة وجدها ولكن العدد قليل ، وكان شريكه يسأله فى كل مرة عما إذا وجد شيئا ؟ فيقول له : نعم ولكن الطير الأول له ، والثانى لابْنِه ، والثالث لأخيه الأكبر ، والرابع لأخيه الأصغر . والشريك ينصت على مَضَضٍ ـ ونسى مَنْكُودُ الحظ أن هذا الشريك هو العون الذى سيحتاجه سَاعَةً مَّا . ولما هَمَّ بالتعلق بالرشاء سأله الشريك مرة أخرى عن حصته من الطيور ، فرد عليه بأنه لم يجد له شيئا .. وهنا يعصف الغضب بالشريك فيمسك بالرشاء ويرمى به اليه فى لهجة ظَلَّتْ مثلا له دلالاته على مر الزمان « يا مقيط خذ رشاك » وعاد راجعا ليبقى « مقيط » مع طيوره يهيم على وجهه فى المغارة العميقة . إنها حماقة الأنانية أنست ذلك الرجل أن نزوله وخروجه كان بفضل رِشَاءٍ تُمسِكُ به قُوَّةٌ تقف على فوهة المغارة .. حماقة أنسته نفسه ، وأنسته العلاقة مع الآخرين ، فهات ضاربا مثلا على سوء منقلب الأنانيين والذاتيين .

الفصل الثاني

الإنسان: الوحدة.. السلوك.. الحقوق

- وحدة التركيب الاجتماعي .
- حقوق الإنسان بين التزاحم والتصادم .
- الإنسان في بيان حقوقه .
- حقوق الانسان في الاسلام .



وحدة التركيب الاجتماعي .

تَنَاغُمُ التركيب للأشياء المتحدة فى الشكل أو العنصر حقيقة طبيعية قد لاتقبل الجدل الا من حيثُ كونُ هذا التناغِم يصل إلى درجة التماثل المطلق أو النِسّبِى ففى الغالب لايتم التناغم المطلق من حيث كلُّ الخصائِص المتحدة فى كل جزء من وحدات التركيب ، ففى عالم النبات تنتج بعض الأزهار نوعا معينا من الأزهار فى شكل واحد متحد فى خصائص التركيب يستطيع النظر العادىُّ تمييزه عن غيره من الأزهار الأخرى من غير ذات النوع ، ولكن وحدة التركيب الطبيعى لزهر الورد مثلا لاتعنى بحالٍ ، اتّحاده فى كل الخصائص المميزة له ، فمنه مايختلف حجمه عن الآخر . ومنه مايختلف فى بريقه أو رائحته . إنَّ تناغم التركيب غير المطلق للأشياء كحقيقة طبعية قد أثر فيما يعمله الإنسان بنفسه لحاجته . فالتناغمُ جوهر من عناصر الهندسة فى البناء المعمارى ، وتناسقُ أجزاء السيارة عنصر هام فى حقل انتاج السيارات .. وعلى ذلك يقاس كل عمل إبداعى يتم على يد الانسان ، وقد يتبادر الى الذهن أن التناسق قد لايكون مطلبا ضروريا بالقدر المُتَصَوَّرِ ، فجدرانُ المنزل لاتستلزم بالضرورة أن تكون متطابقة عرضا أو طولا . ومقدمةُ السيارة ليست بالضرورة مطابقةً لمؤخرتها .. وهذا صحيح ، ولكن مايعمله الإنسان مما استلهمه من أسرار الْخَلْقِ الطبعى ليس الا تصورا لإبداع أكثر فى التناسق والتناغم ، فجدار يبرز عن أمثاله ربما قصد منه التجميل والتزيين ، وليس من الطبعى أن ننظر الى ذلك من زاوية التنافر كما نتصوره نحن فقد يكون له استحسان فى نظر الغير وَفْقاً لمقاييس الجمال التى تخضع لتقدير نِسْبىّ بين نظرة وأخرى ، وقد يكون للتنافر بين الأشياء المفترض اتحادُها فى الخصائص ضرورةٌ مُوجِبَة ..

وعندما نعيد الأمور الى طبائعها نجد ثمة حقائق واضحة تبين لنا مقدار مايعكسه التناغم بين الأشياء ومايعكسه تنافرها من مؤثِّرات تتعلق بهذه الأشياء ذاتها أو حولها ، ففى عَالَمِ الحيوانات نجد الْقِطَطَ لاتعيش فى مراتع الذئاب ، وهذه لاتعيش فى عالم الأُسُودِ ، وفى عَالَمِ الطيور تعيش الْبُغَاثُ من الطير بعيدة عن عالم النسور . هذا هو الحيوان والطير يتّحدُ قَوِيه مع مثيله ، وينفر ضعيفه من ذلك القوىّ ليتحد فى عملية تتم تِلْقَائِيًا يتنافر فيها نوع مع آخر ويتحد فيها نوع مع نوع ، فما هى أهمية وحدةِ التركيب ؟ وما مَضَارُّ انعدام هذه الوحدة بالنسبة للإنسان ؟ إنّ ذلك سوف يسوقنا إلى التطرق للجدل العنيف الذى ما انفك يحتدم بين وقت وآخر ، حول تركيب الإنسان الاجتماعى ، وأى شكل سيكون عليه هذا التركيب ؟ وما هى الضوابط التى تحكمه ؟

لقد نظر « روسو » إلى الانسان على أنه تركيب اجتماعى بطبيعته ، وإذا أُرِيدَ نزع هذا التركيب منه فلافارق بينه وبين الكائنات الحيوانية الأخرى ، ومن ذلك المنطلق يذهب قائد المدرسةِ الجماعيةِ فى فرنسا ، ولكن من زاوية اضطرار الإنسان نفسه أن يكون تركيبه اجتماعيا ليحمى نفسه بقوة مجتمعه يستطيع السيطرة على القوى والأسرار الطبيعية ، وأنه لولا تلك الْقُوىَ لأصبح الإنسان غيرَ قادر على مغالبة تلك القُوى والأسرارِ الهائلة . ولكن هل يكفى القولُ بأن الانسان مركب من وحدات اجتماعية إمَّا لكونها كذلك بفعل الطبيعة أو بفعل الضرورة ؟ إن ذلك لايكفى لإنشاءِ علاقةٍ دائمة بين وَحَدَاتٍ قد تختلف فى بعض خصائصها على الأقل . وقد عالج هذا « دور كايم إميل » باستنتاجه أن مجرد وجود وحدات اجتماعية مركبة سيخلق بالضرورة نوعا من المثالية الْخُلُقِيَّةِ المتعاونة فيما بينها ربما لن تتيسر فيما لو كان كل فرد يعيش منعزلا عن الآخر . إنَّ الخلايا الاجتماعية المركبة شبيهة بمجموعة كبيرة من الأزهار تتّحد فى الخصائص وقد لايكون لكل وحدة تلك الخصائص الكاملةُ لنوع الزهر وطبيعتِه ، ولكن تصبح كذلك بفعل التفاعل المستمر مع الوحدات الأخرى ، فتلك القاصرة فى نموها الطبعىّ سوف تبرز كملحق مساعد لتلك التى على العكس ثم يتكون فى النتيجة ملكوت من الوحدات الزاهرة .

وعلى النقيض من تلك الأفكار برزت أفكار مضادة ترى أن التركيب السليم للفرد هو أن يظل فرديًا فى مَنْحَاهُ .. فى تفكيره .. فى علاقتِه مع غيره ، ويدعو إلى هذا الرأى « نيتشه »

حين هاجم بعنف منحى التركيب الاجتماعي في شتى صوره وفي شيىء من السخرية . شَبَّه الانسان المُلْتَزِمَ بالجماعية ، بالتاجر « دندنو » . وتحكى هذه القصةُ أن التاجر « دندنو » دخل في شجار مع « بانورج » وأثناء هذا الشجار أهان « دندنو » بانورج ، إهانة بالغة تسببت في حقده عليه ، وعلى الأثَرِ أراد الانتقام ، فاشترى منه خروفا ثم تركه يجرى في المساء وبدافع التقليد والتبعية انطلقت كل خِرَافِ التاجر تجرى واحدة بعد الأخرى ، ثم سرعان ماكان التاجر « دندنو » هو الآخر يلحق بآخر خروف ليمسكه ولكنه غطس في الماء . ومن هذا يتضح أن تشبيه الشخص في جماعيته بخراف « دندنو » يصور مدى نظرة نيتشه وأتباعه في التهكم بهذا الشخص وتبعيته للآخرين ، ومن ثم اعتبار الفردية أساسا في التحرر الذاتيّ من سلطات مختلفة يظل الإنسانُ من خلالها لاإراديا ، يجرى كما تجرى خراف التاجر « دندنو » لتصل إلى مصير لاتريده ..

قُلْتُ : وبصرف النظر عن هاتين النظريتين المتعارضتين في نظرتهما إلى الإنسان ينبغى أن نَعْرِفَ ، دون التزام بأىّ منهما ، ماهى أهمية وحدة التركيب الاجتماعي للإنسان ؟ ومامعنى فقدان هذه الوحدة ؟ بالرجوع إلى الواقع الذى يعيشه الإنسان في عصره الحاضر أو عصره الماضى القريب تبرز لنا حقائق عِدَّةٌ : فالشعبُ الهندىّ مثلا يرجع في أصله إلى مصدر واحد .. وتَحْكِى بعضُ الروايات أن كثيرا من سكان البنغال ذوى اللون الداكن بتميزهم قليلا عن سَحَنَاتِ الآخرين من جنسهم صاروا يبتعدون عنهم وربما بدأ هذا التباين بحساسية بسيطة تطورت إلى مايشبه العزلة فأدَّتْ ببعض البنغاليين إلى ضعف قَادَهُمْ إلى العمل في ظروف صعبة وفي مجالات يعتبرها الآخرون تمس بكرامة الهندىّ الأصيل ، فتألفت بسبب ذلك طبقة « المنبوذين وللفرار من تلك العزلة ، تَحْكِى بعضُ الروايات أن الكثير من سُكان البنغال اعتنقوا الإسلام بكثرة وربما اعتنق بعضهم المسيحيةَ أو أىَّ نحلة أخرى أرادوا من ذلك انفصالا نهائياً عن حضارة الهندوس . ومن جراء ذلك تكونت حواجزُ بين قوم فصاروا في النهاية أقواماً يستميت كل منهم في تكريس بُعْدِهِ عن الآخَرِ . وإذا كان هذا صحيحاً فلعل قائلا يقول : ألاَ يُعْتَبَرُ خللُ التركيب الاجتماعىّ في الهند قد أدى إلى انفصال قسم كبير من البنغال عنها ؟ والقسم الآخر ربما يفعل ذلك لو أُتيحت له فرصة من قوة ، وفي أمريكة كانت الحرب الأهلية المريرة بين قوم يشتركون في معظم خصائص الوحدة ، وكان وجود القادمين من القارة الإفريقية سبباً في

خَلْقِ شُعُورٍ بخلل التركيب الاقتصاديّ بين قُطْبَيِ الاتحاد : الجنوبِ والشَّمالِ ، فحدث ما حدث إلى أن حَلَّ الأمريكيون مشكلتهم بأنفسهم . وفى بريطانية اليوم ومع المستقبل الاقتصاديّ القائِم للدولة المسماة بالعظمى يَتَوَجَّسُ الناسُ هناك خِيفَةَ من تكاثر الملونين أن يكونوا كثرة تخلُّ بالتركيب الاجتماعيّ لمجتمع يتحد فى الخصائص . وجاء رئيس دولة إفريقية بمغامرةٍ جريئة تَخَلَّص بها من تجار أسيويين عاشوا ردحا من الزمن فى بلاده لماذا ؟ لأنه ، فى نظره ، قد حدث اختلال فى ميزان التركيب الاجتماعيّ والاقتصاديّ ، وفى ماليزية يوجد بطريقة أو أخرى ، صرَاعٌ بين الماليزيين والصينيين : الأُوَلُ يستخرجون المطاط ويبيعونه على الآخرين ليكونوا منه صناعة . وفى ذلك الخِضَمِ شَعَرَ الماليزيون الأصائلُ بأن دخلهم من المطاط لايتفق مع مردوده الحقيقيّ فنشأت مخاوف من اختلال التركيب الاقتصاديّ .

إن الانسان فى تجمعه اللا إرادي ، مع بعضه مسوق بفعل الواقع إلى الاندماج مع بعضه فى تَآلُفٍ إرادي أو لاَ إرَادِيّ ، ومع هذا يعتبر اتحاده فى كل المزايا والخصائص أمراً صعب التحقيق بفعل عوامل كثيرة : البِيضُ تسللوا إلى روديسية[1] وجنوب افريقية ، ومع مرور الزمن صار يصعب على المهاجر من اسكوتلندة العْودَةُ إليها برغم شعوره بعدم الوحدة مع أُناسٍ يشكلون أغلبيةً . والافارقةُ رحلوا الى أمريكة ، ورغم تباين التركيب بين مجتمع « الأَبَامَا » وهؤلاء ، صار يصعب على المهاجر من « غانة » العودة اليها وتساءل بعض الغربيين ، وقالوا : كيف يمكن حلُّ مشكلةِ فِلَسْطِينَ ، ونحن لانستطيع أن نعيد اليهوديّ الى البلاد التى نزح منها ، ولما قيل لهم وما هو الحل بالنسبة لأصحاب الأرضِ الحقيقيين ـ أرضِ كنعان ، كما ذكرتها كتبكُم القديمة ؟ قال البعض منهم : فى هذه الحالة تنشأ وحدة التعايش المُصْلَحِيّ برغم وجود الفوارق . وهذا يَعْنِى أن يتعايشَ أقوام يختلفون فى العِرْقِ والدين واللغة تحت ظل المصلحة ، وفى إطارِ تآلف الإنسان مع الإنسان .. إن الخلط هنا واضح فهناك خرق بين تعايش مصلحيّ يتم بارادة المتعايشين وبين تعايش يُراد أن يُفْرَضَ بالاغتصاب والظلم كما فعل اليهود . ونحن هنا لانناقش الموضوع من جانبه السياسّى ، فذاك له أصحابه من عربِ فِلَسْطِينَ ومن ماثلهم من المظلومين فى إفريقية وغيرها .. وإنما نناقشه من جانبه الاجتماعيّ الماديّ البحت ، فالأقليةُ فى « كَمِهَاَ » عندما تنقلب الى

(١) أصبح اسمها بعد الاستقلال « زيمبابوى »

أكثرية فى « كَيْفِهَا » تفتقد وحدة التركيب أيًّا كان شكلُها ونوعُها ، وعندما تَجْعَلُ فئة من نفسها المُرَكَّبَ الوحيد ـ بالتشديد ـ فإن عمليةً معقدة من اقتفاء الوحدة تَنْشَأُ حتى وإن كان التركيب مُتَّحِداً فى الخصائص . إنَّ وحدة التركيب الحقيقةَ تتم حين تكون الأقلية فى « كَمِها » أقلية فى « كَيفها » حين يترك المُسْتَعْمِرُ ـ بالكسر ـ المُسْتَعْمَرَ ـ بالفتح ـ حين يعود المهاجر إلى مكانه الذى هاجر منه ، أو يعيش مع الأصيل فى علاقة تتوافر له فيها الضمانات الإنسانية . فالأبيض الذى يعيش فى غانة أو غينية لايثير مشكلة ولكنه يثيرها عندما يكون فى جنوب إفريقية لماذا ؟ لأن وجوده الأوَّلَ يتفق مع وحدة التركيب السليم ، مما اتفق عليه الإنسان فى حاضره وماضيه ، ولكن وجوده فى الثانى يُناقض ذلك التركيب حين يريد أن يكون هو النّشاز فى نواميس الطبيعة .

قُلْتُ : ومن الاستقراء لأسبابٍ كثيرة من الخلافات القائمة فى عدد من البلاد يتبين أن خلل التركيب فى عملية التعايش الاجتماعىّ سبب جوهرىٌّ وراء كل مشكلة فى أىْ مجتمع سواء ذلك الذى عرفناه من تاريخه أم من خلال الواقع الذى نلمس فيه احتراق عدد غير قليل من المجتمعات . والتعليل المنطقىُّ لهذا الواقع يبين أن اختلال هذه الوحدات يولد عناصر اجتماعية متغايرة فى حياتها وأساليبها المختلفة ، فالعنصر المغلوب يسعى إلى تعويض واقعه بطرق مماثلة لِنِدّهِ أو مغايرةٍ على الأرجح . وقد دلت الوقائع على أن العنصر الغالب بما أوتى من مكنات مختلفة يستمر مدة أطول فى غَلَبِهِ وكثيراً ما يكون هذا الاستمرار أحد أسباب تكريس هزيمة الطرف الآخر ، مما يؤدى الى توسيع دائرة انعدام وحدة التركيب، وقد دلت الوقائع أيضا على أن الطرف المغلوب حينئذ يغير أسلوبه من حيث عمليةُ التعادلِ مع ندّه فيلجأ الى وسائل أخرى مغايرة ، فلا يهمّه أن يكون رئيسا لمجموعة شركات تسيطر على وسائل الانتاج ، وقد لا يُهِمُّهُ أن يكون ذلك المبارز المنظم فى مسرح المبارزة مع ندّه ، ولكن يُهِمُّهُ أن يقضى على كل المنطلقات التى سببت ، عملية التبارزِ غير المتكافىء ، فيقرع الأجراس بعنف ويحفر الصخور بشدة ، ثم يلجأ إلى عملية « التفاف » مع المتجانسين معه وبالتالى تتحول عملية التسابق إلى عملية تبارزٍ شرسٍ تَرْفِدُه عوامل الانتقام والحقد الباطنىّ ، واذا كان « نيتشه » قد نظر إلى قضية التاجر « دندنو » فى فعله اللا إرادى وتبعيته للخراف على أنها تصوير للفرد المقلد ، فانَّ قضية « دندنو » من زاوية

أخرى تصور مدى ما فعله « بانورج » بالتاجر عندما تَوَلَّدَ فى نفس الأول حقدٌ على الثانى دفعه فى النهاية الى الانتقام منه بجرّ الخراف وجَرّهِ هو إلى نهاية تعيسة . وبغضّ النظر - كما قلنا - عن العلل والأسباب التى يعتبرها أصحاب النظريتين مؤيدةً لفلسفتهم ، وبصرف النظر عن صحة هذه أو فساد تلك ، هناك حقيقة تطرح نفسها مؤكدةً أن الفرد يهتم بحصوله على مجال متكافىء نسبيا فى عملية التعايش الاجتماعىّ ليجد القوت حين تدفعه غريزة طبيعية إليه ويجد الدواء حين يلجئه طارىء من أعراض الجسد المؤلمة وهكذا .

نحن أحيانا نظلم الانسان فى نظرتنا إلى تفكيره أو تصرفاته من خلال نظرتنا الذاتية ولشد ما يكون الظلمُ أفجَع عندما تكون نظرتنا الذاتية ضيقةً ، ولا تتناسب مع فعلنا بأنفسنا فيما لو كان التصرف من لَدُنَّا ، وما علمنا أن التفكير الانسانِىَّ يتم فى بعض الأحيان لا إراديا فهل بوسع الانسان أن يكبح غريزة الأكل ؟ وإذا كان الجواب سلباً فهل بامكانه كبح أفكاره حين تنطلق من هذه الخلفية ؟ الانسان سهل وطيّع وبسيط جِدًّا عندما تكون عملية التعايش مقبولة لديه ، ولكنه يضيق ويقسو عندما تكون على العكس ، ثم يتحول هذا الضيق إلى عملية نفسية أشبه ما تكون بالمبارزة مع أضداده كما يتصورهم ، وقد لا تكون هذه المبارزة مع آخرين ، بل قد تكون مع ذاته حين يلجأ إلى عملية الخلاص من نفسه فى عملية عشوائية غير واعية ، ولكنه بالتأكيد لن يلجأ إلى هذه العملية إلا عندما يجد المبارزة مع الآخرين عمليةً شاقةً . فنظرتنا إلى الانسان ينبغى أن ترتكز على إمكان تعايشه فى وحدة عادلة نسبيا على الأقل ، بصرف النظر عما اذا كانت هذه الوحدة فى إطارٍ جماعى كما يذهب إلى ذلك « دور كايم إميل » وأنصارُه ، أو فى إطار فردىّ كما يذهب إلى ذلك « نيتشه » وأتباعه .

ويمكن أن تتم وحدة التركيب هذه بطريقتين : الأولى عَبْرَ مثالية خلقية تنشأ من الْوَحَدَاتِ الاجتماعية ذاتها على أساس فهم كامل لضرورة التعايش الذى لا يتم الا بالتضحية من قِبَلِ ذَوِى العلاقة[1] وما إخالها إلا عمليةً معقدةً ومتشابكةً لا سيما فى مجتمعات عاشت عبر تاريخها وفق منطلقات ذاتية ضيقة ولكنها أى هذه المثالية ممكنة الوجودِ فى هذه المجتمعات ، وينطرح أمامنا سؤال عن الكيفية التى تتم بها هذه المثاليةُ ؟ « دور كايم » يعتقد أن المثالية الخُلقية قد لا تحتاج إلى عناءٍ ، فالتكوين الجماعىُّ للوحدات يؤدى بالضرورة إلى خَلْقِ هذه المثالية تلقائياً ، وقد يكون « دور كايم » محقا من وجهة

(١) المثالية الخلقية ترادف المسؤولية الخلقية التى أشير اليها من قبل

نظر البعض ، ومخطئا من وجهة نظر البعض الآخر .. وأيّاً كان الجدل حول ذلك يمكن القول بأن هذه المثالية قد تتم على يد الانسان نفسه بغض النظر عن الكيفية التى يكون عليها من حيث تركيبُهُ الاجتماعىُّ . الطريق الثانى : التنشئة الخُلُقِيَّةُ إذا كانت المثاليةُ الخلقيةُ عمليةً معقدةً ، كما قلنا فان التنشئة الخُلُقية ـ وان كانت مضمونة النتائج ـ أعقد بكثير ، ففى ـ الماضى ـ كان الانسان يخضع لمؤثرات روحية تســهّل إخضاع تفكيره ، وتحتوى كل نزعاته ، فكان لذلك يطمع فى الثواب ، ويخاف العقاب ، فسهل انقيـاده والتأثير عليه ، وبالتالى كانت المثالية الخلقية تنبثق من هذا المُنَاخِ لتصبح منهاجا وسلوكا يلتزم به الفرد ، كما لو كان ينفذ قانونا ، ولذلك لا يشك أحد فى الأثر الذى أحدثه أو يحدثه المناخ الروحىُّ فى خَلْقِ المثالية الخُلقية وفى وقت تتصارع فيه المادية والروح ، وينحسر دَوْرُ هذه كلية فى عدد من المجتمعات ويخبو فى تجمعات أخرى ، مما تبرز معه مشكلة انحسار المثالية الخُلقية تبعاً لذلك ، فكيف يكون البديل ؟ هناك من طَبَّقَ مبدأ « دور كايم اميل » القائلِ بأن المثالية الخُلقية تفرض نفسها عندما يكون المسار فى مجتمعٍ مَّا ، مساراً اجتماعيا صرفا . وهناك من يعتقد البديل فى مثالية ترتكز على أسسٍ إنسانية حين تقوم فئات اجتماعية بالمشاركة فى خَلْقِ رعايةٍ اجتماعية لا على أساس دينىّ تنتظر من روائه جزاء أو تخاف عقابا ، ولكن على أساس حب النوع لنوعه وإعانته متى كان يحتاج للعون ، أو ترتكز على أسس مصلحية مشتركة من منطلق روحىٍّ وسياسى حين تقوم فئات اجتماعية بعملٍ مَّا من أجل الانسان فى عمومه كما تَدَّعى ذلك بعضُ الجمعياتِ العالميةِ حين تحتضن أطفال البؤساء فى الهند أو جنوبِ شرق آسيا أو حين ترسل معونة لبلد تَعَرَّضَ لكارثةٍ مَّا . ولكن رغم ذلك يبقى لفقدان المُنَاخِ الروحىِ الحقيقى أثرُهُ الهائل فى فقدان المثالية الخُلقية فى عدد من المجتمعات .

إذا فُقِدَت المثالية الخُلقية الطوعية لسبب من تلك الأسباب التى ذَكَرْتُ سلفا . فما هو الحل ؟ يجوز القول بأن دور التنشئة لايجاد مثاليةٍ خُلُقية يغدو مسؤوليةً ملازمة للمتنفذين فى المجتمع على أساس من الفهم الكامل للانسان فى نزعاته ، وانفعالاته وأحاسيسه ، مع الأخذ فى الحسبان أن هذه التنشئة لا ينبغى أن تكون مادية بحتة يلتزم بها الفرد كقانون لا يلتزم به الا لخوفه من العقاب بل ينبغى أن تكون تنشئة مقترنة بتقبل الانسان الطَّوعىّ لها ولو بنسبة ضئيلة لأنه هو وحدهُ الأساسُ فى إيجادِ وحدةِ التركيبِ يضعها ؛ يُشَارِك فيها ،

يساعد فى استمرارها . ولربما يؤيد قائل ما ذهب إليه « دور كايم من حيث ان الانسانَ يصبح عضواً عاملا فى المثالية الخُلُقية اذا تَحَوَّلَ إلى مسارٍ اجتماعىٍّ باعتبار أن هذه المثالية تفرض نفسها كقانون طبيعىٍّ للخلايا الاجتماعية المتحدة ـ وبمعنى آخر توجد هذه المثالية نفسُها دون حاجة إلى تجاوب الانسان الطَّوْعِىّ اللاإرادى . ويرد على ذلك بأن مشاركة الانسان الطَّوعيةَ فى إيجاد المثالية الخُلقية عامل هام فى ضمان استمرارها وتيسير تطبيقها . وقد دلت الوقائع على أن التنشئة المادية لخَلْقٍ المثالية الخُلُقيةِ تُوَاجَهُ بتحديات عنيفة ينظمها بعض الانسان ، وقد لا ينتج هذا التحـدى من شعور حقيقىٍّ بفساد المثالية التى فُرِضَتْ عليه ، بل من شعور الانسان بغيابه ، أو إبعاده عن هذه المشاركة . فالانسانُ الذى تمرد فى أوروبة على التقاليد والموروثات ، وأَسَّسَ المذاهب الفلسفية والمادية ، تمرد على الواقع الذى أُبْعِدَ عنه حين صارت المثالية الخلقية تُمْلَى عليه إملاء من قبل فئات تعتقد أنها كل شىء فى السيطرة على نوازع الانسان . وحين صارت مقوماتُ الحياة المختلفة قصراً على النبلاء ومن فى حكمهم . والانسانُ الذى يتمرد اليوم ويرفض كل شىء فى أنحاء عدة من المعمورة يحسّ بِضِيقٍ بِهَلَعٍ .. بمَرَارَةٍ .. بيأْسٍ وشقاءٍ ، لأن الفرصة لم تتـح له فى المشاركة فى صنع المثالية الخُلُقِيَّةِ فى مجتمعه بأيّ دَوْرٍ يستطيعهُ وإن كان ضيقا . لهذا ينبغى نبذ النظرية الخاطئة التى ترى أن الانسان يجب أن يُعْطَى كُلَّ شىء ، أولا يُعْطَى فالانسان يختلف فى عطائه على أساس مكناته الطبعية والمكتسبة ، فليس المهم أن يُعْطَى الكثير ، بل المهم أن يُعطى ولو كان هذا العطاء قليلا . ان ذلك لن يتم إلا عندما تتحلل بعض الشعوب من عقدها المنحدرِ بَعْضُها من أساطير الأولين ، أىْ حين ينتهى عهد المنبوذين والمستضعفين .. وحين تختفى عقدة التمييز والأفضلية عند العنصريين .

***

حقوق الإنسان بين التراحم والتصادم .

قُلْتُ : ربما يقتضي وجود الانسان في شكله الهادىء المحسوس تناقضا وتضادًا مع جنسه ، وتوجب هذا التناقُض أو تفرضه طبيعةُ الوجود ونواهيه،مَثَلُ الانسان فى ذلك مَثَلُ أى كائنٍ مادىّ آخر . فسنابل القمح ليست بالتأكيد فى مجموعها مُتَناسقة مع بعضها .. فيها الضعيف فى بنيته وتركيبه . فيها ذو الساق الطويلة ، وفيها ذو الساق القصيرة ، والأشجار والحيوانات كلها من ذلك النمط . نمطِ اللاإرادة . نمطِ الوجود كما هو دون محاولة للتعليل .

هل يكون الانسان فى حالة مماثلة من الصحة لِندِّهِ أو فى غنى مماثلٍ ، أو فى شكل مماثل ؟ كلا : فالانسان قد يكون متناقضا مع ذاته ومع نـدّه ومع غيره . ومن أجل هذا صار هذا الانسان يَبحث عن أسباب يتعلق بها ويتصور أنه يحمى بها نفسه فى التصور القريب والبعيد،ومن هذه الأسْباب ما يـؤدى إلى قتل ذاته بارادته ، أو قتل غيره بفعله ، وهو ما يمكن تسميته بـ « التصادم الانسانى » .

هذا التصادم قد وجد منذ أن قُتِلَ الفرع الأول من الانسان بفعل أخيه ، نتيجة انزلاق نفسى عنيف ، عصف بالفاعل فنزع به إلى القتل ، ومع ذلك لم يكن هذا التصادم هو الْوَحِيدَ فى ذات الفاعل ، بل كانت تمتزج به نزعةٌ إنسانية فطرية لا إرادية جعلته يبحث عن حل يُخْفِى به عُنْفَه ، كما جعلته على فعله من النادمين .

من هذا المنطلق ظل الانسان وسيظل يعيش منطلقين متباينين هما التصادم والتراحم ، وإذا قيل : إن هذا واقع لا إرادىٌّ يصعب تعليله من زاوية يقبل بها العقل كل العقل ، فان ذلك لا يَعْنِى استحالة هذا التعليل ، حتى وإن لم تَقْبَلْ به الأفهام كل الأفهام . التصادمُ يفترض عندما يدرك أنه لا وجود لجنس أو نوع يتماثل كل التماثل فى شكلـه ومضمونـه

أو نزعته وتصرفاته . الرجل الثلجى أو البارد مثلا عندما يذهب الى المناطق الحارة يجد لذةً معينة ترتفع إلى أعلى درجاتها عندما يكون فى بداية تغييره من واقعه السابق إلى واقعه الحاضر ، وهذه اللذة لا تأتى من عملية « التغيير » للمألوف ، إذ أنه لا يلبث ان يعود فى نزعة فطرية أخرى الى الحنين الى منطقته الباردة وهو وان لم يَعُدْ إليها بذاته حَنَّ اليها بروحه وتذكرها فى فخره بموطنه الأول حين يزهو به على غيره . الانسانُ الأوروبىُّ الذى ولد فى أوروبا وهاجر منها ليذهب إلى استراليا مثلا من واقع عيش ضنك أو من حالة اجتماعية معينة . يقبل استراليا موطنا بديلا لمكان صُدِمَ فيه ، ولكنه مع ذلك يذكره لنفسه فى خلوته ومناسباته ، ويعود إليه فى عطلة صيف أو فى زيارة عمل ، بل ويُذَكِّرُ أولاده به . إنه الانسان فى نظرته المتناقضة : يتصادم مع واقعٍ ، ثم ينزع إلى التراحم مع هذا الواقع . ومن الجائز القول بأن التصادم . الانسانىَّ فى مجمله لا يَعْدُو حالات ثلاثاً : التصادم مع الذات ، والتصادم مع الند ، والتصادم مع الغير فى عمومه .

التصادم مع الذات يتم عندما تنعطف النفس إلى داخلها فى عملية انزلاق غير عقلانىّ ، ينزع الى تحطيم التراحم المفترض بين الخلايا الجسمية المادية وبين النزعة العقلية والروحية المتحكمة فى هذه الخلايا ، فتموت هذه النزعة ـ العقلية ـ ويتم الانزلاق نتيجة احتكاك أرعْنَ يجعل من هذه الخلايا أدواتٍ تأكل بعضها . هذا التصادم بالمعنى الآخر ـ يتم عندما يموت التراحم المفترض بفعل عَوامل كثيرةٍ يقتل بها الانسانُ ذاتَه إما بوسائل غيره حين يعطيه فرصة الرد المعاكس لفعلٍ اقترفه بحق هذا الغير ، أو بقتل ذاته على طريقة « الهاركيرى » المشهورة لدى اليابانيين .

وإذا افترض أن الذات الانسانية تتقمص نظريا وعمليا منطلقا للتراحم فان ذلك لا يتناقض مع عملية انتصار التصادم على التراحم ، فى قضية الانتحار ، فالتراحم يوجد بشكل فطرىٍّ ومُتَلازِمٍ مع الانسان فى وجوده ، رغم تباين تربيته ومُعْتَقَدَاتِهِ ، والتصادم يوجد لدى البعض منه أو كله كأنه الاستثناء تخلقه ظروف طارئة أو تغذيه عوامل اجتماعية شاذة ، وليس من الغرابة أن نتصور أن إنهاء الذات ـ من وجهة نظر ممارسيه ـ إنما يتم لا عن طريق التصادم النفسى وحده مع الذات ، بل مع وجود التراحم فيها أو بفعله هو ـ وتحكى إحدى الروايات أن إنسانا مًّا ، أوصى ذريته بأن يحرقوه بعد موته ويذروا رماد جسمه فى الهواء ، ومع أنه لم يعمل عملا روحيًّا قط فى حياته ، إلا أن الرحمة الآلهية حقت له ، لأنَّ

دوافع وصيته باحراق جسمه كانت نتيجة خوفه من العذاب فهو من وجهة التعاطف مع نفسه كان يطبق التراحم فى أعلى صوره باحراق جسمه ، فى خوفه من العذاب الأبدى . ومثل هذا قصة « ماسانورى كاساهرا » السائق الذى أمضى فى خدمة رئيس وزراء اليابان .. السابق « تاناكا » أربعين عاما قتل بعدها نفسه بعد ان برزت فضيحة « لوكهيد » لماذا ؟ إنَّ .. كاساهرا يخلو من المسؤولية تماما فهو لا يعرف السياسة ولا الاقتصاد ، إنه سائق أو خادم عادىّ .. ولكن الفضيحة خلقت فى نفسه تصادما عنيفا ، ولربما كان يعتقد أن التراحم المفترض فيه يوجب عليه ان يندم على خدمته لرجل متهم بأخذ الرّشاوى .. التصادم هنا أوجدته الفضيحة فلو لم يكن تاناكا أحد المتأثرين بها لما كان كاساهرا هو الْقَاتِلَ لنفسه .. وأعود فأكرر مرة أخرى ان عملية التصادم مع الذات فى شكلها اللامسؤول عملية استثنائية ـ تتم فى نطاق ضيق ولا تتعارض مع فطرة التراحم المتأصلة فى الانسان .

والتصادم مع الضد عملية توجد لدى الانسان ـ ليس كل إنسان ـ وقد تَنْتِجُ من إحساسين متوازيين . الأول : الاحساس بالذات العلية تجاه أى ند آخر ، وهذا ترفده مشاعر مختلفة ولكنها لا تتعدى قوالب الحب الذاتىّ للانسان تجاه نفسه وشعوره بالتميز على غيره ، وهذا ما يتعارض مع الْقِيَمِ السلوكية الخيّرة التى تحاول المعتقدات والعادات المتحضرة غرسها فى الانسان ، انطلاقا من مفهوم المحبة للغير . الاحساس الآخر ينطلق من ضرورة التصادم مع الضد ، حماية للذات من الضد ، وهو كما نعرف مبدأ تعارف عليه الانسان منذ تَدَرُّجِهِ التاريخىّ ، مع اختلاف الوسيلة ، من انتقام همجى متوحش ، إلى دفاع عقلانى ، يحفظ للذات الْمُعْتَدَى عليها وجودها ، مع المحافظة على الذات الأخرى ، ما أمكن إلى ذلك سبيلا . إن المشكلة لا تكمن فى مبدأ شرعية التصادم مع الضد ـ لاسيما منه المعتدى ـ بل تكمن فى حقيقة وجود هذا الضد ، فالوهم ومفاهيم السلوك المتباين ، تخلق عند بعض الانسان شعورا بوجود الضد ، ثم ينطلق من زاوية الدفاع أو التصادم مع هذا الضد فى الوقت الذى لا يُوجَدُ أدنى سبب لهذا الوهم .. الكثير من الْبِيضِ فى جنوب أفريقية مثلا لا يعارضون فى إعطاء السود حقوقهم الأساسية باعتبارهم الأغلبية فى ذلك البلد ، لكن بعض البيض سرعان ما يتجاهل هذه الحقيقة نتيجة إحساسٍ وهمىّ بأن السود غير مهيئين لهذه الحقوق خاصة فى حكم البلاد وتسييرها . ثم ما يلبث هذا الوهم أن

يسيطر على الرجل الأبيض بشكل لا إرادىّ ، يدفعه إلى التصادم مع من يعتقد أنه ضده مع شعور قوى بشرعية هذا التصادم .

فى أحد الفنادق « بدمشق » التقيتُ بشاب لبنانى عرفت أنه قد ترك لبنان مع أنه يحبه ويحن الى العودة اليه . تركه خوفا من التقاتل بين أبناء البلد الواحد ذى القومية الواحدة والتاريخ والمصير الواحد ، وحين استدرجتُه بحديث السائل ، عرفت أن المنطقة التى كان يعيش فيها تضم أغلبية تختلف فى دينها عن دينه ، ومع أن أحداً لم يَمْسَسْهُ أو يحاولْ مَسَّهُ بسوءٍ ، فانه ترك منطقته لأنه يخشى من تصادم محتمل ، وعرفتُ فى ذات الوقت أن أبويه مازالا يعيشان هناك فى سلام ، وأنهما قد فضلا مغادرة الابن باعتبار أنه وحيدهما . وعندما سألت الشاب الهادىء ذا النزعة الانسانية التى تتخطى كل المفاهيم الطائفية عما إذا كان فى الحقيقة يجزم بوجود اعتداءٍ عليه فى الوقت الذى كان هو وأسرته متآلفين مع أصحاب المنطقة طيلة وجودهم على أرض لبنان قال : إنه مازال يتصور إمكان الاعتداء عليه فيكون هو الضحية فى ظل تصادم غير مسؤول . وعندما قلتُ له : لماذا لم يشعر أبواك بهذا التصادم المحتمل فى الوقت الذى هما أقرب إلى هذا الاحساس منك باعتبار أنهما يمثلان بقايا التصادم الطائفىّ ؟ أجاب بأنه قد يكون هو المطلوب ، لأنه شاب ، ثم ما لبث أن تراجع عن وهمه فروى قصةً مُفَادُهَا أن امرأة من سكان الحى الذى كان يسكن فيه قد فقدت كل أولادها فى عملية ثأرية رهيبة ولما جىء بها لتشهد عملية الانتقام لأولادها ، ورأت ما رأت خَرَّت على الأرض مغشيا عليها تصيح وتتوسل إلى الناقمين بأن يحفظوا حياة الأبرياء الذين لم يكن لهم يد فى قتل فلذات كبدها . تصرخ . تولول . تستغيث من عملية التصادم والانتقام متناسية جراحها وقلبها المكلوم ولم يعد إليها روعها إلا بعد أن أطلق الناقمون سراح الأسرى رحمة بها وخوفا عليها من الموت ، وعندما كان ذلك الشاب يروى ذلك المشهد الانسانىَّ الذى دلت وقائعه على أصالة التراحم فى الانسان قلت:أليس فى ذلك دليل على أن الوهم الزائف يدفع بالانسان سواء فى لبنان ـ أو غيره الى خواء يفقد معه التراحم ويحل محله التصادم وأن حقوق الانسان تتأثر بهذا الوهم تأثرا بالغا فتموت الآلاف من الأبرياء وتتساقط الأشلاء وتثخن الجراح وتسقط بالتالى كل النوازع الانسانية فى حمأة تصادم غير مسؤول ، ثم لا يلبث هذا الانسان فى ظل هدأة فكر واع أن يعود إلى ذاته وإلى داخله يستجمع تفكيره وتصوراته وعقله فيحاسب

ذاته تحت وطأة التراحم الانسانى الفطرىّ ثم لا يلبث أن ينكس أداة اندفاعه ليبحث عن مخرج يُحِلُّ التراحم محل التصادم ولكن المشكلة آنذاك تبدو عويصة عندما تكون حقوق الانسان البرىء قد أُهْدِرَتْ ، وأصبح من العسير إعادةُ هذه الحقوق إلى ما كانت عليه .

وإذا قيل بأن الانسان يتصادم مع نفسه نتيجة انزلاق نفسى لا إرادىّ ، ويتصادم مع بعضه لأسباب مختلفة فهل يمكن القول بتصادمه مع الآخرين دون أن يكون مدفوعا بسبب ؟ إن الأمر كما أعتقد يختلف بين تفكير إنسان وآخر ، وفقا لمعايير التربية الحضارية والدينية لهذا وذاك ، فمنه من يرى أن الانسان محكوم بحتمية ارتكابه الخطيئة الأبدية لهذا فهو مخلوق متوحش ذو طبيعة عدوانية لا يردعه عن الظلم والطغيان الا أسباب وعوامل لا دخل لارادته فيها .

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أو هو كما يراه زهير من ناحية أخرى بقوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ومن لا يَظْلِم الناس يُظْلَمِ

وان السيطرة على هذا الانسان الظالم تتم عن طريقين : إما بتخويفه من العذاب الأبدى بعد انتهاء ذاته المادية عله ينزجر من تلقاء ذاته ، أو بالسيطرة عليه عن طريق سلطة المجتمع . لقد أدى الاعتقاد بوجود إنسان الخطيئة إلى نتيجة خاطئة حين أدت إلى التفرقة بين إنسان وآخر فهناك الانسان القويم بفطرته ، وهناك المجرم بفطرته ، كذلك ، ولقد بذل العالم الايطالىُّ « لومبروزو » صاحبُ علم الانتربولوجيا الجنائية فى القرن التاسع عشر جهداً مضنيا لاثبات أن هناك أناساً يولدون وهم مجرمون بطبائعهم ، وأن لهم صفات يتميزون بها عن سائر البشر ، وأوصى بأن يُبْعَدَ هؤلاء عن الناس إما باعدامهم أو بنفيهم نفيا أبدياً .

« سان سيمون » و « موباسان » و « لافونتين » الفرنسيون نظروا الى الانسان ذات النظرة مع فارق آخر ، فهو كائن عدوانيٌّ ينزع الى الشر والشقاء ، ولكنَّ المحرّكَ الغريزىَّ له يدور دائما فى نطاق المنفعة الذاتية ، ويتحرك فى ظلها ، فهو عدوانىّ إذا كانت له منفعة من وراء شىء وهو خُلُقِىٌّ إذا رأى هذه المنفعة فى شىء آخر ، وهكذا .

« وليم جيمس » و « شونس وايت » و « جون ديوى » وهم عمالقة « البراجماتية » نظروا الى الانسان لا من خلال علمه « الانتربولوجيا » بل من خلال أهليته للحق ، والحقُّ

فى نظر هؤلاء يعتبر أمرا نسبيا معياره الزمان والمكان ، والفترة المرحلية المتطورة للانسان ، فقد يكون بهذا المقياس إنسانٌ مَّا فى زمان مّا ، جديراً بالحقوق والمزايا الانسانية ، والعكس بالعكس . لست أرى إن كان أولئك قد قصدوا هذه النتيجة ، ولكن القول « بنسبية الحق » سوف يؤدى الى القول بأن الانسان العربىَّ فى فلسطين ، أو الانسان الأسود فى ـ جنوب أفريقية قد لا يستحق فى هذا الوقت ذات الحقوق التى يستحقها الانسان الْكَنَدِىُّ أو السُّويدىُّ أو النرويجىُّ،وقد يكون الحكم الأجنبى للمستعمرين بفتح الميم ، والذى عرفه التاريخ الحديث ، نتيجة عملية لهذه النظرية ، فما دام المُهِمُّ فى نظرها هو التَّعَامُلَ مع الواقع فيمكن للقوى خلق واقع سيء لهؤلاء المستضعفين ثم النظر اليه على أنه غير مفيد له ، أو للبشرية ، ومن ثَمَّ بناء نتائج على أساس هذا الواقع ، ومن ثم خلق وصاية من الانسان القوى على الانسان الضعيف .

* * *

الإنســان في بيـان حقوقه .

احتفل العالم بيوم حقوق الإنسان الذى يوافق العاشر من شهر ديسمبر من كل عام ، وسوف يحتفل العالم بهذا اليوم كل عام ما بقى فى الحضارة الحديثة رمق من حياة .. هذا الاحتفال قد لا يعنى مجرد شكليات ومراسم تقتضيها طبيعة المناسبة بل هو أحد المعانى الدالة على ايجاد وتعميق فكرة لها دلالات حضارية ناضل الإنسان من اجلها عبر مسار التاريخ . واذا عدنا الى الحقيقة التى صدر فيها هذا البيان ـ عام ١٩٤٨ ـ وهذه الفترة التى نحياها نجد أن ثمة تطورا حضاريا ميز بين فترتين تاريخيتين كان هذا التطور أكثر وضوحا فى المجال الماديّ سواء فى واقع الحياة الانسانية كإطار عام أم فى واقع الانسان كإطار خاص ، وعلى ضوء المقارنة والاستنتاج يجدر القول بأن هناك تطـورا حضاريـا لاحقا ، سوف يشهده الجيل الحاضر أو الأجيال القادمة مما يمكن أن يغير فى التفـكير الانسانيّ من جذوره .

* * * * * *

ويمكن إدراكُ هذا التباين الزمنىّ بإدراك أن مسار تفكير الانسان فى عام ٤٨ ـ سواء انسان السياسة أم الاقتصاد أم القانون أم الانسان العاديُّ ـ يتباين عنه فى هذا الوقت ، ويختلف هذا التبايُن بطبيعة الحال من إنسان إلى آخر وفقا لبيئته أو ظروفه ، فهناك أناس ما يزالون بذلك المسار من التفكير أو بتدرج يتساوى فى بطئه مع عدمه ، ولكن ثمـة آخرون يعتبرون تلكم الفترة « مرحلةً تاريخية » انتهت بعقليتها ، كما انتهت بزمنها سواء بسواء .. في تلك المرحلة التاريخية كان عدد دول المنظمة الدولية قليلا .. كان هناك وصاية

وأوصياء .. قادة ومقودون .. سادة وأرقاء .. كان هناك « تصنيف وترتيب » فَلِلَّوْنِ نظرة وللفقرِ نظرة ، وللغنى أخرى .. كانت هناك سيدةُ بِحَارٍ يقابلها دول محمية تنفذ تعليمات « المندوب السامى » فى تلك الفترة أو قبلها بزمن .. كان هناك رجال يَهَجَّرُون ـ بالتشديد وفتح الجيم ـ من مَوَاطِنِهم ليحفروا أنفاق « الترامواى » أو ليخدموا فى جيش الوصاية ، أو ليؤدوا ضريبة خدمة الْعَلَمِ في جحافل الأوصياء .

ـ لقد أصاب التآكلُ التاريخيُ الحتميُّ تلك المفاهيم أو على الأقل بَعْضَهَا ، فتغيرت النظرة ، ووضع بعضها تحت غربلة أدت إلى تبدل تدريجيّ فى العقلية الإنسانية .. إنسانُ الغابة شعر بالقشعريرة من الْعُرْيِ .. إنسانُ المشروب المتخمر وعى من زيف النشوة .. إنسانُ التعاويذ انتفض كما ينتفض عصفور الصباح حين يستعد للوثبة .. أفريقيُّ الغابة . هنديُّ الأدغال فى البرازيل أو المكسيكِ أشرأب للخلاص من رباط الحيـاة البدائيـة ، وبالتالى فلن يمضى زمن طويل إلا وقد تبلدت كل المفاهيم الخاطئة التى مازال بعض الإنسان يَئِنُّ تحت عسفها . واذا كان ذلك استنتاجا له ما يُسَوِّغُهُ من شواهد وأحاسيس رُؤِيَتْ بالعين أو تُصُوِّرَتْ بالعقل ، فإن هذا لا يعني واقع الإنسانِ اليوم ، أو المستقبلَ العاجلَ ، إذ إن من خطل الرأي القولَ بأن مفاهيم الإنسان الخاطئةَ قد تغيرت تماما . فللتعاويذ ـ مثلا ـ سلطة محسوسة لم يكن الإنسانُ العاديُّ وحده هو أَسِيرَها ، بل قد استَأْسَرَ الإنسانُ غيرُ العاديّ ... رأيناها شرسة حادة حين قام « وزير » فى دولة إفريقية بقتل امرأة بريئة وفاء بعهده ، وبرًّا بقسمِهِ ، وفقا لتعاويذ تاريخية ورثها عن أسلافه .

* * * * * * * * *

ورغم إعلان بيانِ حقوقِ الإنسانِ ، الذي حظر بقوة التفريق بين الانسان من حيث لْونُهُ أو جِنْسُهُ ، نلمس بوضوح أن التصنيف ما زال يُمَارَسُ بعنف .. هناك مثلا « تَشِيلِى » عارضت وجود أحد العسكريين الأمريكانِ السود ضمن بعثة الولايات المتحدة .. حقا إنها مفارقة عجيبة حين يرى الإنسانُ دولةً صغيرة ، سكانها أخلاط من شعوب يبدو عليهم طابع المُلَوَّنِينَ تنكر على شخص اختارته حكومته لكفايته العسكرية ، حَقَّهُ فى تَقَلُّدِ وظيفةٍ عامة عينتهُ حكومته فيها .. لم تر تلك الدولةُ المعترضةُ أيَّ نقيصة فى الرجل . لم يكن شرِّيرًا في

سلوكه ، أو سَيِّئًا في كفايته أو تعليمه .. لم يكن مَعِيباً في تاريخ حياته .. كلُّ عيبه فى نظر المعترضين انه ملون لا يرقى إلى مرتبة الآخرين ، وان كانوا ملونين أمثال المعترضين أنفسهم .. ترى أيَّ ظلم يُلْحِقهُ إنسان بآخر إذا سنحت له فرصة أو تهيأت له سلطة يمارسها خلافا للحضارة الإنسانية ..

ـ نظرة الوصاية ما زالت تفرض أفكارها كوجود يطلبه واقع إنسان لا يَصْلُحُ إلا به .. يؤمن به إنسانٌ في قرارة ذاته كحتمية تاريخية يرى من خلالها أنه القادر على فرض الوصاية أو المُؤَهَّلُ لها من ناحية قانونية ، وقد يكون هذا الوصي ذكيا حين يغرس فى أذهان الآخرين أن واقع الانسان المُوصَي عليه يؤيد ادعاء الوصى عدم أهلية الأول . وقد يكون هذا الغرس عمليا حين يظهر المُوصَى عليه بالمظهر الساذج ، حين يختلف مع نوعه أو حتى مع نفسه .. يفقد تَوازُنَهُ السياسي أو الاجتماعيً .. يتعثر في فهم واقعه ، كما يتعثر في فهم محيطه فيقع ضحية من غير أن يَدْرِي ، وبالتالى يصبح فى أعين الآخرين غير مُؤَهَّلٍ للقيام بدوره فى المستقبل ، كوجود حضاري متميز .. صحيح أن ذلك يحدث كثيراً ، ولكننا نعتقد أن الكثير من الأوصياء ، إن لم يكن كلهم ، هم المُخَطِّطُونَ المنفذون لسلبيات المُوصَى عليه .. والخطأ الوحيد الذي يرتكبه ذلك هو عدم فهمه لتلك الخلفيات المعقدة .. وإذا كان رُوَّادُ هذا الخط السياسي قد تَلاَشَوا تحت شدة المدِّ التاريخيِّ العنيف فان هذا الزمان قد شهد دولتين تمثلان

قمة الاعتقاد بحتمية الوصاية على عدد من الشعوب ، واحدى هاتين الدولتين : « البرتغالُ » وقد تغيرت تلك الأفكار مع رحيل « سالازار » الشهيرِ وخلفائِه المباشرين ، وقد بدا واضحا أن تلك الدولة تدخل الآن مرحلة التَّخَلِي عن عقدة الوصاية ، وقد ظلت أخرى هاتين الدولتين « بريتوريا » تؤمن بالخلفية التاريخية المنحدرة من أفكار القرن الثامن عشر والتاسع عشر .. فالأفريقيُّ وإن كان هو العنصرَ الغالبَ فيها لا يستحق أن يكون هو الحاكمَ لنفسه أو لغيره أو المشـاركَ على الأقـل .. « جوهانسبرج » ترى أن الوصاية هي الفرض الملائمُ أو اللازم انطلاقا من واقع الإنسان الموصى عليه لماذا ؟.. لأنه فى نظر الوَصِي ما زال يعيش في سلبيات تجعله غير قادر على تحمل التزاماته فى ظل حياة مُتَمدِّنَةٍ . واذا كانت تلك نظرةَ الوصاية فإن نظرة « العرقية » تبدو اخطر منها . فهى إن كانت محدودة في تَشِيلي ـ كما قلنا ـ فانها غير محدودة فى جنوب إفريقية .. فى تلك الدولة

درجات للمواطنة ، ليس فى الحقوق السياسية مثلا بل فى أبسط الحقوق الانسانية .. هناك اعتقاد يصل إلى حد الإيمان الأعمى بأن الأفريقيَّ أقلُّ من الرجل الأبيض في السياسة .. في الادارة .. فى الاقتصاد ، بل فى القُدُرات الانسانية .. في الفهم والذكاء ، أو في القُدُرَاتِ الأخري .. هناك تطبيق لمبدأ التفاضل .. هناك أسياد .. وهناك عبيد .. أتباع ومتبوعون ، وهلم جَراً . والأدهى من كل ذلك أن السلطة فى « جوهانسبورج » لا تؤمن حتي بمبدأ المجاملة الدَّوْلِيةِ حتى وان كلفها ذلك الثَّمَنَ غالياً .

* * * * * * * * *

إن هذا البيان الذي أقر بصراحةٍ حَقَّ الإنسان في الوطن .. حَقَّه في الحياة .. وحقَّه في العيش لم يَعْدَمْ من ينكره من الإنسان نفسه سواء فى اهدافه أم فى تطبيقاته .. تشيلى .. نيكاراغوا[(١)] هندوراس ـ دول صغيرة فى امريكا اللاتينية عارضت بكل وضوح .. ان يكون للفلسطِينيِّ حَقُّ الوطن أو حقُّ الجنسية ، اللذان اقرهما هذا البيان .. فنيكاراغوا مثلا تعرضت لزلزال مريع حول عاصمتها الى ركام اهتزت له مشاعر الانسان فى كل مكان . بَعْضُ إنساننا قد لا يعرف عن هذه الدولة كثيراً .. لم تكن هي البارزةَ فى المجتمع الدَّوْليِ .. لم تكن هيَ الصانعةَ لحضارةٍ إنسانية تأثر بها إنسانٌ فى صقعه ، ومع ذلك كان هناك مشاعرُ انسانيةٌ فتأثرت لموت الموتى ، وأشفقت على الْمُشَرَّدِينَ والجرحى ، تواسيهم بمادة أو تعزيهم بكلمة من روح .. بطبيعة الحال كان ذلك تطبيقا لمبدإ التآخي الانساني ، رغم التباين الحضاريّ ، لكن هذه الدولة في كل مناسبة وقفت ضد حق الإنسان الفلسطِينِيّ فى الوطن .. فى الجنسية أو حتى فى الحياة .. دولةٌ اخرى فى شمال أوربة[(٢)] . لم تكن هى دولةَ السويدِ ـ بالتأكيد ـ عَامَلَهَا إنسانُنَا معاملةَ التآخى الإنسانى .. في التعامل التجارِيّ ، فى التبادل الثقافيّ ، فى كل صور الحياة المقبولة ، ومع ذلك وقفت هذه الدولة ـ بكل أسف . ضد الإنسان الْفلسطِينِيّ حين حَرَّكَ ضَميرَ الإنسان لمساعدته .. أليس ذلكَ كُلُّه من ظلم الإنسان للانسان ؟

* * * * * * *

واذا كانت المبادىء التي وردت فى بيان حقوق الإنسان هي حصيلةَ نتاجٍ حضاريّ ! دِينِيّ وفكريّ . عبْرَ مدار التاريخِ مُروراً بعواصف تاريخيةٍ قاسية ، وإذا كانت الدوافع لهذا

---

(١) أيام حكم أسرة ساموزا

(٢) النرويج

البيان نتجت عن شعور دولي بأهمية هذه المبادىء للإنسان الحديث فإنَّ ثمة شعوراً . لست أجزم بوجوده كله بين فئتين من بني الإنسان • الأول يبدو أنه أكثر حساسية ، لمروره بمَرَاحلِ وصايةٍ .. مَراحل عبوديةٍ .. مراحلِ جهالةٍ يذكرها ، وقد تحرر من كثير منها ، بروح الاستياء . بعين الغضب يخافها في حاضره كما كانت تخُيفهُ فى ماضيه . وقد يقع في كثير من السلبيات بسبب إفراطه فى هذه الحساسية . أخافته تقاليدُ وطقوسٌ وأسماءُ تلك المَراحلِ فاندفع بعنفٍ يُغير كل شيء له صلة بها .. إنه بالمعنى الآخرِ يريد أن يجعل من بيان حقوقِ الإنسان أداة تلازم بين النظرية والتطبيق ، يريد أن يجعل من القول عملاً ، ومن المثالية حقيقةً . أما الفئة الثانية ، وإن كانت تؤمن بهذه المبـادىء نظريـةً وتطبيقا ، فإنها لا تماثل الفئة الأولي في حَسَّاسيتها ، وهذا بطبيعة الحال راجع إلى الظروف التاريخية التى مرت بها من حيث حريةُ الإنسانِ بها ، ومَراحلُ حياته ، كما انه راجع إلى واقعها ، فهي القوة الذاتية .. تملك الْعِلْمَ .. تملك معظم كل شيء ، فهي لا تستجدي معونة دَوْلِيَّةً من احد . لا تخاف سلطة أخرى .. تعتبر نفسها قد تعـدت مَرَاحِـل السلبيـات التاريخية ، فاهتمامها إذَنْ ينصبُّ اكثر علي اسلوبِ الحياة فيها ، وضمانِ استمرارِ قدرتها الذاتية . وقد يري البعض ان هذه القوة قد تحققت ولو جزئياً على بعضِ حسابِ الفئة الأولي ، ولا شك فى ان شعور هذه الفئة الأخيرة بهذا دَفَعَهَا إلى التَّكَتُّلِ مع بعضها ، بدافع المصلحة ، وبالتالي سبب حساسية تجاه الفئة الثانية ، وبالمعنى الآخر اوجد ما يمكن تسميته بـ « النزاع الخفيّ » اذا عرف ان الفئة الأخـرى لن تكون هى المتهاونـة في الاحتفاظ بقوتها الذاتية ، او التنازلِ عن امتيازاتها التاريخية والمرحَلِيَّةِ ..

* * * * * *

هذا النزاع لن يكون فى مصلحة الإنسان ذاتِهِ في نقيضيـه ـ كما ذكر ـ واذا كان الصراع في الفتراتِ الماضية قد تركز علي قضايا العنصرية والعبودية والوصاية ونحو ذلك فإن تلك القضايا سوف تزول من جداول اعمال المؤتمرات الدَّوْلِيَّةِ ، فلن يُهَجَّرَ إنسانٌ لحفر الأنفاق الأَرضية .. ولن ينحني انسان لآخر .. اذا مر على قارعة الطريق .. لن يخدم شخصٌ آخر ضمن نطاق الخدمة السابقة ، ولكن ضمن نطاق العمل وامتيازاته .. ان عنف الصراع سوف ينحصر حول حياة الإنسان الاقتصادية .. إنسانُ اليومِ يموت بالآلاف في

القارة الهندية .. يتعرض للجوع والعطش في القارة الأفريقية .. هناك إنسانٌ آخر لم يَجُعْ ولم يَعْطَشْ بعدُ ، ولكنه يخاف من ذلك أيَّما خوفٍ .. بالمعني الآخر .. هناك إنسانٌ يريد العتق من الجوع ، وإنسانٌ يخاف من جوع المستقبل .

* * * * * *

وإذا كان « بيانُ حقوق الإنسان »ـ كما قلنا ـ حصيلة نتاج حضاري شاملٍ تَدَرَّجَ عَبْرَ مَسارِ التاريخ ، فقد حوى الى جانبِ الحقوق السياسة حُقُوقَ الإنسان الاقتصادية ، والاجتماعية . حَقَّهُ في العيش . حَقَّهُ في البقاء .. حَقَّهُ في الحياة الكريمة .. تلكم هي النظرية . لكن ما هي الوسيلةُ ؟ إنها لن تكون ابداً فى نزاع صريح او خفيّ تدفعه روافد تاريخية انتهت بانتهاء الزمن الذى حدثت فيه .. الوسيلة تكمن فى خلاص الإنسان من رواسبه الذاتية .. فليس من حقوق الانسان ان تتشبث فئة بكل شيء من اجلِ دوامِ القوة الذاتية علي حساب اخرى تُحْرَمُ من كل شيء ، او تعتقد فئة اخرى ان حصولها على القوة الذاتية مرهون بزوال قوة الأخرى .

« بيان حقوق الانسان » يهدف الي بناءِ حضارة انسانية متكاملة تتساوى فيها حقوق الانسان مع جنسه فى ظل التآخي ، والتساوي في الواجبات .. فى الحقوق .. فى التضحيات .. يزول فيها الظلم من إنسانٍ لآخَرَ .. يعود فيها اللاجىءُ إلي دياره في فِلَسْطِينَ .. يتساوي فيها الافريقى مع الأبيض في جنوب افريقية ينتشل فيها الهنديُّ والبنغاليُّ من شراسة الفقر وعنف الفاقة .. تموت فيها كل الطحالب بعد ردم المستنقعات ، لتبدأ من جديد رايةُ العدالةِ ترفرف علي كل شبر من أنحاء المعمورة ، حينئذ سيكون الإنسان قد وجد طريقه في ظل البيان التاريخيّ لحقوقه .

* * *

حقوق الانسان في الاسلام .

منذ مدة خلت وبالتحديد فى مدينة « نيو أورليانز » كُبْرى مُدُنِ ولاية « لويزيانا » بالولايات المتحدة الأمريكية كان حديث الناس هناك يدور حول جثمان « توت عنخ آمون » الذى عرض فى تلك المدينة وفي المدن الأمريكية الكبرى . ربما يكون لعرض جثمان الملك الشاب فى مدن الولايات المتحدة الأمريكية أسباب نجهلها ولكن ليس بخاف أن الشعب الأمريكيَّ مغرم إلى حد الوله بالآثار القديمة . وهو يعرف عن حضارة قدماء المصريين الشيء أو بعضه .

وفى كلية القانون بجامعة « تولين » فى مدينة « نيو أورليانز » كان نفر من الطلاب يتحدث عن الملك الشاب وأسرته وحياته وعندما بدا لي واضحا أن الشباب الأمريكيَّ ـ وأولئك النفر نموذج له ـ لا يدرى بوجود رابطة بين الحضارة المصرية وبين التاريخ العربيّ عُدْتُ إلى نموذج من الكتب الدراسية المُعَدّةِ للتلاميذ الصغار فألفيتها تتحدث عن حضارة المصريين ، كحضارة متميزة شأنها شأن اليونانية والرومانية . لقد كان من اليسير القولُ لأولئك المحامين الشبان بأن الحضارة المصرية القديمة تعتبر ـ على الأقل من وجهة نظر الجدل التاريخيّ ـ جُزْءاً من التاريخ العربىّ القديم ، فمصر الأَرْضُ كانت تتصل بشبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين قبل أن تَنْبَجِسَ الأرضُ عن البحر الأحمر ، وتنقسم الى قسمين يفصل بينهما حاجز مائيٌّ ، وما ينطبق على الأرض ينطبق بالتلقاء على الساكنين فيها . لقد كان من بين الطلبة المشاركين في الندوة الصغيرة طالب أمريكيٌّ من ولاية كارولينا الشمالية أعرفه زميلا فى مقاعد الدراسة يهتم بالحضارة الاسلامية ويعرف عنها الكثير ويدافع عنها ـ وهو المسيحيُّ الديانة ـ دفاعَ المستميت فى مدينة فى أقصى الجنوب الأمريكىّ ، ويتعرض فى سبيل ذلك لمشكلات كثيرة . وعندما انصرف المشاركون فى الندوة

الصغيرة قال : إن عَرْضَ توت عنخ آمون وما صاحبه من دعاوة حدث له مغزى لست لدوافعه بمُدْرِكٍ ، ولا للهدف من ورائه بعارف ، وان كُنْت تظن أن فى هذا « دعاوة حضارية » فما ظننتُها كذلك سواء بالنسبة لمصر أو للعرب ككل ، قُلْتُ : وما تريد أن أقول لهؤلاء فى خضم شنشنة يصعب إدراك كنهها ، ومَعْرِفةُ خفاياها أكثر من القول بأن ثمة ارتباطا عضويا بين حضارة مصر القديمة والتاريخ العربيّ القديم . قَالَ : لو كنتم تعرفون حقيقتكم أولا . ـ وحقيقة الشعب الأمريكى ثانيا لتحدثتم بملء فيكم عن حضارة الاسلام تاريخا وعقيدة ومنهاجا ونمطَ حياةٍ ، فبناء الأهرامات ـ والقول هنا له ـ عمل ماهر فى مادته رغم مضى سبعة آلاف سنة عليه ، ولكنه فى معناه عمل صغير جدّاً فقد أنتجته سخرة القويّ للضعيف ، وصنعته سلطة السيد على العبيد ، فهو فى الواقع أثر له دلالة عكسية كشفت لنا مدى ضعف الإنسان في ذلك الزمان ، أمام جبروت الحاكم والسلطان . أما حضارة الإسلام ـ ومِصْرُ جزء منها ـ فإن كان عمرها الزمنيُّ ألفا وأربعمائة عام فعمرها الحقيقىُّ يمتد إلى أكثر من عشرة آلاف سنة خلت ، ويمتد إلى المستقبل امتداد الوجود الإنساني ، وحرىّ بأهل مصر أو الذين نظموا تلك المظاهرة أن يفخروا بحضارة الإسلام قبل أن يتحدثوا ـ مجرد حديث ـ عن الأهرام وتوت عنخ آمون . ثم قال : لقد قرأت عن الديانات والفلسفات القديمة والمُعَاصِرَةِ الشيء الكثير ، وها نحن ندرس حقوق الانسان وفلسفاتها وتطبيقاتها فى هذا العصر وما قرأته لا يساوى فى قيمته واحدة من حقائق الإسلام ومعطياته بالنسبة لهذه الجزئية من حضارة هذا العصر ـ حقوقِ الإنسان ـ .

وعند انتهاء الموسم الدراسى دعانى زميل آخر له نشاط كبير على المستوى الطّالبىّ والجامعىّ يُونانىّ المحتد ، ولكنه أمريكى الجنسية والموطن والإخلاص وفي دارة جميلة في ضاحية من ضواحى « نيو أورليانز » على ضفاف نهر المسيسبى ، قابلت أباه فوجدته قد عاش فى مصر سِنِي حياته الأولى ، وهو الآن كبير فى سِنّه ، كما هو فى عقله وعلمه . لم يكن بِعَجَبٍ أن يتحدث عن اليونان : الموطنِ الأول له ، وعن سقراط وأفلاطون وأثينة وسبارطة . فاليونانى مَثَلُه مَثَلُ العربىّ لاينسى حضارة آبائه الأقدمين ، وليس بعجب أن يحدثك عن وطنه امريكا وقوتها وعظمتها فى نفسه ، وعن الطاقة وأزمتها والنفط ودَوْرِهِ في حل هذه الأزمة ، ولكن العجب أن يحدثك ـ وهو المسيحىُّ في ديانته ـ بأنه لم ير فى مصر ما يخلب اللب ويبهر البصر إلا المآذن والمآثر الإسلامية ومظهر المرأة المسلمة المتحجبة فى ذلك الزمان ، ثم حديثه حديث العارف عن فلسفة الإسلام بالنسبة لحقوق الانسان ككل ،

وحقوق المرأة كجزء ، وعندما كانت زَوْجَتُه ترى أن في تعدد الزوجات ما ينتقص من حقوق المرأة كان يرد عليها بجواب العالم والفيلسوف ، ويجادلها بالحجة والبرهان .

عَجَباً ما هو سر عظمة الإسلام واعجابِ غير اهله به فى عصر عَقَدِيّ شرس ؟ أهى ردة فعل للتعقيد المادى المعاصر ؟ أم هو اكتشاف أنَّ الإسلامَ بالنسبة لحقوق الإنسان مثلا قد سبق غيره من العقائد فى تكريم الإنسان واحترامه ؟ أم هي بداية لدراسة حقيقة الإسلام ومعطياته الحضارية ؟ إنها على أيّ حال دلالة على أن معطيات الإسلام الحضارية ستكون فى المستقبل القادم وللملايين من البشر نَمَطاً للحياة القادمة كما كانت نمطا للحياة الغابرة .

لقد نظر الإسلامُ إلى الانسان على أنه خليفةُ الله فى الأرض .. وأكرم مخلوق فيها ، فهو القائم فى الأرض يسخرها لمنفعته ويَعْمُرُها لاستمرار وجوده جيلاً بعد جيل . ليس هو الفاسدَ فى الأرض ولا السافك للدماء فيها ، بل هو الأمين بطبعه المتعاطف مع جنسه المتراحم مع غيره من سائر الكائنات الأخرى : « وإذ قال ربُّك للملائكةِ : إنّي جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا : أتجعلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويسفكُ الدماء ونحن نُسَبِحُ بحمدك ونُقَدِسُ لك ؟ قال : إني اعلم ما لا تعلمون » .[1]

وهذا الإنسان بالمعيار الآخر أكرم المخلوقات وأبرّها فهو أهل للأمانة وأهل للمسؤولية ، وخُصَّ بالطيبات المادية ومُيِّزَ بالفضائل العقلية والروحية « ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي دَم وحَمَلْنَاهُمْ فى البر والبحرِ ورزقناهم من الطَّيِبَات وفَضَّلْنَاهُمْ على كثيرٍ مِمِّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا » [2]

والإنسان بهذا المعيارِ قد خوطب بأنه عالم بما أُودِعَ فيه من عقل ومُفَكِّر بما تميز به من قُوىً وسامع ومُبْصِرٌ بما أوتي من حواس ، وهذه المزايا في حقيقتها ليست مُجَرَّدَ اختصاصٍ ، بل هى عوامل تساعده على أداء الالتزام المفترض فيه تُجَاهَ مَنْ خَلَقَهُ وتُجَاهَ ذاته وتُجَاهَ غيره .

التزامُهُ تُجَاهَ خالقه محكومٌ بما أُخْبِرَ به ورُبِيّ عليه فهو المُبَلّغ « بتشديد اللام وفتحها » قبل أن يُفْتَرَضَ فيه الالتزام ، وهو المأمور قبل أن يُطلب منه الأداء وهو المَنْهِيُّ قبل أن يُطْلَبَ منه الامتناعُ ، والتزامهُ تُجَاهَ الخالق ليس مُجَرَّدَ رَدِ فعل لفعل ، أو عطاء مقابل أخذ أو

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠

جزاء مقابل احسان ، بل هو انضباط يعودُ نفعه فى النهاية إلى الانسان ذاته ، فالتزامه بحقوق والديْهِ يُعْتَبَرُ التزاما امام الخالق .. هذا الالتزامُ بالنسبة للوالدين سرٌّ قد لا يعرفه تلقاء . قد يستثقل حمله فيطرحه ، ويعجز عن إدراك حكمته فيجحده .

لقد نظر الاسلام الى انه عندما كلف الانسان بهذا الألتزام وبلغه به ـ اصبح عليه دينا يفترض فيه ان يوفيه ، والوفاء به فيه التراحم المفترض لاستمرار الإنسان فى استقراره ، وفيه التربية لغيره من جنسه ، فهو إن كان لهذا الحق مؤديا فقد يكون له محتاجا ، يؤديه متى كان الْقَادِرَ عليه ويُؤَدّى له متى كان السائِلَ له ، وهكذا فإن في التزامه بأداء هذا الحق منفعةً راجحة له ، قد لا يدركها ، بل قد تأباها نفسه ، أو تنكرها وتجحدها ، ومتى اجبر على أداء هذا الالتزام ـ في حال نكرانه ـ ادرك فى النهاية أنه إن كان الْمُعْطِيَ لهذا الحق مرة فقد يكون الطالبَ له من الغير مرة أو مرات فى عملية متشابهة ، فالانضباط بالأداء منه مدعاة الى الانضباط بالأداء إليه ، وهكذا فى كل شيىء .

التزام الانسان تُجَاهَ ذاته واحدة من حقائق الإسلام فى نظرته إلى الإنسان وحقوق نفسه عليه ، ولكن هذه النظرة لا تعني تقمصه لأنانيةِ الذات وسيطرتها الضيقة ، بل تعنى حماية الذات من العوامل المادية المكونة لها أو العوامل الخارجية التى تريد الاعتداء عليها .. كينونةُ الانسان المادية بنيانُ الله فى الأرض ، وهدمُ هذا البنيان جريمة كبرى ، والذات الواحدة ، تتساوى فى الاساءة اليها الاساءةُ الى كلِ الذوات من البشر .. « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كتبنا عَلَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعا ومَنْ أحيَاهَا فَكَأَنَّمَا أحْيَا النّاس جَمِيعا [1] لم ينظر الانسان الى ذات الإنسان على أنها ملك لهذا الانسان يتصرف بها أنّى ومتى شاء ، بل انها مِلْكٌ للخالق لا يجوز لأحدٍ التصرف فيها خلاف ما تقتضيه طبيعة وجودها وحكمة كينونتها .. « ولاَ تُلْقُوا بأَيْدِيكمْ إلى التّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إن الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِين [2] ـ ومن قتل نفسه فهو فى النار ولقد نبه الرسول الكريم إلى احترام الذات فى خطبته الشهيرة يوم النحر حين قال : « إنّ دماءكُمْ وأموالَكُمْ وأعراضكمْ عليكم حرامٌ « كحرمة يومِكُمْ هذا في شهرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا » . إنّ التزام الانسان بحفظ نفسه ليس التزاما خُلُقِياً فرديّاً وحسب ، بل هو التزام

(١) سورة المائدة الآية ٣٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥

« قسرى متى اقتضته الحاجة ينفذه المسؤول عن الانسان في حال صِغَرِه كوالديه أو وليّه أو وصيّه أو القيّم عليه وتنفذه سلطة الجماعة التي يعيش فيها ، متى كان هذا الإنسانُ غَيْرَ قادرٍ عليه .

لقد أوجب الإسلام على الإنسان مراعاة حقّ نفسه عليه وهى خصيصة عظيمة ما ظننتُ أن المذاهب الفلسفية الأخرى الغابرة أو المعاصرة اهتمت بها مما نتج عنه لإنسانها آثار شاذة وغريبة فأحرق هذا الانسان جسمه فى عملية احتجاج باهتة هو الضحية فيها وحده دون أن يكون لفعله أثر على ما يؤمن به ويدعو إليه ، وأَهْمَلَ هذا الإنسان طاقته فجلس يستجدي رزقه من غيره ، وأهدر بذلك حق نفسه عليه في أن يعيش في ظل الكرامة ومرتع الفضيلة وفي ظل معتقد آخر حَطَّمَ هذا الإنسان النوازع الطبيعية فى نفسه رفض الزواج بحجة العقيدة وتبتل فى صومعة العزلة والانفراد عن الناس بحجة ابتغاء الفضيلة واستبد النقص بإنسان آخر فى ظل فلسفة أخرى ، فطفق يبحث عن ذات غيره بعد أن ألغى ذاته ، فصار هو السامعَ لكل ما يقال له ، وان كان شراً . والمُطيعَ لكل ما يؤمر به وإن كان ضراً ، والممتنعَ عن كل ما ينهى عنه وإن كان له خيراً ، فهو أداة غير واعية وطاقة سائبة . لقد رفض الإسلامُ كل تلك المنطلقاتِ تُجَاهَ حقّ النفس على الإنسان . قالها الرسول العظيم فى تعليم واضح للذين اسْتَبَقُوا إلى باب داره وهم يفخرون بقسر نفوسهم على ما لا تطيقُ فهم يُصَلّون ولا يفترون ، ويصومون ولا يفطرون ، وهم للنساء لا يتزوجون ، فقال قولته الشهيرة : إنه يُصليّ ويفتر ، ويصوم ويفطر ، ويتزوج النساء ، فمن رغب عن هذه السنة فليس من الإسلام في شيىء . لقد عَظَّمَ الإسلامُ نفس الإنسان ورفع من قيمتها ، وأوجب الاّ يكلفها الإنسان فوق طاقتها ، حتى وإن كان يبتغى من وراء عملِهِ أعلى القربات « لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »[1] « فأتقُوا الله مَا استَطَعْتُمْ »[2]

إن التزام الإنسان تُجَاهَ ذاته لا يعنى في مفهوم الإسلام توجيهها توجيهاً أنانياً تَطْلُبُ به كل شيىء ولا تعترف للغير بأي شيىء ، بل هى العلاقة المتوازية بين التزام الإنسان تُجَاهَ ذاتهِ وتُجَاهَ غيرِه فى إطارٍ متعادلٍ ، أساسُه علاقة انسانية متبادلة هذه العلاقة ليست مجرد

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦
(٢) سورة التغابن الآية ١٦

نصائحَ أو وصايا يلتزم بها من يريد ، ويَتْرُكهَا من لا يريد ، بل هي أوامرُ ونَوَاه .

قلت : إن علاقة الإنسان تجُاهَ الإنسان الآخر علاقة موصوفة تتأثـر فى جزئياتهـا بالانتهاء إلى الأصل الأعلى المشترك لهذا الانسان ، وتخضع لمتطلبات التعايش الانسانى الذى يقتضى ضرورة توازن العلائق الانسانية ، وقد نظر الإسلام الى هذا التوازن من خلال الحكمة من وجود الإنسان وما يتطلبه هذا الوجود من عمرانِ الأرض إلى أجلٍ مسمى « هُوَ أَنْشَأَكُمْ من الأرضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها »[1] فاستعمار الأرض يقتضى وجود انسـان يعيش فى إطار متوازن نسبيا يعتمد على التعاون بين الأدوات الفاعلة ، والتعاونُ المقصودُ هنا لا يتم إلا بإعطاء هذه الأدوات فرصةَ التوازنِ الذى يتخذ من توافر كافة الظروف معياراً له ، ولكن هذا التوازن لا يلقى أبدا خصائص معينة إما فطرية أو مكتسبة تتوافر لدى إنسانٍ مّا ، دون آخر خاصة إذا كان اكتسابها مبنيا على فُرَصٍ متساوية ... استعمارُ الأرض يقتضى ايضا خلق طاقة اقتصادية فاعلة لا بد منها لاستمرار الوجود الانسانيّ ، وقوام هذه الطاقة يتطلب وجود طاقة اجتماعية فاعلة يتوقف وجودها أولا واستمرارها ثانيا على مدى انتظامها المادي وانضباطها المسلكي ، وهذا يحتاج بِدَوْرِهِ الى توازن في العلاقة وإلى انضباط في الأداء لا بد لها فى أيّ حال من وجود أدوات حارسة وعادلة ترعى هذا التوازن وتتولى تنظيمه ودون ذلك تنفرد إحدى الْقُوَى ببعضها بعيداً عن التوازن مما يكون مدعاة إلى انفراط هذه الْقُوى ـ كُلّها ، وبالتالى خراب التركيب الاجتماعي كله .

لقد نظر الإسلامُ إلى أن الناس مُخَاطَبُونَ كلّهم على اساس أنهم من أصل واحد .. « يا أيّهَا النّاسُ أتّقُوا رَبّكُمْ الّذي خَلَقَكُمْ من نفس واحِدَة وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبثّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاء »[2] وهم مخاطبون دينيا بالتنساوى وعدم التفاضل بينهم ، إلا في تَفَاوُتِهِمْ فيما يبذلونه من جهد في أداء الالتزام المكلفين به .. « يا أيهـا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأنْثَى وجَعَلنَاكُمْ شعُوباً وقَبَائِلَ لِتعارفوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقَاكُمْ »[3] .

والكرامة بالتقوى مقياس للعمل المبنيّ على الجهد بعد أن تيسرت لهذا الإنسـان وسائـل الإدراك والعمـل « بَـلِ الإنْسَـانُ عَلَى نَفْسِـهِ بَصِـيرة »[4] « وهَدَيْنَـاهُ

---

(١) سورة هود الآية ٦١
(٢) سورة النساء الآية ١
(٣) سورة الحُجُرَات الآية ١٣
(٤) سورة القيامة الآية ١٤

النَّجْدَيْنِ »[1]   وفى التطبيق يُدْرَكُ ـ بضم الياء ـ مقياسُ حقوقِ الإنسان فى الإسلام من خلال هذا الأنسان بـ « الكرامة » والتفضيل على كثير من المخلوقات وهذا التفضيل يعني إلغاء التمايز بين إنسان آخر حينما يكون هذا التمايز مبنيا ـ مثلا ـ على صفات جسمانية بحتة ، يريد إنسان أن يَعْلُوَ بها على آخر ، ويفْضُلَهُ ، بينما هما يخضعان لصيغة تفضيل واحدة « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدمَ وآدمُ من تراب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربيّ ، ولا لأحمر على أبيض فَضْلٌ إلا بالتقوى » .. هذا المبدأ لم يكن مبنيًّا على نظرية تخييرية يأخذ بها من يريد ، ويتركها من لا يريد ، بل هو التزام مُلْزِمٌ لأتباع الإسلام ، أينما كانوا وحيثما كانوا تنفيذه بدقة الرعيل الأول من جيل الإسلام في علاقاتهم مع أنفسهم وفي علاقاتهم مع غيرهم . فقد أرسل عمرو بن العاص وفداً إلى المقوقس بزعامة عُبَادةَ بنِ الصَّامِتِ الصحابيّ الشهير ، وعندما رآه المقوقس أسْوَدَ اللون وذا بسطة فى الجسم ، طلب من الوفد المرافق له ، إعطاء حق الرئاسة لغيره .. فرد عليه الوفد المفاوضُ بالإجماع بأن عُبَادَةَ لم يكن ليرأس الوفد لو لم تكن لديه الموهبة من سداد الرأى ورجاحة العقل وغزارة المعرفة فهو برئاسة الوفد أحق . وما كان لهم أن يختاروا احداً غيره ، ثم أخبروا المقوقس بأن الإسلام الذى جاءوا من أجله لا يميز بين الإنسان على أساس لونه ، بل على أساس فضائله .. مبدأُ احترام الإنسان فى الإسلام واسع فى مفهومه ، لا سيا عندما يكون الأمر متعلقا بأساسيات الانسان وعلاقاته فى الكيان العام فقد شكا يهوديٌّ عَليًّا بن أبى طالب وعند ما مثل الانسانُ أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نادى عليًّا بأبى الحسن ، كما كان يناديه عادة ، فلمِ يقع ذلك موقع الاستحسان من عليّ ، فقال عمر : (أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ؟) فقال عَلِيٌّ (كَرِهْتُ أن أنادى بكنيتى ويُنَادى خصمى باسمه)[2] هذه الحادثة أيا كانت صحة روايتها تُعْتَبَرُ فريدة من نوعها فى تاريخ حقوق الإنسان فعمر ـ وهو الحارس للعدالة ـ رأى فى وجه عَلي انفعالا وغضبا فظن أنه قد كره مخاصمة اليهودي فعاتبه على ذلك وفي نفس الوقت كان عَلِيٌّ يخشى أن يكون فى مناداته بكنيته

---

(١) سورة البلد الآية ١٠

(٢) محمد حمد خضر « الإنسان وحقوق الإنسان » ص ١٩ ـ ٢٠

تفضيلٌ له على خصمه ، فكانا كلاهما في النتيجة يبحثان عن المساواة فى العدالة أمام القضاء .

ومن منطلق التكريم للإنسان تقوم حقوق الإنسان في الإسلام على مبدأ العدالـة المطلقة ، انطلاقا من أن ظلم الإنسان للإنسان أساس لفساد العلاقة بينهما ، ثم فسادٌ للعلاقة فى التركيب الاجتماعىّ كله ، لا تستقيم معه دولة ، ولا تنبت أو تزدهر معه حضارة ، وردع الظلم في ظل هذه الحقوق ، يقوم على ركائز خَمْس .. الأولى : التزام الإنسان ، نحو مثيله الإنسان بعدم الاعتداء عليه أو ظلمه أو امتهان كرامته ، امتثالا لقاعدة النهـى الدينية : « وقَاتِلُوا في سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين » [1] « ولا تَحْسِبَـنَّ الله غَافِـلاً عَمَّا يَعْمَـلُ الظَّـالِمُونَ ، إنَّمَـا يُؤخِرُهُـمْ لِيَوْمٍ تشـخص فيه الأبْصَارُ » [2] « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُه » .. [3] « اتقوا الظلم فإن الظُّلْمَ ظلمات يَومْ القيامة » [4] الركيزة الثانية : مساعدة الانسان عندما يرتكب الظلم بنفسه أو عندما يتعرض له من غيره ، لقد رُوِيَ أن رسول الله ﷺ قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما .. فقالوا : يا رسول الله : هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ فوق يديه » [5] .. الركيزة الثالثة أن تكون النظرة إلى ذات الإنسان الخاصة مثل النظرة إلى ذات أخيه ، واعتباره تحقيق ذلك أحد مقاييس الإيمان « لا يؤمن أحدُكُمْ حتى يحب لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه » .. [6] . الركيزة الرابعة : أن الانسان نحو أخيه الإنسان فى ردعه عن الظلم أو ردع الظلم عنه بمسؤولية خلقية . في الإخلال بها إخلال بمسؤولية الانسان العامة ناهيك عن خضوع مخالفها لعقاب الهي « لُعِنَ الَّـذِينَ كَفَرُوا من بَنِي إسرائِيلَ عَلىَ لِسَان دَاوُدَ وعِيسى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بما عَصَوا وكانوا

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠
(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٢
(٣) صحيح البخاريّ ج ٣ ص ١٦٨
(٤) اللؤلؤ والمَرْجَان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٣ ص ٢٥١
(٥) صحيح البخاريّ المرجع السابق
(٦) اللؤلؤ والمَرْجان ج ١ ص ١١

يعتدون .. كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] [2] . الركيزة الخامسة : : قوةُ السلطة التى تنظم علاقة الانسان بالآخر ، من خلال نصرة الضعيف ورَدْعِ الْقَوِيّ بعقوبة مادية منظمة يشعر معها المنحرف في سلوكه بوطأة التزامه تُجَاهَ غيره .

لقد قَعّدَ ـ بتشديد العين ـ ابو بكر الصّدّيق هذا المبدأ في التزام السلطة بإعادة التوازن بين إنسان وآخر ، عندما يكون احدهما ظالما والآخر مظلوما ، فقال فى خطبة البيعة : « اعلموا أيها الناس .. أنَّ أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخُذَ له بحقه ، وأنَّ أضْعَفَكُمْ عندى القويُّ حتى آخذ منه الحق » .. [3] .. وفى تطبيق آخر كان عمرو بن العاص هو الوالى على مصر وقد ضرب ابْنُه أحَدَ أبنائها ضَرْبَةً فَزِعَ منها ، فقال : لأشْتَكِيَنّكَ إلى رئيس أبيك ـ يقصد عمر بن الخطاب ـ فوفد إلى حج ذلك العام وجاء إلى عمر وقال : يا أمير المؤمنين ! هذا مقام العائذ بك ، قال : وما لك ؟ قال : أجْرىَ عمرو بن العاص الخيل بمصر ، فأقبلتْ فَرَسٌ لي فلما تراآها الناس قام محمد بن عمرو فقال : فَرَسي وَرَبِ الكعبة ، فلما دنا منى عرفته ، فقلت فرسى ورب الكعبة ، فقام يضربنى بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكْرَمِينَ ، قال : فو الله ما زاد عمر على أن قال : اجلس ، ثم كتب الى عمرو : « اذا جاءكَ كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد » قال فدعا عَمْرو ابْنَهُ فقال : أحْدَثْتَ حَدَثاً أو جَنَيْتَ جناية ؟ قال : لا .. قال : فما بالُ عُمَرَ يكتب فيك ؟ قال : فَقَدِمَا على عمر ، قال أنس بن مالك : فوا الله إنَّا لعند عُمَرَ « بِمِنى » إذ نحن بِعَمْرو وقد أقبل فى إزَار ورداء ٍ فجعل عُمَرُ يَلْتَفِتُ هل يرى ابنه فإذا هو خَلْفَ أبيه فَقَالَ : أين الِمْصرِيُّ ؟ فقال : ها أناذا : قال : دونك الدّرّة اضرِبِ ابْنَ الأكْرَمِينَ .. « قالها ثلاثا » فضربه حتى أثْخَنَهُ قال : « أجلها على صَلْعَةِ عَمْرو فو الله ما ضربك إلا بفضل سلطانه فقال : يا أمير المؤمنين ! لقد ضَرَبْتُ من ضربنى فقال : أما والله لو ضَرَبْتَهُ ما حُلْنا بينك وبينه حتى تكون انت الذى تَدَعَهُ .. .. يا عمرو ! متى استَعَبَدْتُمْ الناس وقد وَلَدَتْهُمْ امهاتهم أحرارا ، ثم التفت إلى الشاكى فقال : انصرفْ رَاشِدًا فإنْ رَابَكَ رَيْبٌ فاكتب لي » [4]

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٨

(٢) سورة المائدة الآية ٧٩

(٣) الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطيّ « تاريخ الخلفاء » ص ٨٠

(٤) جمال الدين أبو الفرج بن الجَوْزِيّ « تاريخ عمر بن الخطاب » ص ٩٩ ـ ١٠٠

ويمكن استنتاجُ أنَّهُ ربما كان للشكوى سببان رئيسيان : أولهما : أن الدين الجديد الذى اعتنقه عَرَبُ مصر أرادوه مُحَقِّقاً لكرامة كانوا يعانون من فقدها فى عهود الظلم والأستبداد فلم يريدوا استبدال ظلم بظلم ، حتى وان كان هذا الظلم اللاحق فردياً وصغيرا ، ثانيهما : أن المضرور قد أدرك العدالة المطلقة في الإسلام « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كُونُوا قَوَّامين بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله ولَوْ على أنفسكم أوْ الْوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ » .. الخ .[1] وأن عمر بن الخطاب انطلاقا من هذا سوف يُعَاقِبُ الظَالِمَ أيًا كانت منزلته فى الدولة ، وذلك هو ما تحقق فى تلك القضية ، فكان شاهدا للتاريخ على مدى قيمةِ الإنسان في تطبيقات الرعيل الصالح فى عالم الإسلام .

إنَّ تصنيف الإنسان في عالم اليوم إلى قَوِيّ يأكلُ ، وضعيفٍ يُؤْكَلُ ـ واحِدٌ من أقسى ما تواجهه البشرية . فى العصر الحديث أجبر ويجبر الانسان المظلوم إلى الانفعال مع نفسه ، ليتصادم مع غيره ، فخرج في كثير من أرضه ، يريد أن يَقْتُلَ قَاتِلَهُ ، وَينتقمَ من ظالمه ، ويُصارعَ مُحْتَقِرِه ، نابذَهُ ، فأصبح فى ظل هذا التصادم هو القاتل أولا ثم المقتولَ ثانيا ، في عملية ثأرٍ يصعب معه تحديد العقوبة أو المقاصة أو حتى تَشَابُهِ الانتقام ، فكانت نتائج هذا التصنيف فى غير صالح الْمُسْتَضْعَفِينَ وقد عَرَفت بيئة ما قبل الإسلام نوعا من تلك الحياة ارادها قوم أن تكون فى بيئة الإسلام ، ففي المحيط الذى طُبِقَتْ فيه حقوقُ الإنسان في الإسلام ، في بداية عهده عَرَف ذلك المحيط طبقة من الأقوياء يريدون الانضواء تحت مَظَلَّةِ الإسلام مع الاحتفاظ بمزاياهم فى النفوذ والسيادة ، فعلقوا دخولهم في الاسلام على شَرْطٍ به يَطْرُدُون الفقراء والمستضعفين ، من عند النبى محمد ﷺ وعندما وجدوا أن شرطهم هذا غير مقبول تساهلوا فيه فأرادوا أن يكون الفقراء والضعفاء على الأقل ـ فى المؤخرة . لقد ظنوا أن مُنَاخَ البداية للدين الجديد وضَعْفَ معتنقيه يجعل شرطهم مقبولا ، فيكسبون من الدخول فى الدين الجديد أكثر مما يكسبه منهم ، فنزل القرآن الكريم صريحا فى ذلك مُبَيِّناً أن حقوق الانسان فى الاسلام والمساواة فيه مَبْدَأٌ لا يقبل الجدل .. « ولاَ تَطْرد الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ والعشى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَىء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ من شَيء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالمينَ »[2]

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢

مبدأ الاهتام بالطبقات المستضعفة لم يكن في الإسلام مُتَأثِرا بمُعاناةٍ شخصيةٍ عاناها الداعى ، كما زعم ذلك من لا يعرف حقيقة الاسلام ، ولا ظروف تروعه ، ولم يكن مرد الاهتام بالمستضعفين استعداء طبقة على أخرى ، بقصد الانتقام والتشفى منها ، بل كان هذا الاهتامُ ينطلق من قاعدة خَلْقِ « التوازن النسبي » الذي يحفظ للتركيب الاجتماعيّ السلامة من التخلخل ، مما يمكن معه استعداء فئةٍ على أخرى ، والانتقام منها كما حدث ويحدث عندما يختل التوازن لصالح الأقوياء ، على حساب الضعفاء .

وفى خِضَمِ الانفعال المرير الذى يشهده الانسان فى كل مكان ، وفي معمعة التصادمِ والصراع الْعَقَدِيّ تزداد صيحات الاهتام بحقوق الانسان ، وفق معايير وأساليبَ مختلفة ، تهدف إلى خلق الاستقرار لهذا الانسان ، ومع هذا يبدو واضحا أن الإنسان في عصره الحديث ر بما لا يهتم بمبادىء نظرية إضافيةٍ ، بقدر ما يحتاج إلى تنفيذِ ما يملك من نظريات إقليمية ودَوْلِيّةٍ تتحدث عن حقوقه .

إن اعلان مبدأ حقوق الإنسان العالميّ وما تبعه من مبادىء ومواثيقَ دوليةٍ اخرى قد بسط نظرياتٍ كثيرة لحماية حقوق الإنسان السياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ ، إلى جانب ما لدى الإنسان فى شتى بقاعه من تعاليم دينية وقوانين ونظريات مختلفة ، كلها تتحدث عن حقوقه ومع ذلك يقتل بعضُه بعضاً فى ملابسات يصعب على الإنسان ادراكُ أسبابها الحقيقية .. إن اعلان مبادىءَ وسَنَّ قوانينَ نظريةٍ تَحْكُمُ سلوكا مُعينا ، مسألة هينة فى ذاتها ، ولكن صعوبتها تتجسد فى مدى الالتزام بها من منطلق « خلقى » بَحْتٍ ترفده رغبة ذاتية محضة أكثر مما ترفده منطلقاتُ نظرية تقليدية . ويَحْكِى الواقعُ المحسوسُ والْمُشاهَـدُ من خلال الصراع الأممى أن إعلان مبدإ حقوق الإنسان قد أخفق من الناحية العملية فى خَلْقِ حُقُوقٍ إنسانيةٍ موضوعيةٍ تَرُدُّ للإنسان المظلوم ظُلاَمَتَهُ ، وتعيد للمستضعف قوتـه وكرامته ، وتمنع الإنسان من الصراع وارتكاب العنف ضد بعضه ، وبَدَيهىٌّ أن يعزى هذا الإخفاق الى عدم التزام الدُّوَلِ التي قَبِلَتْ بهذا الإعـلان وعـدم احترامهـا للأسبـاب والظروف التي دعت إلى إعلانه بعد حرب مريرة عانىَ فيها الإنسان مرارة الصراع ، وترى وِجْهَةُ نظرٍ أخرى أن إعلان مبدإ حقوق الإنسان قد أخفق ، لأنه قد دخل حلبة الصراع الإيدُلُوجيِّ الدَّوليِّ وما صاحبه ويصاحبـه من اعتبـارات سياسيـة واقتصاديـة واستراتيجية أدَّتْ فى النتيجة إلى أن يكون الإنسان المسؤولُ عن حقوق الإنسان بغض النظر عن حجمه ومدى مسؤولياته المحلية والدَّوليَّة ساكتاً عما يَرَى ، ومسكوتا عنه فيما

يَفْعَلُ ، فأصبحت بذلك حقوق الإنسان تحت أصناف ثلاثة : صنف أريد لحقوقه أن تكون فوق كل اعتبار ، وصنف لا يُعْتَدُّ بحقوقه وسط مجاملات سياسية أو منافع اقتصادية ، وصنف يُرَادُ لحقوقه أن تُهْدَرَ ، لأن فى ذلك استمراراً لتفضيل إنسان على آخر .. من أجل ذلك هناك من يرى فى أنحاء العالم أن الإنسان المعاصر ، يحتاج إلى صياغة جديدة لحقوقه .

ويستطيع الباحث المُحَايِدُ القولَ بأن حقوق الإنسان فى الإسلام تتميز عن غيرها من النظريات الأخرى ، في أن الأُولى تقوم على مبدأ روحى متجرد يلتزم الإنسان بأدائه من خلال الارتباط بالقاعدة الدينية المتكاملة القائمة على انتظار الأجر والثواب الالهى . ووجوبِ الابتعاد عن مظان الإثم والفساد . وفى ظل التصادم الأمميّ رُبَّما وجد المسلمون أنهم مُلْزَمُونَ بطرح نظريةٍ أممية لحقوق إنسانيةٍ جديدة تُبْنىَ على تعاليم الإسلام ومناهِجه المتسامحة : تنكر التفاضل العنصريَّ وتعارض التمايز الطَّبَقِيَ ، تنادى للإنسان بحقوق كاملة تستند على قاعدة خلقية تعترف بأنه لا مناص من مواجهة الصراع والتصادم الأُمَمِيَّ إلا بعد الاعتراف للإنسان بحقوقه اعترافاً عمليّاً ، يحفظ توازن العلاقة في شتى أنواعها المشروعة بين إنسان وآخر .. إنَّ طرح نظرية كهذه سهلٌ فى حَدِّ ذاته لاسيا وإنَّ المُنَاخَ الدَّوليِّ مُيَسَّرٌ لقبول دعوة جديدة تقوم على مبدأ خُلُقيٍ ، بعد أن تبين أن الإنسان في مختلف أمكنتهيُوَاجِهُ معاناةً مختلفة قد تدفعه في زمن قادم إلى إعلان العنف كوسيلة خلقية تنتفي معها مقاييسُ التعايش الإنسانيِ الحالي ، رغمتصدعه ،ولكن ومن منطق التجربة التاريخية التى شهدها الإنسانُ المعاصرُ لا يستطيع أصحاب أيّ نظرية مهما يَكُنْ سمو مقوماتها الذاتية ، إثباتَ صَلاَحِها وفعاليتها كوسيلة لحل أممي ما لم يلتزم أصحابها أنفسهم أولا بالمبادىء التى يَدْعُونَ إليها ... إن حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقاتِ الرعيل الأول ومن حذا حذوه لهذه الحقوق ، تُعْتَبَرُ نظريةً متكاملةً في جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وينبني على ذلك إمكان إنشاء جهاز متكامل في منظمة « المؤتمر الاسلامى » و« المنظمات الاسلامية الأخرى » ليقوم بمتابعة تطبيق حقوق الإنسان في الإسلام فى الدول الإسلامية أولا ، ومراقبةِ تطبيقِ مبادىء حقوقِ الإنسان في العَالَمِ ثانياً . ومن ثَمَّ تَمَّ طرح حُلولٍ متكاملةٍ تستمد مناهجها من حقوق الإنسان في الإسلام ، وشرح مدى أهمية رقابةِ الإنسان الخلقية ، على نفسه وعلى غيره مما سوف يتيح للآخرين

من المستضعفين والمظلومين في الأرض دراسة هذه الحقوق من مُنْطَلَقٍ أُمَمِيٍ .

ولكنَّ السؤالَ الأهمَّ هو : مدى ما يقدمه المسلمون أنْفُسُهُمْ من إثباتٍ عَمَلِيٍ بأنَّ سُلوكَهُمُ أنْفُسِهِمْ يتفق مع النظرية التي يَدْعُونَ إليها في مناهجها الخلقية والإنسانية ... ذلك فقط هو اللبنة الأساسية لحقوق إنسانية عالمية جديدة تنقذ الإنسان من العنف والتصادم المريع .

***



الفصل الثالث

الإنسان: الحضارة والعقل

- كلام عن الحضارة.
- التعامل والتفاعل في الحضارة العربية.
- العقل المعلل.
- عالمية العقل.
- العقل المصادر.



كلام عن الحضــارة .

قد يكون من المغالاة القول بأن الحضارة الانسانية قديمَها وحدِيثَها ليست من نتاج جنس معين ينفرد بها عن الأجناس الأخري ، لكنه على أى حال قول يقرب من الحقيقة إذا عرفنا أنها حصيلة تطور تاريخيّ بشريّ تضافرت في الاسهام فيه عقول مختلفة تفاوتت نِسَبُ مجهوداتها في بنائه وتركيبه ، ولعل «ويل ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة» أمعن في المغالاة حين قال ما مفاده : «لا يوجد حجر يرمز إلي حضارة تاريخية الا وتجد الاغريق أصحابه» . صحيح أن للاغريق حضارة عظيمة لايُنْكَرُ أثرُها في الحضارة الانسانية ، لكننا لانستطيع إغفال حضاراتِ أمم أخرى لاتقل عن إبداع الاغريق ، فالرومان والهنود أمم أسهمت نظريا وعمليا في الحضارة الانسانية بقدر ما تهيأ لها من مشاركة .. والمصريون والبابليون والفينيقيون وهي هجرات عربية قديمة قَدَّمُوا للانسانية نبعا دافقا وعطاء حضارياً لا يقل عما قدمه الاغريقُ ، بل يمكن القول بأن الاغريق أخذوا من المصريين ... ألم يكن «أرسطو» تلميذا لـ «فيثاغورث» ؟ . إنها حضارات تفاعلت مع بعضها عبر الزمن السحيق ، وكَوَّنَتْ روافد متساندة في تلاحم عضْوِيّ فريد .. فالاغريق تفاعلوا مع حضارة المصريينَ والرومانُ تفاعلوا مع حضارة الاغريق ، والعرب والمسلمون هم الآخرون تفاعلوا معها وترجموها بعد أن هذبوها وشرحوا غوامضها وما التبس منها ، ثم أضافوا ما أمكنهم إضافته ، حسب بيئتهم وواقعهم السياسي والفكريّ .. وما دامت الحضارات القديمة التى سادت ثم بادت ليست الا نتاجا تاريخيا متمازجا ومتسلسلا ، فان هذا التمازج فى الحضارة الانسانية الحديثة قائم وشامخ .. أليس كثير من النظريات الحديثة فى العلوم التقنية له قواعد وامتداد بالنظريات التى تبلورت فى عهد الامبراطوريات الحضارية القديمة ؟ أليست

هجرة العقول العلمية من البلدان المتناثرة عبر العالم إلى البلدان الصناعية الكبرى ، دليلا على وجود المساهمة والمشاركة فى التحضر الانساني الحديث ؟

إن العقول الدقيقة والأيدي الماهرة التي ساهمت في التحضير لكشف أسرار العلم ليست أمريكية بحتة بل هي ليست من السلالات التى هاجرت من أسبانية وسويسرة إلي الولايات المتحدة الأمريكية فخسب ، بل إن فيها عقولا هاجرت من مختلف الأجناس والبيئات ، منها ماهو أسْيَوي ، ومنها ما هو عَرَبي وأوروبيٌّ وأمريكيٌّ ، كما أن الذين يسهمون اليوم فى صناعة شرق أوروبة واليابان ليسوا من ـ السلالات الصفر فحسب ، بل فيهم خليط من أجناس متناثرة من الغرب والشمال والجنوب .. إن ذلك التمازجَ الحضاري لايبدو في عالم الصناعة وحده بل هو ماثل في عالم الفلسفة والسياسة والاقتصاد ، ففلسفة الهندي «غاندي» عن استقلال الهند وحكمه ، تُشَابِهُ ولو نظريا أفكارَ الأمريكيّ توماس جيفرسون عن حكم الشعب الأمريكي .. وأفكار الباكستاني «محمد إقبال» من حيث فلسفتُه عن الشخصية المتميزة للشعب الباكستانى قد تأثرت بالأفكار المتأججة فى أوروبة . وما التجاوب السريع الذي يحدث اليوم فى كل بلد من المعمورة للتحضر الانسانى الا رد فعل وتَعَانُقٌ مع التطور التقني فى عالم تسخير الطاقة لراحة الانسان وخميرة من خمائر التقبل والتفاعل مع الحضارة الحديثة في صورها المختلفة . إنسَانُ اليوم يعيش في مجتمع صناعي تشحنه القوة ، ويسوده الانفعال والاضطراب ، لم يكيفه الانسان بقدر ما تكيف فيه بالأسلوب المفروض عليه .. الروحانياتُ التى كان لها الشموخ والتقديس تعصرها الماديات وتطوقها الاجتهادات والشكوك .. العلاقات الاسرِيةُ تنفصم عراها واحدةً تلو الأخرى حتى كادت تفقد وجودها تماما .. العلاقـات الانسانيـةُ هي الأخري مزحومة بالتعامل المادي ، ومابقى منها لايتم الا نتيجة لتداخلات المنافع وتبادل المصالح .. هذا المجتمعُ الصناعي الذي استعر أُوَارُهُ صَبَغ انسانه بمادية مرهقة صورت له الحياة على أنها «تعامل مادي» ميزانه الأخذ والعطاء بالتساوي أو بالاحري ترجيح كفة الأخذ على العطاء بعيداً عن تعاطف الانسانية وآلامها ، حتي فقد الانسانُ كثيرا من إحساسه وشعوره بل وواجباته فكاد يكون شبيهاً بالآلة تدور على نفسها في شكل رتيب ومتكرر .. ولعمري لقد أثر ذلك الْخَطُّ في الحياة علي الانسان في سلوكه .. في انفعالاته ، في اتجاهاته السياسية والاجتماعية . غالط نفسه وخدعها حين تَعَصَّبَ للرفق بالحيوان ، وأقام له

الجمعيات ، ونَسِيَ أن الانسانَ نفسَهُ في الكون الارضي أحوجُ مايكون إلى تلك الرعاية قبل أن يكون الحيوان جديراً بها .. المدفع الذى تقدمه مصانع السلاح .. والكلمة التي تنشرها مكاتب النشر ، والصورةُ التي تخرجها مؤسسات الأعـلامِ ، هي وسائـل إلي غايات ، ومقدماتُ لنتائج لاتخدم الغرض الانساني بقدر خدمتها للممول الذي لايتأثر اذا كان هذا السلاح يفتك بالأبرياء ، ولا يتحرج من الكلمة أو الصورة حين تُضَلِلُ وتَمْسَخُ الحقيقة مادام ذلك يُؤَدِي إلي مبتغاه . فاذا كان السلاح أُنْفِقَ بسخاء في معسكرات الانفصال في بيافرا ـ مثلا ـ فلا يُهِمُّ أن يظل الناس هناك عراة ويموتون جياعا .. ولا يُهِمُ أن تتجزأ وقتها نيجيرية . وإذا كان للتبشير هو الآخر سُوق فيها ، فلا يهم أن يتجـرد الكهنوتـي من روحانيته ، ليغرق في بحر من التحريض على الانفصال والقتال ، ويُهرِبَ السلاح إلي المنشقين تحت لباس الدين . وإذا كان لمولي وسائل الاعلام مصالحُ مرتقبة ومتوقعة من بيافرا فان أوجوكو سيظل بطلا من أبطال التحرير وقُلْ ذلك بالنسبة لقضايا كثيرة في العالم المعاصر ، في طليعتها قضية العرب الفلسطينيين في وطنهم الغالي ... فئات كثيرة في المجتمع الحديث تكاد تكون هى الأغلبية الساحقة لا تفهم من الحياة الا أرقاما حسابية مادية شرسة كان من نتائجها ان أوجدت فى المجتمع الحديث قلقاً نفسيا مكبوتا يقذف حممه المتلظيةَ ، ويؤججُ لهبه العارم بين حين وآخر ، يصور الحياة للجيل الحاضر سوداء قاتِمَةً ، ويشيحُ بوجهه عن الرؤية الحقيقية لها ، فَتَولدَ عن ذلك سوء في التركيب النفساني ، ومرض في الاحساس الداخلي ، حتى أصبحت الحياةُ في عدة مجتمعات جحيا لايطاق ، انفلاتا في السلوك .. تقلبا في الأمزجة .. اختلالا في الانضباط الاجتماعي .. تمرغا في الوحل الخلقي .. عمليات اغتيال وانتحار ، وعصابات سطو وانتشال .. إنّ كُلّ ذلك يُعَبِّرُ عن قَلَقٍ نَفسِي مكبوت ، هو بالتالى يعبر عن واقع مريض بهذه السلبية اللاَّمُبَالَية .. البيتلزُ ، والهيبيون ، وفِرقُ الاتوستودوب وتجارُ الماريغوانا وأصنافُها .. كل تلك أدوات فتاكة ومعاول هادمة في جدار الحضارة الحديثة لتجعل منها جدارا مهترئاً يَؤُولُ إلي الانهيار ، ولو في المستقبل البعيد . ترى أتستعمل الانسانيةُ عِلاَجَ تلك الأمراضِ لتحفظ حضارتَها من السقوط والضياع ؟

* * *

التعامل والتفاعل في الحضارة العربيّة.

ينتج التفاعل من عملية تعامل تتم بين عناصر روحية كما هي في بني الإنسان ، أو بين عناصر مادية كما هي في كائنات مادية . ويهمنا التعامل الأول . ويَطْرَحُ سؤالُ نفسَه هل التعامل وسيلة أم غاية ؟. ويكون الجواب الصحيح أنه مزيج من هذا وذاك فهو وسيلة إلى غاية فنحن نتعامل مثلا بالكلم الطيب لنصل إلى تفاعل يؤدي إلى خلق الألفة بين الخلايا الصغيرة ، كالأسرة مثلا أو بين الجيران أو الأسرة الكبيرة كما هو الحال في المجتمع أو حتى أكبر منه كالأمة . ولست أعني بالضرورة وعلى وجه الدقة أنَّ كل تعامل يؤدي إلى تفاعل ، خشية الوصول إلى متاهات . وما أعنيه هو التعامل المتنوع بين الخلية أو الخلايا الاجتماعية ومدى انعكاسات هذا التعامل على التفاعل بين تلك الخلايا . وليس المهم هو التفاعُلَ في حد ذاته بل معنى هذا التفاعل ومدى تأثيره على تلك الخلايا سلبا وإيجابا . هذا التفاعل الناتج من التعامل ، في اطاره العام ، وفي سعة من التصور يمكن إدراكه بكل وضوح كمؤثر في تلك الخلايا حضاريا وثقافيا وحتى سياسيا واقتصاديا كمرحلة أبعد . ويمكن إدراكُ ذلك حين يُعرف أن التعامل السليم بين خلايا اجتماعية يؤدِّي إلى تفاعل سليم بالضرورة كنتيجة حتمية لماذا ؟ لأن هذا التفاعل يُوجِدُ مُنَاخاً إيجابيا ينشأ فيه مناخ حضاريٌ مزدهر ، وحين نتصور أن تلك الخلايا تتعامل مثلا في جو من الهدوء ندرك أنها سوف تتفاعل بالضرورة في جو مماثل . وهذا له أثره المحسوس على المُناخ السياسي واستقراره . وقس على ذلك ما تشاء من تصور . والأغرب أن هذا التعامل الذى يُؤدِّي إلى تفاعُلٍ قد يُكَوِّنُ ـ بتشديد الواو وكسرها ـ آثاراً أكثر مما نتصور ، فقد يُنْهِي حضارة مَّا ، ويبني أخرى ، مثالُ ذلك ما حصل للأسبرطيين فلم يعرف التاريخ عنهم إلا أنهم كانوا محاربين .. ليس لهم طِبٌ ولا أدب متميز ، لم يُخَلِّدُوا شيئا ، كان تعاملا بالحرب فقط ..

اهتموا بالمتاريس ، وبصنع آلات الحرب . هذا التعامل أدى إلى التفاعل مع الحرب ، ولأن هدفهم كان محدوداً بالترقب والتهيؤ للحرب فقد اندثروا حين اندثرت دواعي الحرب أو زالت أسبابها ..

أما الأثينيون فقد تعاملوا مع كل شيء يصلح لأن يكون أساسا لدولة لها كيان مستمر .. تعاملوا في الحرب ، وتعاملوا في الآداب والفن والطب ثم تفاعلوا مع تلك الفنون . تركوا للحرب حصته وللفن حصته ، فأدَّى ذلك إلى آثارهم كحضارة متميزة ذَكَّرَت الناسَ بالإغريق عبر مَفَاوِزَ طويلةٍ من التاريخ .

بالنسبة للتعامل في معيار حضارتنا :

فقد كانت القبائل العربية المتناثرة عبر الصحراء تتعامل ـ بقدر ما كانت تتفاعل كنتيجة لذلك التعامل ، فالاعتزاز بالقبلية الضيقة ـ مثلا أدَّى إلى تفاعل بالتنافر من الانضمام تحت قيادة واحدة ، فَفُقِدَتِ الدولةُ وساد مبدأُ (الغلبةِ للقوة) . والاهتمام من فئة بالثراء والاستعلاء أدَّى إلى تفاعل بالتمزق الاجتماعيِّ بين الخلايا الصغيرة أو بين القبيلة الواحدة فأصبح الضعفاء من الناس كالساقط من المتاع وصار الفقر سُبَّةً والفقير محقورا ، وَقَتَلَ البعضُ أولادَهُ خشية الإملاق ، وأيُّ تصور يرى إنسان فيه نفسه يقتل أولاداً أبرياء خشية أن يكون فقيرا محتقرا ، فكأنه يُضَحِّي بالبعض ليبقى البعض الآخر حتى لو كانت التضحية بجزء من كيانه . ولست أعتقد أنَّ الجاهليَّ الذى كان يقتل أولاده كان غير إنسان عاديٍّ ، هو إنسان كأيِّ إنسانٍ آخر في أيِّ زمان ، يحب أولاده وإنْ قَتَلَهُمْ ، لكن التعامل في المجتمع الذي عاش فيه خَلَقَ تفاعلا لديه أصبح في النتيجة أعلى من مرتبة العاطفة ، وما كان ذلك الإنسانُ ـ بذلك الشعور المنعدم ـ إلا ضحية لتعامل الآخرين معه ... وفي هدأةٍ من ذلك الواقع المرير أنهت حضارةُ الاسلام ذلك التصنيفَ البذيءَ لتجعلَ معيارَ التعامل بين الخلايا الاجتماعيةِ هو التَّساوِيَ العادلَ ، فمقتت التحزب المبنيَّ على استعباد فرد من أفراد الخلايا الأخرى أو خلع فرد من أفرادها ، وجُعِلَتِ الجماعيةُ المطلقة هى الأساسَ لتكوين أمة أو دولة .. جُعِلَتْ للضعفاء مرتبةٌ كمرتبة الأغنياء .. حَرَّمَتْ قتلَ الأولاد .. وقُلْ باختصار : إنها (ألغت فوارق التعامل لِتَخْلُقَ تَوازُنَ التفاعل) ولسنا في سعة من القول لنناقش تاريخيًّا كيف كان التعامل والتفاعل في حضارتنا عَبْرَ مَدارِج التاريخ لاسيا منذ تغيرت ثقافة العربيّ برسالةِ النبيِّ العربيِّ

محمد ﷺ واذا كانت حضارة هذه الأمة قد تعرضت لعوامل ضعف .. لعوامل انحطاط .. لتقلبات مزاجية ونفسية فينبغي إدراك نقطة هامة هي أن تلك الحضارة عَرَفَتْ معنى التعامل أفضل بكثير مما عرفته حضاراتُ أخرى .. عَرَفَتِ الإنسانَ أفضلَ المخلوقات (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِ والبَحْرِ ورزقناهم من الطيبات وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىَ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) عرفت الرحمة حين يكون مجالها ودواعيها .. عرفت مساواة الإنسان للانسان في كثير من أمور .. حاربت مبدأ الترتيب والأسبقية إلاَّ حين تكون الأسبقيةُ في ميدان العمل الروحيِّ ، عرفت مبدأ التلاحم الْعُضْوِيِّ بين الإنسان وجنسه .. لا ظلم منه ولا استعلاء عليه بل أكثر من هذا أنَّ الروحية الحقيقية لا توجد في الانسان ما لم يعكس آمال أخيه وآلامه على نفسه ، كما لو كان يعكس تلك الآلام والآمال على ذاته هو « لا يؤمِنُ أحدُكم حتى يحُبَّ لأخيه ما يحُبُّ لنفسِه » وإذا كان من التعبد أنواع يصعب فلسفتها من حيث انعكاساتُهَا على التفاعل بين الخلايا الاجتماعية أيْ إنها نوع يشمل معنى الامتثالِ واختبار السلوك فانَّ الكثير من أشكال التعبد تنطوي على معنى التعامل الْمُؤَدِّي إلى تفاعل له آثاره المحسوسةُ على سلوك الإنسان ، فهي الناهية عن الفحشاء والمنكر .. وهذان المحظوران يشملان كل المعاني الرديئة من السلوك سواء أكان هذا السلوك مُقْتَصِرَ الضررِ على الفاعل ذاته أم متعدياً إلى غيره . والتعامل الرِّبَويُّ منكر ، فوائده تقتصر على واحد أو قلة ، وأضراره تتعدى إلى واحد وكثرة ، فهو يهدف إلى مصلحة ، ولكنه يحقق أضرارا وأخطارا .. ودرء المفاسد أولى من جلب المنافع . والسرقة منكر لأنها تَعَدٍّ على حرمة الآخرين المالية ، والاختلاسُ هو الآخر منكرٌ ، لأنه تَعَدٍّ على خزينة الأمة ، وهو أيضا ضرر مُتَعَدٍّ ، كما أنه ضرر على الفاعل من حيث إفسادُ تفاعُلِهِ الْمُفْتَرضِ فيه الأمانةُ والاستقامةُ ، فاذا تجرد مُقِيمُ هذه الشعيرة الروحية من تلك المعاني ، فقد تجرد من معناها الحقيقيِّ ، وقد يقول مُجَادِلٌ : قد يكون أحدهم مُؤَدِّياً لتلك الشعيرة وإِنْ عَمِلَ ما عمل مما ذُكِرَ فلأنه قد حقق معنى الامتثال وهو جانب مهم يمكن أن يكون الشفيعَ فيما حدث من نقائص . ويرد على ذلك بأن الامتثال أو التعبد يعني البعد عن السلوك الرديء ، فالممتثل يُعتبر مُتكامِلَ السلوك أو على الأقل أقرب إلى التكامل من غيره ، ولا يتحقق الامتثال في معناه الحقيقيِّ إلا حين يكون ثمة تعاملٌ مشروع يهدف إلى تفاعل مشروع . وعَرَفَت هذه الحضارةُ الزكاةَ كضريبة تَحُدُّ من رأس المال خوفا من طغيانه ، وفي أدائها معنىَ الامتثال للأمر ،

ولكنها ذاتُ معنى فلسفيٍّ واسعٍ .. معنى التلاحم بين الخلايا الاجتماعية المتفاوتة الدخول .. فيها معنىً للقضاء على تذمر فقير من غنى ، وبالتالى إخماد روح العداء الباطن ، وهى ليست بالنسبة للآخذ أو القابل تَعْنِي الاستجداءَ والاستخذاءَ ولا تعني للباذل الاستعلاءَ والارتقاءَ .. والذين فهموها على أنها كذلك ما عرفوها على حقيقتها ودقة فلسفتها . والذين عرفوها مَنّاً وأذىً على قابليها مَثَلُهم كَمَثَلِ صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلدا .. هى ـ الزكاة ـ بالمعنى الصحيح : تَلاَحُمٌ .. ميزان يهدف إلى إجراء ما يشبه المساواة أو التلطيف بين كفتين رَجَحَتْ إحداهما على الأخرى تلك المعانى ما حسبناها إلا زاخرة في تراث خالد ورثناه وقبلناه . عرفته هذه الأمة منذ تحول التاريخ في حقبة ما من حِقَبِهَا ولكن هل أصحابنا المتأخرون أو الوارثون يقتفون هذه المعالم قولا وعملا ؟!

* * *

قُلْتُ : هناك طائفة قبلت عقيدة وتطبيقا ، وهناك طوائف قبلت شكلا وتخلت مضمونا . هي تحسب القبول في ظاهره هو الكافيَ والبديلَ عن الالتزام أداءً وتنفيذاً . وما ظنناهم إلا أولئك الذين فقدوا المعانيَ الحقيقيةَ للعمل الذي يمارسون .. وإذا كنا صُرَحَاءَ للدرجة التي ننقد فيها ذاتنا فسوف نقول إن هناك انفصالا تاما بين النظرية والتطبيق ، فالنظرية كما قلنا من قبل : سليمة إطاراً ومضموناً .. عرفنا ذلك من خلال اختبارها حين مرت بها درجاتٌ من التَّجَارِبِ . ولكنَّ التطبيقَ بقِيَ في مرحلة أدنى من التفاعل الحقيقيّ مع النظرية .. وما حسبنا هذا التَّدَنِّي إلا من عوامل ضعف يصعب علينا تحديدُها ، ولكن ثمة عامل هام بدا ويبدو فى (ضعف التربية واهتزازها ، فالغش في التعامل مثلا يعتبر محظورا في نظريتنا الروحية ، هي ترفضه بكل أشكاله كما ترفض كل النتائج التى يُؤَدّي اليها ، فهو المحرم وسيلةً ، وهو المحرم غايةً ، ولعل سائلا يتساءل : مادام الأمر كذلك فلماذا انفصل التطبيق عن النظرية حتى إن هناك من اختلط عليه الأمر ممن لا يعرف النظرية ، فصار لا يدري لم نغش في تعاملنا . ما هي العوامل ؟. لقد قلت سلفاً إنها التربية فالتاجر الذي يهيىء أولاده لممارسة التجارة من بعده لم يهيئهم للالتزام بالنظرية فى حظر الغش ، وقد يكون هو ذاته ممارسا له فكيف نرتقب منه خَلْقَ تربيةٍ فى

أولاده وأتباعه ؟ .. ومثل آخرُ هو الاعتراف بالخطأ وما يترتب عليه من نقد للذات .. هو في نظريتنا الروحية واجبٌ إن لم يكن مفروضا حين عرف مبدأ التوبة من عمل رَدِيءٍ .. وما التوبة إلا اعتراف بالخطأ يتبعه نقد للذات ، شعور بالخطأ وتصميم على عدم العودة اليه .. ولكن هل عرفنا هذا عملا وممارسة : لقد صعب ويصعب علينا أن ننقد ذَوَاتِنَا .. أن نُخَطِّىءَ أنفسنا . أنْ نتنازل عن إصرارنا وكأننا لا نخطىء وكأننا لا نضل ، مع أننا كذلك ، فيبقى خطؤنا دون توبة ، وغوايتنا دون ندم . وما عرفنا أنَّا حين نخطىء نُحَرِّفُ سيرنا عن مدار الحياة ، وناهيك بذلك من داءٍ عضال ، وأننا حين نعترف بذلك الخطأ نعود إلى السير على ذلك المدار في توازن وانتظام ، وأَعْظِمْ بذلك من نهج « كلكم خطاءون ، وخير الخطائين التوابون » . لكننا ما عرفنا ذلك إلا نزرا لا يتفق أبدا مع جسامة الفعل ، وما حسبنا تغيير ذلك فى أنفسنا إلا حين نُغَيِّرُ مجرى التربية .. ومرة أخرى أقول : نحن نملك النظرية لكننا لم نخلق مجرى التطبيق . ولن نخلقه إلا عندما نخلق تربية تُقَوِّضُ كل الروافد التربوية التي ورثناها خطأ .

***

العَقل المُعَلِّل .

لكل فِعْلٍ علة أوجدته أو ساعدت في وجوده .. والفعل إزاء العقلِ الإنسانيّ لا يخلو من نتيجتين : فعلِ العقلِ نفسه وقبول الفعل من غيره . فالأول : هو النشاطُ والتصرف يقوم به العقلُ كشيء من وظيفته . وقيمة هذا الفعل تَخْضَعُ لقدرته وخصائصه الطبعيةِ ، قُوَّةً وضَعْفاً .. والثاني قَبولُ الفعلِ من الغير ، واقصد به ذاك الذي له ارتباطٌ .. ولعل من نافلة القول ذكر وجهة نظرٍ منطقية مُفَادُهَا أن العقل المُدْرِكَ لا يقبل فِعْلَ الغير إلا إذا عَلَّلَهُ بادراكِ أسبابهِ ووزنِ تأثيره ونَتَائِجِهِ .. ويَسْأَلُ سائل : وإذا لم يكن هذا فما النتيجة ؟ قُلْتُ : إنَّ العقل القابِلَ يصبح مُقَلّداً ، وإذا صار كذلك آل إلى الجمود ، ومن ثَمَ فقدانُ حضارةِ أُمَّةٍ يكثر فيها ذلك الصنف من البشر . وأحترزُ من هذا التعميم بإيضـاح أنَّ التعليل لا يعني تلك السفسطة المنغمسة في متاهات الجدل النظريّ الأخَّاذ في أسلوبه التافه ، في موضوعه ، ولا هو ذلك الافتراضُ الشاطحُ الشاط في وَحْلِ التَّخيُّلِ المُوهِم ، بل هو معرفة الفعل قَبْلَ الأَخْذِ به وقبلَ قبوله .. وإذا قلت إن حضارة المجتمع الذي يأخذ دون نظرٍ ، مُهَدَّدَةٌ بالزوال ، فإن ذلك هو منطق التاريخ الذي قرر ويقرر أنه ليس أخطرَ على أُمَّةٍ من التصديق بكل شيء قبل معرفة عِلَلِهِ ووزْنِ غاياتِهِ ، ولا أضرّ عليها من القبول في محل الرفض أو الـرفض في محـل القبـول .. ذلك بالمعنـى الـدقيق يعـرف بـ« الاتكالية الفكرية » تستلذُّ لها العقولُ الخَامِلَةُ وتستطيبها النفوسُ العاجزَةُ ، ثم لا تلبث أن تفقد عطاءها ودِينَامِيكِيتها ، لتأخـذ دون تمييز ، وتَشرَّب دون تصـفيةٍ،والخاتمـة هي الانتكاس الحضاريّ بكل صُوَرِهِ ومعانيه ..

إن التعليل هو الغربلة ، هو رفض الاتـكالية الفـكرية . ومنطـق « العهـدة على الراوي » وبالتالى رفضُ الفعل إذا لم يكن سليما .. أبو بكر الصّدّيقُ يأتيه نَبَأٌيفيد بأن

جماعات من المسلمين قد تَلَكَّأَتْ أو امتنعت عن دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ .. عِلَّةُ الفعل مَوْتُ الرسول فما هى الوسيلة لابقاء أركان الاسلام ببقاء أحدها وهو الزكاة .. وفي برهة التفكير في الأمر ينطلق صوتٌ خافتٌ من أعضائه في المشورة يستحسن معالجة الأمر بحكمة الأَنَاةِ .. ولكِنَّ الصديقَ يرفضُ أن تُقْمَعَ الرِّدَّةُ إلا بالقوة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لَقَاتَلتهم على منعه » .. لماذا ؟ ان أبا بكر عَلَّلَ الفعل ، وعَرَفَ آثاره وتأثيراته وهو بالتأكيد لم يَخَفْ من انحسار في موارد الزكاة ، بل خاف زعزعة كَامِل نظام الاسلام .. وتَخَلْخُلَ الكيان .. وانتشار الفوضى في الأصقاع والديار . فمعالجة « الفعل » السالبِ إذن تَكْمُنُ في استعمال « فِعْلِ القُوةِ » الموجب يقوم بذلك الحاكم القوى للقضاء على الخارجين على ارادة الاسلام ، وكانت النتيجة عودة الطمأنينة تحت حماية القوة أَوْجَدَتْهَا معرفة العلة .. مرة أخرى أقول : إن العقل المُعَلِلَ لا يوجد إلا فى الانسان العالم .. الانسان المفكر الانسان المتبصر .. ولم تكن شريعة السماء تخاطب إلا ذلك النوع من الانسان.. تُقَدِره وتضرب به المثل .. (إن في ذلك لآياتٍ لِقَوم يَعْلَمُونَ).. (إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ) .. (إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوم يَعْقِلُونَ) .. وَصَدَقَ الله العظيمُ ..

* * *

علمية العقل .

عندما يدور الكلام حول علمية العقل يكون الحديث عن العاطفة مستساغا أو واردا .. انها من حيثُ قيمة التَّصرَفِ على طرفي نقيض فالعاطفة انفعال توجده رِقَّةٌ نفسية ، قد تكون واحدة من خصائص الانسان ـ ليس كل الانسان ـ لازمته منذ وجوده أو من نتائج تربيته وبيئته . وعِلْميةُ العقل تَصرُّف إدرَاكيّ ناتج عن إرادة واعية هي الأخرى قد تكون مُكْتَسَبَةً بفعل البيئة والتربية ، وأميل الى انها مزيج من هذا وذاك ، لذا فالعاطفة في مجال المقارنة انفعال قد تفوق أضراره محاسنه . قد يخالف بعضهم ويدعى أن العاطفة هي المعنى الجميل في الانسان ، وحين يفقد هذا المعنى يصبح تعامله حتى مع نفسه جافا وصعبا ، وإن العقل ما كان يحكم كل تصرف بل ان اعتباره كذلك سلبية ضارة . وأقول : ذلك صحيح لكنها تفقد وجودها عندما يكون التعامل بالعقل عاما في الانسان وان كان ذلك لا يعني التجرد من الرقة الانسانية التي تقتضيها علاقات الانسان مع نفسه ومع غيره خلال مواقف معينة لها مجالاتها وأحكامها . إنَّ العقل العلمي يوجب التفكير ويحتم بانه ضرورة طبيعية مفترضة في الانسان ليعي تصرفه أولا ثم يلتزم به ثانيا ، ويحميه من التبديل والتغيير ثالثا . وما اخالُ التصديق بالشيء ـ أيِ شيء ـ قبل التفكير فيه الا مدعاة لتأخر العقل الانساني والقضاء على معطياته الإيجابية .. من أجل ذلك تقدمت أمم وتأخرت أخرى ومرد ذلك الى علمية العقل .. ففي الوقت الذي كان الأروبي يعتقد بوثيقة « الغفران » التي يصدرها بابا روما كان متأخراً وتافهاً .. وفي الوقت الذي كان يوصي بثروته عندما يموت لتأسيس المدرسة والمعهد والجامعة ويفكر في التصرف الذي يعمله وصل الى أوج المعرفة . فعلمية العقل اوجدت فرقا كبيرا في نتائج مثل هذا التصرف ، وتصرف حارس المطار الهندوسي يوم ترك بقرة هائمة تدخل المطار كادت تسبب

كارثة جوية رهيبة اعتقادا منه بقدسيتها .. الفرق ليس هو في امتياز جنس على آخر .. إنه العقل العالم .. العقل الباحث عن الصورة الحقيقية وحسب .. ومازلت اذكر موقفا فيه حزن وطرافة فقد كنت أثناء نكبة حزيران أسكن في حي في « دمشق » يسمى « جبل الأكراد » وفي الوقت الذى كانت مدينة القنيطرة تتعرض للسقوط في قبضة الأعداء كُنَّا قلة من الناس جمعتنا المصادفة ـ نجلس خلف حائط متداع نتوجس خوفا ونتوجل حزنا وما لبثت أن أصغي الى شاب يدعونى للقيام معه بزيارة الى ضريح يرتفع على قمة جبل صغير قريبٍ منا . لماذا ؟ نتوسل به الى النصر . وامتد الحديث وقُلْتُ له : ياهذا إن التوسل به نوع من الشعوذة الداخلية على العقيدة فماذا يجدينا فى شيء من لا يملك لنفسه شيئا فكيف يملك لنا النصر ؟ وبالمصادفة مَرَّ بِنَا أثناء الحديث شابٌ يعتمر فوق رأسه عمامة بيضاء ويتجلبب بجلباب فضفاض متمنطقا برشاش حربى خفيف : إلى أين ؟ إلى بلدة القنيطرة . وروى لنا من روى ان هذا الشاب ودع اهله وداع الراغب بالموت،بكوا ففرح . وحزنوا فبشرهم بماذا ؟ بالاستشهاد .. مدافعا عن وطن الاسلام . فقلت لصاحب الضريح : أرأيت هذا الذى مر أمامنا ؟ قال : نعم وماذا فيه ؟ قلت له بمثله تحيا أمم وبمثلك تموت أمم . فانزعج مني وذهب الى الضريح وهو ينعتنى بالجهل والتعصب .. الفرق بين الرجلين هو في التفكير . ذاك يتمنطق بالسلاح ليموت من أجل أن تعيش الأجيال العربية المسلمة حرة في وطنها . دفعه الايمان . إيمان العقل . لبس لباس العقيدة يعززها . يحببها الى قلوب الناس . يؤدي ضرَيبَتَهَا .. وهذا عاطفى جاهل عشـشت في نفسه تفاهة الشعوذة فلجأ إلى الأموات يطلب منهم النصر ، وأنى لهم ذلك .. من هنا أَجَوِّزُ لنفسى القول بأن جيل العرب الحاضر فى حاجة للتنشئة العلمية التي تعتمد على العقل تَعْرِفُ به .. تُحَلِّلُ به .. تُحَكِّمه .. تستعين به على تفسير اللفظة المقولة ، وتستهدي به في الأخذ أو عدم الأخذ بالكلمة المكتوبة وفى اول السلم تفسير الايمان وقيمته . علة الاعتقاد . معنى الالتزام به . هذا الجيل في حاجة الى معرفة واقعه . ومعرفة أضداده واعدائه . فهم طرائقهم .. تفكيرهم .. هذا الجيل يحتاج الى معرفة نقد الذات . تحليل الغوامض وشرح المبهمات ولا حجة حين يدعى بأن ذاك « انفتاح وتوسع » تربو مساوئه على محاسنه ، وأرد بأن أسس العلم وضوابط التربية تنقض ذلك الادعاء . وأَخْلُصُ من كل ذلك الى تقرير نتيجة أَعْتَقِدُ سَلاَمَتَهَا ، وهى أن الانخذال في أي معركة مردُّه الى تفاهة العاطفة في التربية والى ديماغوجية الكلمة اللاَّمَسْؤَولة والى فقدانِ عِلْمِيَّةِ العقل .

العقـــل المُصـــادَر .

ما ابتلى قوم بأشدّ من كونهم مُقَلّدين لغيرهم وتابعين لِضدّهم دون فهم لما هم يَفْعَلون وادراك لما هم يتصرفون وما ابتليت أمة من الأمم ببلاء أشد من مصادرة العقل فيها بينا الرب العظيم يخاطب من خلقه أولئك الذين يتفكرون ويعقلون « إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفكَّرون » « إن في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون » .. ان العقل الانسانى ينبوع ثر يتدفق بلا قيود ويعطى بلا حدود وحين يُعَطّلُ الانسان هذا العقلَ فسوف ينحبس جريانه ويغيض ماؤه وينضب معينه .

قُلْتُ : ومصادرة العقل تتم اما عن طريق الغير حين يفرض سلطانه على التابعين ليكون هذا الغير هو المدبر لكل شيء ويرفض لغيره أن يكون له شيء ، وفي هذا الوحل يموت التابعون حين يموت ، وتنتهى بالتالى طاقات كادت أن تبدع . واما أن تتم مصادرة العقل عن طريق الانسان نفسه حين يكون تابعا مقلدا يخشى أن يكون متبوعا فيطاله ندم ، ويخاف أن يكون مبدعا فتزل به قدم .. فيبقى طيلة وجوده ظِلاً لوجود يلازمه يتحرك حيثما يتحرك ، ويسكن حيثما يسكن قد يكون هو الفاعل ذلك بلا خيار .

أَمَرْتُهـــم أمـــرى بمنعـــرج اللّوى ... فلم يَسْتَبِنـوا النُّصـح الا ضحـى الْغَدِ

فلماً عصونـى كُنْـتُ فيهـم وقـد أرَىَ ... غوايتهـــم وانَّنـــى غـــير مُهْتدِ

وهـــل أنـــا الا من غزيّة إن غوت ... غويتُ وان ترشـــد غزية أرشدِ

ـ « دريد بن الصمة » كان له رأي مستقل عن قومه . رَأْيٌ يجزم به ويعرف نتائجه بحكم ذكاء الفطرة ، ولكن في حمأةِ التبعية المطلقة للقبيلة وشيخها وطقوس المجتمع وخوف القبيلة صَادَرَ دريد عقله ونزل على رأي قومه حتى مع علمه بخطئهم .

قُلْتُ : فان كانت هذه فلسفة تعنى التبعية المطلقة وتَخَلِّيَ الانسان عن رأيه ليكون هو

التابعَ دائما ، الذَّيْلَ أبدا . يترجل حينا يكون المتبوع راكبا ويقعد حينا يكون المتبوع ماشيا . يخفق الصوت ويغض الطرف فذاك أمر ينبغى نبذه ظهريًّا . وما ظنناه عاملا في اصلاح الحياة وعمارة الارض ولكن هذا لا يعنى التّخَلّي عن الاجماع والجماعة .. الجماعة قوة والاجماع هو الصواب كما ألف ذلك الناس،ولكن هل كل إجماع صواب ؟ وهل صواب الاجماع مطلقا ؟ لما كانت شؤون الحياة تتطلب الائتلاف وتستدعى نبذ الاختلاف كان الاجماع هو الصواب .. الصواب من حيث كسر عصا الاختلاف فقط ولكن ليس كل رأى مُجْمَعٍ عليه صوابا . وليس كل رأى مخالف خاطئا .. الاجماع هو الصواب لأنه ليس ثمة بديلٌ له يُؤدِي الى توحيد كلمةٍ ، ونبذ فرقةٍ ولا مراء في ان الامم التى يكون فيها اجماع على رأي وتُقَدِّمُ الرأى المجمع عليه وتحترم الرأى المختلف عليه تُعْتَبَرُ أمة عظيمة الشأن تحترم العقل ، وتكرم الانسان . ولكِنَ المشكلة تأتى حين يوضع العقل امام خيارين : فاما المصادرة الحسية حين يُرَادُ له أن يكون ساكتا او المصادرة المعنوية حين يراد له ان يكون ذيلا .

قُلْتُ : ومصادرة العقل لا تتم فقط بهذه الصور بل تتجسد في صور أخرى .. فالمفكرون حين يوضعون في مؤخرة الحياة فكأنهم مصادرون او حين يحاط المجتهدون الواعون بتشكيك وتسفيه وارهاب حسّي فكأنهم مصادرون . وليس المهم هنا الحديث عن ذلك كواقع بل فيما ينتجه هذا الواقع من آثار خطيرة على الكيان العام ، فالانحراف الفكرى والعقدي .. والصدمات العقلية .. تخريب الكيان .. الحقد وحُبُّ الانتقام . مجموعة آثار ان لم تحدث بشكل عاجل فستحدث بشكل آجل . لقد رُوِيَ ان اثنين من الرُّواد من قومنا أفْنَيَا عمريهما في التأليف والبحث وكتبا الالآف من الصفحات بعد جهد مُضْنٍ ومعاناةٍ والآم ثم بعد هذا قرر أحدهما أن يدفن كتبه في التراب لماذا ؟ لقد شح بها على التلف ولكنه شح بها ايضا على مجتمع كان يَلْفَظُهُ ويُصادر عقله . ولكن العالم الآخر كان على نقيضه حين خرج الى احدى الساحات بكتبه الكثيرة ثم حوّلها الى ذرات من عدم لماذا ؟ لأن المجتمع في نظره لا يستحق أن يكتب له . ترى أليس ذلك هو الحقد والانتقام في ابشع صورتيهما تَقَمَصَا نَفْسَى عالمين كادا يقدمان لحضارتنا ثروة وعطاء ؟

إن الانسان يخطىء جدا اذا صادر عقله على اساس أنّ الرأي المجمع عليه دائما هو الصواب . الالتزام برأى الجماعة هو اللازم من حيث كونه أدعى للائتلاف ، ولكن ذلك لا

يعنى التخلى عن العقل ودَوْرِهِ في ابداع فكرة او اظهار حجة .. العقلُ قد يتبين له الرأيُ بشكلٍ قاطع كما تَبَيَنَ لدريد بن الصِّمّةِ . وقد يستطيع صاحب العقل اقناع مخالفيه وقد لا يستطيع ولكن هل يلزم حينئذ برأيهم ويفعل مثل ما فعلوا حتى وان كان خطؤهم بينا ؟

لقد أجاب على هذا السؤال وزير بريطانى سابق اسمه جورج براون ، كان اكثر دقة في فلسفته حول رأى الجماعة من دُرِيْدِ بن الصمة قال ما معناه : في مقابلة معه عبر المذياع : « إن الناس يخالفونه رأيه وهو كذلك يخالفهم آراءهم ، وقد يرى بعض الناس ذلك عيبا فيه . ولكنه لا يراه كذلك .. انه يحترم آراء الآخرين أكثر مما قاله « فولتير » الفرنسى في استماتته في الدفاع عن رأي الغير وإن اختلف معه . انه يحترم رأى الجماعة والاجماع ولكن ذلك لا يعنى تخلّيه عن فكرة يؤمن بها او رأى يعتقد صوابه . يُسّجل رأيه للتاريخ وللأجيال القادمة .. لان رأيا قد يظن خطؤه في اليوم ليس بالضرورة ان يكون خطأ في الغد ، فقد يصبح الرأي المخطَّأ ـ بالتشديد ـ صوابا ، والرأي المصوب خطأ . بعد حين . لذلك خير للأمة ان تسجل في تاريخها الرأي المجمع عليه . والرأي المختلف عليه لتتجنب في مستقبلها رأيا ثبت فساده ، وتستفيد من رأي ثَبَتَ صَوَابُهُ . وان تسجيل نتاج عقل الأمة دليل شاهد يعكس مدى حرية العقل فيها اولا ، ثم ازدهار هذا العقل ثانيا .

ولعل قائلا يقول : لقد عرفنا ان العقل يمكن ان يصادر بفعل الانسان نفسه او بفعل غيره ولكن كيف نعرف متى يحصل العقل على حريته ، ومتى يزدهر ؟ او بمعنى آخر : هل العقل يوجد حريته ام انها توجد له ؟ وهل يزدهر بفعل عوامل خارجية أم ماذا ؟ الحرية لا توجد العقل ولكن العقل يوجد الحرية ، شأنه شأن الطائر الكاسر حين يبحث عن قوته في متاهات الفضاء لا تخيفه السفن الذاهبة الى المريخ ، ولا اصوات الطائرات المتنقلة بين الاقطار والقارات ، ولا حتى أصوات بنادق الْقَنَّاصَةِ الماهرين ، او شأنه في ايجاد الحرية شأن الطائر الذليل حين يرى في التحليق خطرا ، وفي المجازفة مَوْتاً فيرضى بالقليل ويقنع بالبسيط . ولست هُنَا أتحدث عن العقل من حيث ما عَنَاهُ متفلسفون في العقائد الروحية ولكن من حيث جَانِبُهُ الآخر جَانِبُ الانسان حين ينبغى أن يكوّن له رأياً صواباً يلتزم به ويدافع عنه كما يقول بذلك جورج براون البريطانى ، او رأيا خاطئا لغيره يعرفه كما عرفه دُرَيد بنُ الصِّمّةِ من قومه ولكنه لا يتبعه كما تبعه .

إن حرية العقل وازدهاره يعودان الى العقل نفسه . انه باختصار القادر على ان يحيا وعلى أن يموت،شأنه مرة أخرى شأن الطائر الشجاع حين يُفَضّلُ الموت على جمال الاقفاص او شأن ضده من بغاث الطير حين يرغب في الحياة فى السراديب متى ما وجد القليل من العيش وان كان ذليلا .. وابحثوا عن التربية حتى في عالم الطيور فستجدون انها تجعل من هذا شجاعا يطلب الموت من اجل ان يكون عزيزا في الحياة ، ومن ذاك جَبَانًا يريد الحياة حتى وإن كان ذليلا ..

***

الفصل الرابع

الإنسان والروح

- لقاء الروح .
- عارض الروح .
- ذكرى الإسراء والمعراج .
- الصوفيون .
- فلسفة التوجيه العقدي .
- مُثُلٌ تعود بعد الغربة .
- في محراب التوبة .



لقاء الروح .

في كل عام تَفِدُ الجموع الحاشدة الى الديار المقدسة لتُؤدّي شعيرة من شعائر الاسلام . تأتى من اقاصى المعمورة متجردة من المادية في شتى أنواعها . لابسة لباس الخشوع والانقياد لعظمة خالق هذا الكون مؤدية لركن دينى مفروض طائعة للآمر به لا تقصد شيئا غير رضاه ، ولا تريد سوى طاعته .

إن أولئك الذين تَجَشَّموا المصاعب وركبوا المخاطر وتحملوا متاعب الغربة ومرارة البين ، لا يدفعهم سوى اعطاء الروح نصيبها ، والنفس صفاءها والقلب راحته ، حريّ بهم أن يستحقوا رضاء الله ، وينالوا ثوابه .

إن مقدم المسلم من أقاصى آسية وأفريقية وأوربة الى الديار المقدسة ، يذكرنا بأن المصاعب مهما تَستفحل قوتها وتشتد وطأتها ، لا يمكن أن تؤثر بأى حال على الرابطة الروحية التى تشد الانسان الى خالقه ، ولا تؤثر على ما يستشعره من رهبةٍ ورغبةٍ نحو بارئه .

ومقدم المسلم يذكرنا أيضا بأن بين ماضيه وحاضره بَوْناً شاسعاً وفرقاً عظيماً ففى الماضى كان السفر الى الحج احد المتاعب الكبرى التى يواجهها مُريدُ الحج . مَتاعبُ سياسية يوم كان المحتل بخيله ورجله يحتل معظم بلدان المسلمين . ومتاعب اقتصادية واجتماعية حين كان المسلمون في أوطانهم غرباء يعيشون حياة البؤساء ، ويعيش المُسْتَعِمر حياة الرفاه والثراء . ومتاعب نفسية حين كان المسلمون يُحَاصرُون بالتشكيك والازدراء وفي الحاضر صار المسلمون يأتون الى الديار المقدسة دون قيود ويحجون دون حدود . القبلة واحدة والمقصد والغاية واحدة .

لقاء الروح شيء غريب في نوعه وعجيب في شكله ومتميز في وصفه .

إنه لقاء بين انسان لا تجمعه وحدة في جنسه ، أو وحدة في لُغتِهِ أو وحدة جغرافية في أرضه ،لكن يجمعه ما هو أهم ويربطه ما هو أعظم،تجمعه وحدة الروح ويربط بينه رباط العقيدة وتؤلف بينه عرى الاسلام وتوحيد خالق هذا الكون العظيم وكفى بذلك من رباط .

* * *

عارض الروح .

ليس من المستغرب أن يمر الانسان بعوارض متنوعةٍ .. عوارض في الجسم والروح والمال قد يمر بها الانسان بواحدة منها ، وقد يمر بها كُلهّا أو بعضها ومقاومتها تختلف بين شخص وآخر ، وجوهر الانسان وتكوينه له دَوْرٌ أساسى في المقاومة .. البسيطَ في تكوينه النفسى والعقلى ينحنى ، ولو كانت الهزة بسيطة،والقوى يَصْمُدُ مهما كانت قوية وكبيرة .. هذه العوارض يتفاوت تأثيرها في الانسان ، فعارض الجسم قد يكون آنياً ويزول . وقد يشتد ويفتك وما في ذلك غرابة ، لأنَّ الجسم سيواجه نهايته عاجلة كانت أم آجلة .. وعارض المال قد يكون هو الآخر آنيا وموقوتا ، مع العسر يسر ومع الضيق انفراج وانبلاج .. وقد يظل قاسيا ومريرا . والانسان رغم كل ذلك سيعبر ذلك الجسر النهائى مهما يكن الزاد . لكن هناك عارض آخر هو عارض الروح ، وأَيْمُ الله ما أشده من عارض وما أقساه من ضرر ، لأن الانسان بلا روح « مادى متوحش » لا يميزه عن الكائنات المتوحشة الا الاطار العام لكنه بالروح يتايز ويتفارق مع تلك الكائنات : إن محنة الروح هي محنة وجودِ الانسان في عالمين كتب عليه أن يعيشهما بقلبه وقالبه .. لذا فان هذا العارض سيظل أعقد محنة يواجهها الانسان في صراعه المادى وسيظل انتصاره الروحى أسمى واغلى انتصار يحققه فى رحلته الطويلة ..

***

ذكرى الإسراء والمعراج .

ذكرى الإسراء والمعراج تَمُرُّ وحائط البراق .. مسجدُ الصخرة .. مصلى الفاروق .. القدسُ .. فِلَسْطِينُ بكاملها تداس بسنابك الاحتلال ، وترسف في أصفاد السجن اليهودى الرهيب .. كأنى بالمآذن تشرئب في تطلع حثيث تبحث عن الخلاص .. الخلاص من مَعَاوِلِ الظلام التى تسعى لتحويلها الى رُكامٍ .. حَبَّات التراب تتطاير فرارا من رجس الطغاة .. أغصان الزيتون تتمايل في أسى وحسرةٍ وخوفا من مَنَاجِل الغُزاة .. مسجدُ الخليل .. محاريبُ الصلاة .. أجراس الكنائس .. قبور الأنبياء .. مدافن الشهداء تتململ من بَغْي الجناة .. كأنى بواقع الحال المرير يسأل أين الفاروق وسعد وعمرو وخالد وطارق وشُرَحْبيل وصلاح الدين ؟ أين أولئك الأبطال العظام ؟ ماذا يكون الأمر لو كانوا أحياء ؟ هل يُدَاس الأقصى ويُحْرَقُ بقنابل السَّفَّاكين ؟ لقد قدر على هذه الامة أن تعيش غزوا متتاليا على مر التاريخ . لبس لبُوُساً كثيرة واتخذ صفات عديدة .. غزواً ليس بآنى ولا مرتجل .. غزواً منظما سلاحه كل شيء : الفكر والمادة والاخلاق والتشكيك وما يجرى في القدس وفِلَسْطِين ليس الا نتائج كانت لها مقدمات .. لكن التاريخ وحده سيثبت ان هذه الامة مهما تعرضت لكل ذلك ستعود الى النبع الصافى لتشرب منه عذبا فراتا سائغا شرابه وبالتالى ورغم كل الصعاب ستقذف بالمعتدين .

أجل ذكرى مسراك أيها الرسول العظيم وذكرى معراجك أيها البطل الكبير ، تمرّ وجحافل الطغاة تدوس الوطن المقدس الذى أُسرِْى بك منه .. محنة تقاسيها أُمَتُكَ ويصطلى بأوارها الشرفاء لكنها محك واختبار لصبرها وايمانها وثباتها . أجل منذ مئات السنين أخبرت ياابن عبد الله بان هذا سيحدث ، ولكنك أخبرت بأن المؤمنين سيجعلون من أرضنا مقبرة للغزاة .

هل هذه القدس والأقصى يُزَيِّنُهَا مسرى النبيّ أفيها ساجداً عمرُ ؟

أم أورشـليم يهـوذا بَاتَ يحكمها وهيكل الظلـم في أحضانهـا نضر ؟
ممرّدُ الصرح يابلقيسنـا انتظرى أرْخِـى ثِيَابَـك بالأحشـاء تنفطر
ماالصرح الا زجـاج سوف تطحنه مَطَاحِـنُ « الفتـح » في راياتهـا الظفر [1]

* * *

(١) وضعت حركة فتح هذه الأبيات تحت رسم المسجد الأقصى .

الصُّـــوفيونَ .

ظاهرة الصوفية قديمة قدم الانسان نفسه فمن الأقدمين مَنْ تَفَرَّغ كليةً لما يؤمن به من طقوس كما هى الحال في عصرنا وفي كل زمان ومكان .. وهذه الظاهرة في حقيقتها سلوك غريب في الانسان ، كينونتها نفسه وأسبابها تربيته وظروفه الشخصية .. إن لهذا الصنف من الناس انواعا عدة فمنه من ينحو هذا المنحى نتيجة خواء نفسى يستبد به فينزع به اليها تلقاء ظَنٍ منه أنها مالئة فراغه وخواءه ومنه من يركن اليها حين يعجزه صراع الحياة ابتغاء الخلاص منه . وعلى أى حال تعددت هذه الاصناف فان هذا النوع من التفكير لا يلجأ اليه الا الكسالى والعجزة عن مواجهة الحياة بمشكلاتها وصورها المتباينة .. ولا أعنى ذلك الصوفى المتلذذ بالمناجاة الروحية ينقى بها نفسه من شوائب الحياة المادية وأوضارها في ذات الوقت الذى لا يترك دَوْرَهُ كانسان يشارك قدر جهده وطاقته في بناء الحضارة الانسانية فلعله الجامع بين الحسنيين ، وانما عنيتُ الصُّوفيَةَ المُحَنَطَة المتخلفة كُلّيةً عن دور العمل الحضارى المادى لتظل أداة استهلاك تأكل من غير ان تنتج وتلبس من غير ان تنسج وتشرب من غير ان تحضر وتخرج . ولك أن تسميها « كتائب البطالة » او « اكوام الرماد » وكيف لا تسمى كذلك والانسان بطبيعة تكوينه مفترض انه خلية عاملة في اطار من التحرك والانطلاق ويحافظ على وجوده وسلامة نوعه كما وكيفا .. اليس هذا الافتراض الملزم يجعل منها في هذا المنزع خلايا ميتة يتساوى وجودها وعدمها ان لم يكن هذا العدم اولى وأحق ؟ وقد يدعى معاكس ان هؤلاء هم الصفوة العازفة عن اوضار المادة ضحت بالترف لتبلغ غاية الروح ، همها الآخرة لا تثنيها عنها مباهج الحياة .. اليس من الغريب استهجانها ؟ وهنا لا اجد استدلالا على رد هذا الادعاء اعظم من استذكار قصة النفر الذين كانوا على ما يبدو حديثى عهد بالعقيدة جاءوا الى الرسول ﷺ يحملون في حناياهم صُوفِيَّةً مُجْهِدَةً سألوا عن عبادته فلما عرفوها استقلوها فتجادثوا فيما بينهم فاحدهم يقول :

أصوم ولا افطر آخر منهم يقول : أصلى ولا انام وثالثهم يقول : سوف اعتزل النساء .. فيخرج اليهم الرسول الكريم ليقول : انتم الذين قلتم كذا وكذا . أنا أصوم وأصلى وأنام وأجامع النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى .. اليس فى هذا الرد الناقد والتعليم الجامع إيضاحُ ان الانسان له دوران رئيسيان لا يمنعه أحدهما عن أداء الآخر ؟ فاذا كان دور الروح قطبا هاما في حياته المكلفة ولا يجوز له التخلى عنه والا تَحَوّل الى عابد مادى تفرض عليه هذه العبادة التخلص من المثل الانسانية فان في الدور الماديّ قَوامَهُ وحَيَاتَهُ ودونه يبقى صوفيا متخلفا . ان فقدان التلازم بين هذين الدورين سوف يؤدى الى نتيجتين يتصورهما العقل المدرك فاما التوحش المادى الرافض للقيم والمثل الانسانية واما تعطيل طاقة في استغلالها نفع للانسان . وفي كلتا الحالتين هدر لدوره في الارض واستخلافه فيها .

* * *

فلسفة التوجيه العقدي .

التوجيه العقدى ذلك المحرك ـ خفاء وعلنا ـ لمحو الامة ـ اى أمة ـ والمسيطر على نزعاتها وتصرفاتها الارادية واللا إرادية . تعمل كل شيء بوحيه وإن كان يصادم غيره جزءا أو كُلا حتى وان وصل الامر بين هذا وذاك الى اسالة دماء وتكاثر أشلاء ، والانقياد لهذا التوجية ليس بمستغرب ولا منكر فقد اوجدته طبيعة الانسان انى كان ، بل هو سر من اسرار بقائه ، وعامل من عوامل تقدمه وحضارته .. ليس عجيبا أن يلتزم ذلك الانسان المارد برباط يشده الى حياته ويجذبه الى آماله سواء منها ما كان ماديا أم روحيا ـ واذا قُلْتُ روحيا فان الغالبية الساحقة من بنى الانسان تلتزم بالروح شكلا وعملا ، على تفاوت بينها في ذلك الالتزام . ليس عجيبا ان يتعلق الانسان بذلك الرباط الذى يشده وذلك الظل الذى ينضوى تحته ليعرف اى شكل من حياته تلك داخل هذا الزحام المتدافع بين بنى الانسان .. إنما العجيب ان يكون الانسان على غير ذلك الخط فذلك لا شك انسان الضياع والشتات انسان الانعدام لا انسان الوجود .. والاعتقاد الجازم بان الانسان في ماضيه او حاضره او حتى في مستقبله لم ولن يُعارض في وجودِ رباطٍ عَقَديٍ يرتبط به ويخضع لمنهاجه ونهجه في مناحى الحياة لكن مدى الالتزام وفاعلية التطبيق قد يكونان محل خلاف بين الفئة الواحدة حيث يصر بعضها على ان يكون الالتزام والفاعلية في اقصى حديها حالما يكون الاخر على النقيض ، ولكل منهما حجج وتعليلات لا تتمكن اى منهما من الغلبة الا وفق ظروف وحالات كل منهما لما ترتبط به من عوامل مؤثرة داخلية او خارجية . وقد يبرز التباين حول صلاحية هذه وعدم صلاحية تلك وما يقترن بذلك التباين من خصام عَمَليٍ وجدل نظرى يذهب مذاهب شتى ، ولعله في الاغلب يحتدم بين عقيدة روحية ذات منهاج متطور تعطى الروح ما لها والمادة ما لها في توازن دقيق لا تطغى فيه كفة على اخرى وبين عقائد فلسفية ذات مناهج مادية تتصور ان تكون بديلا لكنها في النهاية

سوف تحول ذلك الانسان الى كرة تتقاذفها الضربات فلا يستقر لها قرار .. إن عقيدةً ذات منهاج روحى متطور ومتكامل - عقيدتنا الخالدة - والتى تصورت في علم يقينى تطور الانسان وسبرت في دقة متناهية مشكلاته ثم أوجدت لتطوره ومشكلاته حلولا تتكيف وتناسب تطوره - وهذه العقيدة هي أهم ما واجه مثل هذا الصراع العقدى الشرس منذ كانت الى زماننا هذا .. واذا كان العقلُ قد فحص بدقةٍ تلك الأُسُسَ الروحيةَ ، وإذا كان التطبيق برغم فارق الزمن قد أكد في حقيقةٍ لا تقبل الاهتزاز صِدْقَ ذلك المنهاج النظرى .. إذا كان هذا أفلا يكون من الأجدر في هذا العصر القَلِقِ تأكيدُ فاعليةِ ذلك المنهاج ، والالتزام به محتوىً وإطاراً في ظل تجديد مسؤولٍ يلتزم بالأصول ، ويجتهد في الفروع وَفْقَ مقاييسَ حَدَّدَتْها تلك الأُصول ذاتها متى كانت الضرورة تدعو وتُلْجِيءُ ؟ إن الصراع العقدى ليس جديدا فاحتمال وقوعه وارد في كل زمان ومكان ، وقد يتخذ أشكالا متنوعة ، قد يكون فيها براعة وقوة وسيلة . ورغم كل ذلك أجزم قاطعا بأن التوجيه العقدى الروحى السليم ذا المنهاج المتطور سيثبت في هذا العصر القلق في صلابة وعناد اذا أحسن تحريكه وتَفَاعَلَ في توافق باطنه مع ظاهره بالرغم من حمأة التشكيك المنطلق مع زحمة الايدلوجيات الفكرية المضادة .. دليلى على ذلك أن الانسان - انسان هذه العقيدة - عاصر منذ غابر التاريخ ايدلوجيات عقدية متعددة برزت في عدد من الأمكنة والازمنة هي في الحقيقة كانت نتاج قلق الانسان النفسى المُتَرَجّح ، وعصارة تصوره في انها ستكون البديل الافضل لكن عقله وحده وتجربته واختياره كلاهما أطاحا بتلك الايدلوجيات المتتابعة بعد ثبوت خطلها وتداعي أسبابها وحيثياتها .

* * *

مُثُلٌ تعود بعد الغربة .

ما كانت الفوارقُ المبيّنة لحقيقة الإنسان تتميز إلا فى تعقله ومُثُلِهِ المتعارفِ عليها منذ أصله الأول ، فى روحه ، فى حرصه على القواعد المُلازِمَةِ لطبيعته الإنسانية ، وإذا كانت تلك طبيعته فَمُفَارَقَتُه لها هو الاستثناء ، هو الشذوذ والخروج عن القواعد .. المُثُلُ هى طبيعتُه .. هى تاريخُه الأزلىُّ ، هى بدايةُ انفصاله عن مجموعته العاقلة حين يفارقها ، هى خصيصةٌ من خصائصه ، وكأنها التلازمُ الطبيعىُّ المنغرس فى ذاته ، فى كيانه .. فى وجوده أصلا .. هذا الإنسانُ وهو فى ديمومة التصارع العنيف العجيب مع حياته ، مع نفسه ، مع غيره من الكائنات ، كان وسيظل يتصارع ويَعْنفُ مع المُثُل يلتزم بها كشىء من ذاته وحقيقته ، ويتجافى معها كنزوة من نزواته ، يتباعد منها كتفلت من سلوكه العاقل ، وينأى عنها كغريب رَفضَ الإقامة فى مكان ، ورحل إلى آخر يتوقع أنه يبتغى فيه الهَدْأةَ .. يبتغى فيه عَالَماً آخر يُغَيِّرُ فيه من حياته المكرورة وقواعده الثابتة ، ولكنه يُمَثِّلُ - وإن لم يشعر - دَوْرَ طائشٍ مائج عن حقيقته الأساسية ، وتَقَلُّبَ هذا الإنسان عبر أدواره الحيوية فى قوالبَ مختلفة ومتنافرة مع السوك العاقل المفترض فيه . وإذا قلنا « المُفْتَـرَض » فإن ذلك هو الحقيقة .. الملائكة قالوا للِرَّبّ العظيم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نَسَبحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِسُ لَكَ ؟) فقال لهم الرَّبُّ : (إنّى أعْلَمَ مَالاَ تَعْلَمُونَ) . فنظرة الله وهو أعلمُ العالمين إلى الإنسان أرحم وأحكم ، لأنه وإن شَذَّ بعضُه فسيظل حاملا للأمانة فى الكون الأرضى ، وسيظلُّ من بين المخلوقات فى هذا الكون هو العاقِلَ فى سلوكه . أفلاطونُ يوم أسس مثاليته كان يفترض تَلاؤُمهَا مع الإنسان تلازُما والتزاما ، وما كانت دَعَـوَاتُ الرُّسُلِ المتعاقبة عَبْرَ أطوارِ تاريخية مُعَيَّنَةٍ إلا قوالبَ مثاليةً تبين للإنسان مكانَهُ فى الحياة ..

وهذا المكان ليس إلا نهجا مُؤَسَّسا على الْقِيَم ، ومرتكزاً على الْمُثُلِ .. لم تكن هذه الدعوةُ الا عَوْدَةً لحقيقته ، وليست تلائم بعضه زمانا ومكانا ولاتلائم ذلك الآخر .. هى مُفْتَرضَةٌ فى الإنسان ـ أىّ إنسان ـ زمانا ومكانا فهو حين يُحبها ، حين يعود اليها يَحِنُّ إلى حقيقته ..

يعود إلى مكانه .. يعشق هدأته و واسْتِقْرارَه ، وحين يَنْفِرُ منها يكون فى الغربة ، ينفرط من سلكه الأصيل ، وينخدع بتجديد مكانه ، ولكنه مع ذلك يظل فى الحقيقة مُسَانِداً .. إقامتهُ محدودة ، ومسلكُه متقلب ، وحياته مترجّحة يتأفف من كل شيىء وإن استطابه ، فهو حَبِيسُ همومِهِ وآلامِ غُرْبَتِهِ المتأججة فى نفسه .. إنه غريب يظل يبحث فى غربته عن مكانه الأول .. يستذكر خُطُوَاتِهِ اللاتى نقلنه الى الغربة ، يحلم بالعودة .. يَجْتَرُّ ذكرياته وكأنه يعيشها حزينة خانقة تضغط على قلبه وتُلَبّدُ مَشَاعِرَهُ وأحاسيسَهُ ، وتمر الأيامُ ، ويعود الغريبُ إلى حقيقته ، مكانه ، سلوكِهِ المألوفِ حياتِه المعهودة .. إنه لاعجب فى ذلك فهو حين يبعد عن دائرته لايخرق كثيراً النواميسَ الطبيعيةَ للأشياءِ التى يقبل كثيراً منها بالتناقض والتضاد كمسلمات بدهية فإذا كان الارتخاءُ والانصهارُ يقابله التجمدُ ، والارتكاز يقابله التَّرجَحُ فإن السلوك العاقل يماثله سلوكٌ غير عاقل ، يفعله بعضُ الإنسان نتيجةَ اختلاف البيئة وتَغَيرِّ السلوكِ العامِ ونتيجةَ مؤثراتٍ جانبيةٍ أخرى ، هى أقرب ماتكون إلى الفاعل المفروض . ومادامت الأشياء فى كثير منها فى هذا الكون تَخْضَعُ لمقاييس متضادةٍ هى أساس فيه وحقيقة من حقائقه ، فالإنسانُ حين يتفلت من هذه الْمُثُلِ يخضع لهذه المقاييس المتضادة ، وما إخالُ الْعِلَّة فى ذلك إلا ليجرب هذه المقاييسَ ، ليزداد تعمقُه وتعلقُه بالأفضل منها فى النهاية انطلاقا من مُسَلَّمَةٍ عقلية مُفَادها : « أن الضوابط السلوكية العاقلة تكون أكثر قوة ومتانة إذا تولدت بعد ضوابطَ سُلوكيةٍ . إن غربة الْمُثُلِ تمثل هذا الانعطاف فى السلوك غير العاقل ، أوجدتها عواملُ كثيرة جاءت بها هذه الحضارةُ القلقةُ .. لقد سيطر القلق على هذا الإنسان فى تصرفاته .. فى تَوجُّساته ، فانصعق بهذه الآلام الثقيلة ، وصار الشذوذُ فى سلوكه ظاهرةً مُلازِمةً له ، ابْتَعَد منها إرواء لظمإ فى نفسه أو علاجا لآلامه المتولدة عن قلقه ، ولكنه وَجَدَ ـ وإن لم يكن كله قد وجد ـ أنّ فى هذه الغربة تعميقا للقلق ، وبُعْداً عن الاطمئنان الحقيقى لسلوكه ، إن الغربة تعنى الْبُعْدَ عن المقر الحقيقى للغريب ، وإن تعددت فيها الملذات وتنوعت المباهجُ فليست إلا ظاهرةٍ غير طبيعية ، مايلبث فيها الغريب حتى يعود إلى مقره الطبيعى المرتسمةِ صورتُه فى ذهنه منذ

صِغَرِه حتى صار جُزءاً من أجزائه ، وخَلِيَّةً من خلاياه ، لايهدأُ إلا برؤيته ، ولايَنعم إلا فيه ، ليعود فى النهاية وقد ألقَىَ عصا الغربة القلقةِ فى بحر العُزُوفِ .. إنَّ المُثُلَ قد تَعُودُ بعد غربتها العنيفة ليعود للإنسان رُوعه الهادىء ورئتاه المتنفستان ونظرته المستقـرة .. حزام العفاف أحد تقاليد القرون الوسطى ينتشر فى أمريكة وأوروبة بشكل هائل .. الشركة التى تصنع هذه الأحزمة تَلَقت طلبات بزيادة كمية الإنتاج .. إنه بَرْهَنَةٌ من المرأة للرجل ؛ بأنها أمينة على أمانة العِفَّة .. برهنةٌ لأنَّ الكلمة بالعفاف لاتَغْنِى اطمئنانا فى زمان اهتزت فيه معاييرُ الثقةِ ، وعلا فيه صوتُ الذئاب المفترسة ، وتماوجت فيه الكلمة بين الصدق والكذب .. وعلى أىّ حالٍ فإن الأيام القادمة للإنسان ستثبت أنه سيعود من غربة المُثُلِ لِيَسْتَقِرَّ على حقيقته .. لِيَلْتَزِمَ بمُثُلِهِ الطبيعيةِ ، بنفس القوة والتصميم اللذين حقـق بهما التجولَ فى الفضاءِ وبسَطَ جَنَاحَيهْ على القمر .

* * *

في محراب التوبة .

ذهب الماء بعيداً فى أعماق الأرض
كأنه يهرب إلى الأبد ..
سقطت أوراقُ الشجر الخضراء .
تكسرت الأغصانُ اليابسةُ من قسوةِ العطش .
خرجت الكائنات الحيةُ من مخابئِها
تبحث عن مُدَّخَرِ الشتاء من القُوتِ فلم تجده فماتت جوعا .
انسحقت حيوانات البريةِ وتحولت الى
عظام تَتلألأ فى البيداء الموحشة .
عَوَتِ الذئابُ الهائمة عُوَاءَ من يريد
الانتقام العنيف ، ثم اقتربت من القرية
الكئيبة تبحث عن فرائِسَ من الرجالِ
والأطفالِ والنساءِ فماذا تراهم فاعلون ؟
لقد تشاوروا فيما بينهم على عجل فقام
أحد المجانين خطيبا فيهم :
ماذا تريدون أيها النائمون فى وقت اليقظة ؟
قالوا : نريد مَوْعِظَةَ مَجْنُونٍ مثْلك
قال : فى صوت متهدج : أتراكم ذاهبين إلى محراب الندم ؟ و. و ؟
قالوا : نعـــم

قال : هل تقبلون موعظة المجانين ؟
قالوا : نعم نَقْبَلُها .. نقبلها فما هى أيها الحكيم ؟
قال فى صوته الجهورىّ ورزَانَتِهِ غير المُتَصَنَّعَةِ :
عندما تعزف النفوسُ الجامحةُ عن مراتع الضلال ..
حينا تنصهرُ الذات الممتلئة من التخمة القاتلة .. وتَعْرِفُ معنى التعايش فى بوتقة النظرة الى التعادل النسبىّ مع الهزال .
حينا يُصْغِى الْبُزَاةُ الى أصوات الحمائم الوادعة ..
إذا سمع الغلاظُ أجراس المستكينين عند أبواب النيكل المتلالىء .
إذا التفت الراكب مِنْ على جوادِهِ الفارِهِ الى الرَّجَّالَةِ الذين يحفرون الأرض بأصابعهم المُحْدَوْدِبةِ يبحثون عن سد الرمق فى متاهات التعاسة .
إذا صلى العابِدُ فى محراب الحقيقة فى صفاء الأصداف البيضاءِ المستخرجة من البحار ..
إذا طَرَقَ صاحبُ الأشياء الثمينة أبوابَ الأرملة فى هَدْأة الظلام يبحث عن كفكفة دموعٍ حائرة ..
إذا تناظرت أضلاَعُ الحقيقة فى باطِنِ النفس وظاهِرِها فى شكل مُتَساوِى الأضلاع .
إذا ارتعشَتْ أناملُ الكبرياءِ عند ذِكْرِ القدرة الخفية فى عَالَمِ الروح ..
اذا اقْشعرَّتِ النفسُ من رقدةِ الضمير وانتكاسَة الوجدان ، وانهصرت الأظافرُ الناشبة فى ملمس الانتكاسة الجَسَدِيَّة
حينا يتغيَّرُ الكوخ الملىء بالكائنات الصغيرة المختلفة ، ويتحول إلى مكان مأنوس للكائنات الراقية من عَالَمِ المخلوقاتِ و . و . و .. ثم سكت الحكيم برهة من زمن يتأمل مَنْ حَوْلَهُ من المُحْتَشِدِينَ فقال أحدهم وهو يجهش بالبكاء : لقد تعبنا أيها الحكيُم من « إذا » فما أنت قائل بعدئذ .؟
قال الحكيم : إذا تحققتْ تلك الشروط حينئذ سوف يُنَادِى منادى السماءِ فى هَيْمَنَتِهِ المطلقة وفى قُدُرَاتِهِ الغيبيَّة الخارقةِ
أيُّها السماء جَلّلِى الكونَ السُّفلى سَحَابًا مُتَراكِما .
أيها الرعد أرْسِلْ أصواتَكَ الهادئةَ عَبْرَ الفضاءِ .
أيها البرق اللامع أرسل ومضاتك الجميلة على الكون ،أيها المطر المتكاتف أرسل قطراتك المتتابعة على الكون السفلى .

أيها البرد جمد القطراتِ فى الفضاءِ وأسقطها ثَلْجاً رقيقا يتراكم على الأرض الْعَطْشَى .
ثم يُنَادِى مرة أخرى .. أيهُا المطر لقد امتلأ الكون السُّفْلِيُّ فَكَفْكِفْ قطراتِكَ لتترك للأيدى الكادحة أن تعمل من أجل أهل الأرض المحتاجين .
... كُفَّ كُفَّ : أيها المطر المتدفق .. .. لقد تفجَّرتِ الينابيعُ .. امتلأت الجداول ...
أُتْرِكِ المحراثَ ينزل إلى الأرض المبتلة ليشُقَّ الأخاديدَ الصغيرةَ بعد أن ترسل الشمسُ أشعتها الدافِئَةَ فينثر الكادحُ حبوب القمح الْحَمْراءَ الصغيرةَ ،
لتنمو فى صفوف خضراء متناسقة ..
.. يكبر الساقُ ويشتد العودُ
.. تبرز السَّنابِلُ شامخة ممتلئةً
بالحبوب الغنية ، وتتمايل طربا عند
إشراقة الشمسِ الدافِئة ..
ثم عندئذ تَبْدَأُ المناجِلُ الْمُحْدَوْدِبَةُ بالْحَصَادِ
.. تنبت الأشجار وتكثر الأغصان
.. تنمو الحيوانات البريةُ وتتراقص
طربا عند مغيب الشمس فرحا بالليل الدافئ ..
.. يسكن غضب الذئاب الْمُسْتَعِرةِ وتعود إلى مراتعها الجبلية ، بعيداً عن القرية
ثم عندئذ ينادى منادى السماء مرة أخرى :
هَلُمَّ أيها النَّادِمُونَ الى طيبات الأرض المعطاء كلوا واشربوا ، ولْيَسْكُنْ رُوْعُكُم جزاء مافعلتم فى « محراب التوبة » .

* * *



الفصل الخامس

الانسان العربي والحرب وقضايا الأرض

- الحرب والانسان .
- من قوانين الحرب .
- معرفة الخصم .
- الفقر والحرب .
- أسباب الهزيمة .
- ذكرى دير ياسين .
- الرفض في يوم الأرض .
- الوسائل والنتائج في معركة الأرض .



الحرب والإنسان .

منذ مدة من الزمن اتفق عِدَّةُ مئات من المفكرين الأوربيين على رأسهم « فرانسوا دوماك ، وأندريه جيد » على مطالبة الأمم المتحدة بإصدار وثيقةٍ دوليةٍ مكتوبةٍ تؤكد أن الحرب ليست وسائِل حَلّ المشكلات الدَّوْليَّةِ .. قصدوا من ذلك خدمة الإنسانية ، وخافوا على الحضارة الحديثة من الضياع .. والعقلُ يتصور أن ذلك النمطَ من التفكير لو دخل مرحلة التنفيذ فلن يكون إلاَّ نظريَّاً .. فالحرب نزعة رافقت الإنسان منذ وجوده .. حارب بالأحجار ، وتدرج عَبْرَ مسيرته الزمنية السحيقة يتفنن فى صنع آلات الحرب إلى أن أَوْجَدَ القنبلة الذَّرِيَّةَ ، ولن يكتفى بها أبداً ، فالحرب وإن لم تكن حَلاًّ لمشكلات الإنسان فإنها نزعة من نَزَعَاتِهِ ، سيظل يوجد المعاذير لإشعالها بينه وبين جنسه مهما تكن الوثائق والمظاهر .. إنها حقيقةٌ تؤيدها مُجْرَيَاتُ التاريخ منذ الآف السنين .. وأقول ليست الحربُ من نزعات الإنسان وحده بل هى خصيصةٌ ثابتةٌ فى كل الكائنات ذات الروح ، ومايدريك فهى حكمة الخالق العظيم يقف أمامها العقل إجلالا وتعظيماً ...

***

من قوانين الحرب .

كان المُهَلَّبُ ، فى حروبه مع الخوارج ، يبث الأَحْرَاس فى « الأمن » كما يبثهم فى « الخوف » ويُذْكِى العيونَ فى الأمصار كما يذكيها فى الصحارى ، ويأمر أصحابه بالتحرز ويخوفهم البيات ، وإنْ بَعُدَ منهم العدوّ ، ويقول : « احـذروا أن تُكَادُوا كما تكيدون ، ولاتقولوا هَزَمْنَا وغَلَبْنَا فإن القوم خائفون وَجِلُونَ ، والضرورة تفتح باب الحيلة » انتهى من كلام أبى العباس المُبَرِدِ .

قُلْتُ : وما فعله المهلب منذ مئات السنين تفعله الدول المتقدمة اليوم .. فَبَث الحُرَّاس فى الأمن هو لتفادى المباغتة والمفاجأة وهما عنصر أو عنصران هامان فى تقرير الظفر فى المعارك، وإذْكاءُ العيونِ فى الأمصار والصَّحارَى ماحسبناه إلا التَّوقّىَ والْحَذَرَ المفرط، والأمرُ بالتحرزِ والخوفِ من البيات يَعْنى بقاء الجند المحارب فى حالة التأهب والترقب لِرَدّ أىّ هجوم مفاجىء . وفى تاريخ الحروب عِبَرٌ وغرائبُ فهناك جيش هُزِمَ ـ بالضم والكسر ـ ولكنه انتصر ، وهناك جيش غَلَبَ ـ بالفتح ـ ولكنع غُلِبَ ـ بالضم والـكسر ـ فالأول استفاد من أخطائه وجَعَلَ من الهزيمة سبيلاً للنصر ، والثانى جعل من النصر وسيلةً للراحة فاستهان بِعَدُوّهِ لكونه مهزوماً أو بعيداً ، فصارت النَّشْوَةُ مَدْعَاةً للغفلة . والغفلةُ مَدْعَاةً للحيلةِ والهزيمةِ .. لقد عَلَّم ، المهلبُ جُنْدَهُ بأن الكيد والبراعة لدى جيشٍ مَّالاَ تعنى أنها له وحده فخصمه قد يملك ذلك فَلِكُلّ قومٍ تفكيرٌ ، ولكل قوم هادٍ ، وما حَسِبَ المهلبُ الهزيمة إلا باباً للبحث عن تفكيرٍ يزيل ثِقَلَ التقصير ، ليكون للمهزوم بمثابةِ التكفير ، فالضرورة تفتح باب الحيلة، والحربُ خُدْعَةٌ .. لقد عَرَفْنَا فى المهلب مُخَطِطا عَظُمَ فى عصره ، سَبَقَ عَصْرَنَا فى إرسال الرُّسُلِ وبَثِ العيونِ ، والتشديدِ على التحرزمن المباغتة التى ماعرفناها إلا عاملا مؤثراً فى تقرير سير المعارك .

معرفة الخصم .

في مجالات الصراع - أي صراع - قُلْتُ : إن من اللازم معرفةَ الخصم قبل محاولة التغلب عليه؛ والمعرفة تعنى الاطلاع على طُرُقِ تفكيره .. اتجاهِهِ .. أسْرَارِهِ ، وبالتالى على كل خبيئاته . وبقدر مايعرف الخصمان عن بعضهما يكونان فى موقف التضَادّ ، وبقدر مايفوق أحدُهما الآخر فى هذه المعرفة يكون فى مكان السيادة . وليس القارىء بحاجة إلى معرفة مَنْحَى الدول فى العصر الحديث .. فى انشاء المؤسسات العلمية لفهم الاتجاهات الفكرية الدَّوْلِيَّةِ ومدى تأثيرها على علاقاتها العامة، ناهيك بها إذا كانت فى مكان يجعلها هدفاً لتطوراتٍ فكرية أو مذهبيةٍ . ولم يكن هذا المنحى من مُحْدَثَات هذا العصر وحده بل هو قديم قِدَمَ الحروب فى الأزمنة السابقة ، وإن اختلفت الأساليبُ والمسمياتُ . ولا أبالغ إذا قلت : إن الحضارة العربية فى فتراتٍ متفرقة تأثرت بعاملين هَامَّينِ أثَّرا فى انحسارها عن المدّ والارتقاء . أولهما - جهل أبنائها بواقعهم من خلال الانغلاق الفكريّ الذى خَيَّمَ عليهم زمنا طويلاً مما جعل الطاقات الفكرية فيهم أداة تقليد واتباع ، انعدم فيها الجديد والإبداع ، وماتت فيها جذوة الريادة والتمدد . وذاك له سبب هام يمثل فى انبثاث الغزاة المستترين ولعلهم - الغزاة - ما أدركوا ذاك المُدْرَكَ من انحسار هذه الحضارة إلا حين تصدوا لتهويل كُلّ جديد ، واغتيالِ كُلِ تجديدٍ ، وربطِهِ بالخوف على التراث وماكانت الغاية الحقيقية إلا إطفاءَ أيّ شموعٍ حضاريةٍ أخرى ترفد الحضارة والإبقاء على الشمعة الواحدة حتى تأتى على نفسها بمرور الزمن .

ثانيهما - الجهلُ بواقع الغير . إن الفترة المضيئة التى كانت الشعوب فيها تعرف كُلّ خبايا خصومها وتفكيرِهم انتهت بانتهاء الجيل الْـمُجَدِّدِ ،حتى صار الْقُطْرَانِ المتجاوران

لايعرفان عن بعضهما شيئا ، ولو كان من ضرورات المعرفة العاديَّة . وكان دَوْر الغزاة هو الآخر قويا فى إحكام الانغلاق والانعزال ، لقتل التأثر والانفعال .. ولعمرى إن تلك الاساليب ماكانت لتنفذ لو لم تجد قِصَارَ نظر راحوا يعتقدون أن معرفة العلوم المضادة ـ أىّ علوم ـ مدعاة للتأثر بها أولا والأخذ بها ثانيا ، والعقل البسيط يتصور أن هذا المنحى فيه إدراك « ومنطق » . فالانفتاحُ قد يعنى التوسع ، والانزلاقُ والسيرُ على الجليد أخطر انزلاقا من السير على التراب . وهلم جَرّاً .. وماكان تصوير الأمر بهذه البداهة إلا خَطَلاً وخطأ .

إنَّ العكس هو أقرب للعقل ، فمعرفة التزلج على الجليد أكثر مَشَقّةً من المشى على التراب ، وأكثر من ذلك ، يمكن القول بأن الاغماض عن معرفة العلم المُضَادِ سبب هام للوقوع اللاَّ إرادِىّ فيه وحينئذ يبدو الارتداد عنه أمرا مستحيلا . ولا أعنى أبداً فتح الباب للريح قبل التحوط لها . وأهم شرط للتوقي من الانزلاق إذا سلمنا بوجوده معرفة الشىء وضده .. أذكر أنى حين كنت أدرس الحقوق فى الجامعة قرأت لأول مرة فصلا طويلا عن مذهب اقتصادى وسياسى معين ، وجدتنى خلال ذاك منزعجا من المؤلف فى تمجيده له ، وتعداد مزاياه .

وسرعان مانقدتُ ذاتى لاستعجالى الحكم قبل معرفة النتيجة . لقد ختم الفصل بتعداد النقائض والمآخذ ، وبسط فى لمس علمىّ خفيف أوتار الطالب بأن ذاك المذهب يحوى من المزايا أقلها ، ومن الأخطاء أكثرها من هنا يكون الاقتناع عن فهم وادراك لطبيعة العلم المضاد . واستدلال آخر أعمق وأجل .. إنه الإمام أبو حنيفة رحمه الله قيل عنه إنه دَارَس جَابِرَاً الجعفىّ مع أن هذا الأخير من غلاة التشيع لآل البيت ، بل كان يعتقد بعودة الإمام علىّ إلى الحياة مرة أخرى . وما كان يعيب أبا حنيفة أن يدارس هذا ويعرفَ حججه لِيدحِض دعواه ، وهذا كان اتجاهَ الكثير من العلماء فى معرفة حجج الخصوم ومَدَارِكهمْ للرد عليها ومحاربتها . وقد يقال : ذاك أبو حنيفة وما يتوافر فيه من التحصن والتوقى قد لايتوافر فى غيره . قُلْتُ : إن الأمر واحد .. أجل : إنَّ التمكن والتحصن شرط أساسى ولكن مناقشة العلم المضاد والردّ عليه وتفسير ضررِه وخطرِه وشرح أضرارِه وأخطارِه سبب هام للاقتناع ببطلانه . والعقل يصدق أن الاقتناع بعد المعرفة . أفضل من الإقناع قبل المعرفة . وفرق بين الاقتناع والإقناع فالأول تسليم بالمعرفة ينبع من الإدراك الداخلىّ ، وله سلطة كاملةُ التأثير فى التصديق العقلىّ . والإقناع قد يكون هو الآخر مقبولا بالمعرفة ولكن بفعل تأثير خارجىّ سلطتُه ضعيفة التأثير فى التصديق العقلىّ .. وخلاصة مايمكن

قوله : إن الجهل بواقع الغير داءٌ مزمن مازالت آثاره باقية فى جِيل ِ العرب الحاضر ، ولعله سبب فى انحسار حضارته وخُفُوتِ صَوْتِهِ وَوَهْى حجته .. ترى هل يعرف هذا الجيلُ عن مؤسساتِ أعدائه وهم كُثْرٌ وأخطارِهَا على مُكَوّنَاتِه المختلفة ، مثلما تعرفُ هذه المؤسساتُ عنه ؟ وماظننتُ الجواب إلا أن يكون بـ لا ,,...

* * *

الفقـــر والحـربـــ .

كثيراً ماكانت هذه الأسئلة تطرح نفسها : هل الفقر يسوّغ الاستسلام ؟ وهل الحرب يشعلها الأغنياء ليحافظوا بها على غناهم أو ليزيدوه . « أم هم الفقراء يدفعون بها فقرهم وعالتهم ؟ أم هو الإنسان أولا وقبل كل شيىء يسترخص الحرب دفاعا عن وجوده وحريته دون أن يسأل نفسه أهو فقير أو غَنِيٌّ ؟؟

عُدْتُ إلى استقراء التاريخ لأسْأَلهُ جوابا فوجدته زاخرا بالأمثلة والوقائع ، وإذا كان من المستحيل تعدادُ ماقاله التاريخ فلابد من إلمامةٍ بسيطةٍ قليلةٍ منه ..

غاندى الهندىّ فَضَّلَ أن يحارب المستعمرين وبلده بالفقر يُقَوِّى به نفسه وقومه برغم أن فى الفقر ضعفاً وهزالاً . رفض أن يأكل كَعْكَ الانكليز وأن يشرب شاى الهند اللذيذ الذى استولوا عليه .. فَضَّل حليب عنزة متخذاً منها رمزاً للاعتماد على الذات .. نعم بالحليب حارب الانكليز وانتصر عليهم .. لم يحاربهم بإرادة الْغِنَى ، ولا بالخوف من الفقر ، ولكن بإرادةِ الذاتِ .. ذاتِ الهنود من خلال حريتهم فى نفوسهم أولا وقَبْلَ كل شيىء .

قُلْتُ : إنَّ حُرِّيَّة الإرادة هى حُرِيَّة النفس . حرية العقل . حرية الإنسان فى داخله . إنها فى الحقيقة محركُ الصراعِ : صراعِ الإنسانِ مع نفسه مع غـيره . قد يكون غنيا ويحتاج إلى الحرب يحمى بها غناه من غوائل الأعداء ولكنه يَجْبُنُ بفعل إرادته وخوفه فى نفسه برغم أن غناه يوفر له كل أنواع العتاد . والفقير وهو المحتاج إلى غِنىً قد لايَتوافَرُ له

إلا بالحرب ، ولكنَّ إرادتَهُ وخوفَه ربما تثنيانه عن ذلك ، فيفضل الفقر على الغنى ، ويفضل الموت مسكينا كما هو . هي الإرادةُ وجبروتُ النفس وقوةُ الذات اجتمعت كلها في نفس غاندي الفقير فَحَوَّل فقر الهند إلى طاقة هائلة دحرت المستعمرين وجعلت من الهند قوة كبيرة في هذا الزمان . لقد قرأتُ مقالاً لهندية متزوجة من أمريكيّ نشرته في مجلة أمريكية تحدثت فيه عن شَعْبِهَا الفقير فَشَعَرْتُ منه بإعجاب وهي ترد به على صحفيّ أوربيّ وَصَفَ مَشَاهِدَ الفقر في الهند بأسلوب ربما كان به يعيب شعباً فيه مئات الملايين من الناس . قَالَتْ له : إن شعب الهند يفخر بالفقر لأَنَّه لم يكن عائقا له عن نيل حرية ، ولامانعا له من كرامة . لم يكن الفقر ثانيا له عن حماية نفسه في هذا الزمان الذى تصطرع فيه العقائد والأفكار بل إن فقر الهند كان هو الدافعَ له لِيَنْشُدَ الحياةَ بإرادةِ الذاتِ ، ولو فَضَّلَ الشِبَعَ في ظل الحماية لَفَقَدَ كُلَّ الحرية ومقوماتِ الكرامة ، وبالتالى كُلَّ معانى الحياة .

لم يكن غاندى هو الوحيدَ في بلده فقد كان معه قائد عظيم قلما عرفه تاريخ الهند هو محمد جناح أراد أن يجعل للمسلمين الهنود بلداً لاينفصل به عن الهند لمجرد الانفصال كما توهم البعضُ ولكن يتقى شر الفتنة بين الهنود أنفسهم وهم الذين كانوا على مفترق في الاعتقاد .. فقر الباكستان لم يكن هو الثاني لها عن الاستعداد لحماية نفسها .. إرادةُ الذات جعلت من الباكستان دولة تبحث عن صنع القنبلة الذرية تَرُدُّ بها معتدياً ، وترهب بها طامعا ، ولم نسمع ولم نقرأ أن فقراء الباكستان اعترضوا على ذلك أو على الحرب ذاتها إنّ لم يكونوا لها أَشَدَّ حماسا من الأغنياء .

ومن الهند وباكستان الى فيتنام . قصة اخرى في شكل مقابلة صحفية أجرتها جريدة (واشنطن بوست) الأمريكية ، مع جنديّ أُسِرَ أثناء حرب فيتنام كان عمره أقل من سبع عشرة سنة قال لسائله : إنّ غذاءه الأرز الأبيض المسلوق بالماء فقط لايعرف من لذات الحياة الحاضرة شيئا ، ومهمته في الحياة كما يعتقد ها هي أن يحارب دفاعا عن عقيدة يؤمن بها وإن أنكرها عليه الآخرون وعند سؤاله عما اذا كان نادما قال : لم يكن كذلك فهو يعتقد أنه يحارب دفاعا عن وَطَن حِمَايَتُهُ عليه واجب .

القصة الأخرى أسوقها من قريتى الصغيرة الواقعة في قلب صحراء نجد الشاسعة عندما كانت بلادى الكبيرةُ محلاً لغزو محمد على باشا الألبانيّ المسنود بأطماع دولية باع

من أجلها نفسه ونبى بها دينه ولا أقول قومه ، لأنه ليس بعربىّ من قومنا . امداداته وعتاده عبارة عن سلسلة ممتدة طرفها فى أرض مصــــر ، ووسطها فى أرض الشـام ، وطرفها الآخر فى أرض نجد ، وعبر طريق جيشه إلى قرية فى عالية نجد كان يعتقد فيها القوة والمال مر بقريتى الصغيرة[1] بخيله ورجله وسأل ابْنُ الباشا أهْلَها إن كانوا له يدينون وبه يرحبون ولجنوده يكرمون فإن كانوا كذلك فما عليهم إلا أن يُثْبِتُوا الولاء ويقدموا لجنوده التكريم والرضى .

قرية صغيرة ربما لم يكن أهلها يعرفون النقود الكثيرة ولا السلاح الوفير . القلة القليلة تملك دريهمات معدودات من عملة أوربية قديمة . عمادُ أهل القرية قليل من حنطة يتعرض مَوْسِمُهَا لعوارض الجَفَافِ وأمراض النبات وَتمر ليس بالكثير تجود به شجـيرات النخيل المتناثرة هنا وهناك . سِلاَحُهم سيوف قديمة أو أعمدة حديدية متآكلة مادتها القاذفة بارود « نوبل » وقطع صغيرة من قِماش لاتنطلق النار من فوهة العامود إلا بعد لفحه بقليل من نار . الفقر هو طَابَعُ القرية بل ربما كانت تعيش فى مرحلة أدنى من الفقر . لم يكن ابراهيم باشا الأجنبىُّ ليصدق عقله بأن رجالا ليسوا مسلحين ولا مُدَرَّبِينَ ولا أغنياء سوف يحاربون ولكنهم فعلوا . قاتلوه بعناد الأحرار وإصرار الرجال . لقد شهد التاريخ أنهم بَنَوا واحداً من أسوار قريتهم بِجُثَثِ الرجال . حقيقـة ابحثـوا عنهـا فى التـاريخ وستجدون أن الفقر لم يكن ليمنع الفقراء من الحرب ضد طغيان تسنده أشرس قُوىً دولية فى ذلك الزمان .

سوف يكون عجبا لكم أن تعرفوا أن ثمانين رجلا من عائلة واحدة فى هذه القرية قضوا نَحْبَهَمُ فى ليلة واحدة . طلبوا الشهادة من أجل الحياة لأجيالهم . نَسَوْا أنهم الفقراء وأنَّ الباشا الطاغية هو الغنىُّ والقوىُّ . لقد نالهم الألْبَانى فى سلاحهم ولكنه لم يَنَـلْ من إرادتهم وذاتهم وحريتهم فى نفوسهم لقد ترك القرية بعد أن مُنِىَ بخسارة لم يصدقها عقله وترك وراءه جنوداً لِيُصَدِّقَ ظنه أنه قد هزم « الفلاحين » ولكن جنوده لم يدركوا يوماً إلا وهم يقتلون واحداً بعد آخر فى عملية دراماتيكية مثيرة ولم يجرؤ الألبانى أو خلفاؤه الصغار على العودة مرة أخرى إلى نجد وقراه وفلاّحيه .

وفى حرب ١٩٦٧ م شَهِدْتُ بِعَيْنَىَّ نتائجَ الحرب وأنا فى دِمَشْقِ الْفِدَاءِ .. الهزيمة كما

---

(١) خرماء

يعرفها قاموس الحرب إحدى نتائج قتال بين طرفين أو أطراف متحاربة .. قلت : وهى « أى الهزيمة » على نوعين . هزيمة السلاح وهزيمة الإرادة . هزيمة السلاح ليست نهاية لحرب بين طَرَفَينْ وليست مقياسا مطلقا لقوة هذا الطرف وضعف الطرف الآخر . هزيمة السلاح تقررها ظروف مختلفة ، والظروف ليست دائمةً ولا ثابتةً . أما هزيمة الإرادة فتقرر نهاية الحرب حين تنتكس إرادةُ أحدِ الطرفين ، فَيُقِرُّ بالهزيمة ، ويَخْرُجُ بسببها من الحلبة وبالتالى يُكمِّلُ انتصارَ الطرف الآخر . لقد كنت أسأل نفسى وأنا فى دمشق بعد توقف المعارك : هل هزمت سورية فى سلاحها أم فى ارادتها ؟ وكنت أجزم بأن سورية لن تكون كذلك .. إنها تضم قَبْرَ أبى الفداء خالد بن الوليد ، وقَبْرَ صلاحِ الدين الأيوبىّ ، ومَسْجِدَ بنى أمية وقَبْرَ يوسف العظمة وقِلاَعَ الحروب السابقة ، ومع ذلك كنت أتحسس مشاعر الناس وأحاديثهم فى الجامعة . فى الأندية البسيطة . فى الأحياء الشعبية ، وبين صفوف الجرحى وأهل القتلى الشهداء . حقيقة كان بها أهل الشام حَرِيِّينَ فلم أَرَ واحداً يتبرم من واقعة .. لم أَرَ واحداً ولم أسمع من أحد أنّ شخصا قد سئم الحرب وهَزَائِمَ سِلاَحِها وثِقَلَ وطأتها ، وقَسْوَةَ نتائجها . وعدتُ أدراجى إلى بيروتَ وعند مدخل لبنان شاهدتُ أعداداً هائلةً من السيارات تحمل رجالا عائدين إلى وطنهم سورية . إنهم عُمَّال سوريون نزحوا إلى بيروت من حُورَانَ واللاذقية .. من سهول سورية وجبالها ليعملوا فى ظروف عمالية قاسية بخمس ليرات فى اليوم الواحد . وعندما حدثت الحرب تركوا لبنان ورابطوا على حدود سورية يطلبون إليها العودة لماذا ؟ يسألون السلاح يطلبون به الموت من أجل إرادة الحياة . لقد بكيتُ فى قلبى خُشُوعاً ، وأنا أشاهد أعداداً هائلة من العُمَّالِ بعضُهم قميصه مرقّع ومتاع غربته متآكل تركوا لبنان يطلّبون الموت من أجل بلدهم . من أجل العرب ومن أجل الاسلام .. كانوا يحملون ارادة الفداء بها يستجيبون لخالد بن الوليد فى قبره وهو يتمنى ألاّ يموت على فراش ، وبها يستجيبون لتاريخ « صلاح الدين الأيوبى » الذى جمع لبنات وطين قبره من غبار معاركه مع الصليبيين الغزاة لقد تعلمت مما رأيت ان ارادة الفداء فى أى شَعْبٍ من الشعوب سوف تنتصر على هزيمة السلاح عاجلا كان ذاك أم آجلا .

إن تسألوا عن راتب المجند الدائم تحت إمرة السلاح فهو فى ذلك الوقت فى حدود سبعين ليرة سورية ، وإن تسألوا عن مخصصات القطاعات المختلفة فى سورية آنذاك فهى لاتتعدى ثلاثين فى المائة . ان تسألوا عن الظروف الاقتصادية والنفسية فقد كانت قاسية

قسوة الحديد الصلب ورغم ذلك لم أسمع ـ كما قُلت ـ ولم أقرأ ولم أعلم أن فى سوريا واحدا كتب فى جريدة أو فى كتاب يطلب الخلاص من الفقر بترك الحرب وترك الارض للمعتدين بل لقد قرأتُ مقالا لأحد الاقتصاديين السوريين بعد الحرب مباشرة ناشد فيه قَوْمَهُ أن يضاعفوا من الانتاج لخوض معاركَ وحروب قادمة مع المحتلين قد تبلغ العشرات بل المئات .

عندما وقعتْ حربُ رمضان « تشرين » شاهد الناس فى التليفزيون الأمريكى فظائع القتل فى الجولان ، وعندما عرضتُ على طالب سورى صُوراً فى مجلة التايمز الأمريكية عن القتلى السوريين فى الْجَوْلاَنِ وهم منتشرون على الهضاب بخوذاتهم وسِلاحهم وبجانبهم سياراتهم وقد تَهَشَّمَتْ قلتُ له : إن ذلك ليبدو مُرْعِباً ، والمرعب فيه أنه يتحدى إرادة الذات لكم ، ولكل العرب ، فكان جَوَابُه أنَّ المرعب ألاّ ترى مثل ما رَأيتُ لأن إرادة الموت تخلق إرادة الحياة ، وشتان بين إنسان يريد أن يموت لتحيا أجيال من بعده ، ولتعمر الأرض التى مات عليها بأجيال من بعده ، وبين إنسان يريد أن يحيا ليظل ذليلا تحت مغتصب يريد أن يقضى على الأرض ومن فيها « الحياةُ هنا مؤقتة للإنسان ، وسيّان بين إنسان يموت وهو فى الثلاثين أو الثمانين من عمره واذا مات وهو فى الثلاثين يدافع عن أرضٍ ، ويذود عن عِرْضٍ ، فهو أفضل من ذلك الذى بلغ الثمانين من عمره دون أن يقدم شيئا لعقيدته وقومه .

* * *

أسباب الهزيمة .

فى كل تاريخ وفى كل حقبة منذ عَرَف الانسانُ نَفْسَه ، وعرفَ غَيْرَهُ كانت إرادتهُ بعد إرادة الله تتحكم فى مصيره فهو بلا شك قد يكون سَيِّداً بفعل ذاته ، وقد يكون مَسُوداً بفعل ذاته أيضا . إرادته تقسره على أن يكون هو السيد ، وهى كذلك تقسره على أن يكون المسود . إرادته كذلك تفرض عليه أن يكون هو المُعْطِىَ لغيره ، وهى كذلك تقسره على أن يكون هو السائلَ من غَيرِهْ ، وكذلك يكون الجُنْدىَّ فى المعركة حين يسوق جنداً غيره ليكونوا فى الأسر ، وهو بالمقابل قد يكون المُسوق ، فهو فى المرتبة الأولى يريد الموت مفضّلاً به ثمن الحياة فى الأَسرِ ، وهو فى المرتبة الثانية يَخْشَى الموت مفضلاً حياةَ الذلّ عليه .. إرادة الانسان بعد إرادة الله هى كل شىء يصنع واقع الانسان . والذين فقدوا الإرادة فى أنفسهم ثم عَللوُها بأنهم لن يفعلوا شيئا ، لأنَّ إرادة الله نافذة ، هم الذين يضحكون على أنفسهم ، فإرادة الله القدير تريد من الانسان أن تكون له إرادة : (وقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلكَمْ) وحين رفض الرسول العظيم تَسَوُّل المُتَسّولِ وأعطاه عُدَّةً للعمل كان يرفض إرادة الضعف والهوان . كان يريد من الإنسان إرادة ترفعه من مرتبة الاستجداءِ ، إلى مرتبة الاستغناءِ ، وحين رفض قانون الحرب فى الإسلام رفضا قاطعا الإدْبَارَ فى المعارك . كان يرفض الاستسلام ويدعو إلى الموت فى سبيل الكرامة .. يرفضُ الحياة من اجل العيش الرخيص . العقيدةُ بكل حيويتها وفلسفتها ترفضُ الذُّلَّ بكل صُوَرِه . الحياة بكل أسرارها ونواميسها ترفض الأَحْيَاءَ الأَمْوَاتَ لأَنهم الْبُغَاثُ .. يَحْيَوْنَ ويتكاثرون ويموتون وهم فى كل ذلك سواء ، والحياة تحتضن الأمواتَ الأَحياءَ لأَنَّهُم يَحْيَوْنَ لهدفٍ ، ويموتون من أجل هدفٍ .. من أجل كل ذلك عرفنا من تاريخ الغابرين ، وعرفنا

من تاريخ الحاضرين أنه لا مكان لإنسان دون إرادة . وأعنى بها بالتحديد إرَادَتَهُ فى أن يكون قويًّا حين يكون مُدَافِعاً ، وقَوِيّاً حين يكون مُهَاجِمًا ، ولكنَّ الْقوة ليست كَلَّ ذلك ، فهى من طريق آخر تتمثل فى قوة العمل بكل صُوَرِه .. خُطَّةً وتنفيذاً .. صَمْتاً فى مجالِ الصمت ، وقولا فى مجالِ القول .. أمانةً فى النفس ، وأمانةً أمام الغير .. وللحديث مجال حين يُقال : إن تاريخنا العربىَّ الحديث فى سنواتٍ خَلَتْ لم يَعْرِفْ ذلك أبداً ، فقد كان قولا بلا عمل ، وعملا بلا خُطَّةٍ ، وصَمْتاً فى مجال القول ، وقولا فى مجال الصمت لكل ذلك كانت هزيمةُ حُزَيْرَانَ .. لم أكن شجاعا لأَِ قُوَل ذلك لطالبٍ من فنزويلا ، كان زميلا معى فى مقاعد الدراسة . كان مُعْجَباً بالتاريخ العربي ، وكان يقول : لم أعرف أىَّ تفسيرٍ لهزيمة منكرة لشعب عظِيم مثْلِ شَعْبِكُمْ كتلك التى وقعت فى حُزَيْران .. كنتُ أقول له جوابا غير مُقْنِعٍ لنفسى فضلا عن أنه غير مقنع له ، وكنتُ أعرف الجواب فى الحقيقة ولكن لعلى من أولئك الذين يرفضون اتهام الذات ، وهى مشكلة تربوية نَشَأَتْ معنا جميعا . وفى اليوم الذى سيُقَدَّر لذلك الطالب قراءة قصة مترجمة عن حُروبِ عُظَمَاءِ المسلمين ابتداء بالرسول الأعظم ، إلى صلاح الدين الأيوبّى ، وعن المجتمع الذى عاشوه سيتمكن هذا الطالب من معرفة أسباب الهزيمة فى مجتمعٍ يعيشه عربُ ومسلموُ العصر الحديث .

* * *

ذكرى دير ياسين .

فى كل سنة تمر علينا تمر ذكرى مجزرة دير ياسين التى تمثلت فيها أخلاق العنصر الصهيونىّ المُقيت . ولا نملك فى مناسبات هذه الذكرى غير التَّرحُّمِ وذرفِ الدموع منا ومن آباءِ وأمهاتِ وأبناءِ الشهداءِ الذين رَوَّتْ دماؤهم الغزيرةُ أرضَ دير ياسين .. مذبحةُ دير ياسين أعطتنا حقيقتين أولاهما : نشرُ الرعب لدى عرب فلسطين العزل لِيَفروُّا إلى البلاد العربية المجاورة .. امرأة حملت وسادةً مِنْ على سريرٍ فى بيتها ، معتقدة أن تلك الوسادة طِفْلُها الصغيرُ بينما ذلك البرىء ظل فى البيت المحتل ليكون احد ضحايا الْغَدْرِ ، ثم تتكشف لها الحقائق بعد عبورها الحدود واستقرارها بعد الفزع فى أحد شوارع بلد عربىّ فترى أن ماكانت تحمله هو وسادة محشوة من قطن حملتها وسارت لاهثة جاهدة خوفا من حراب عصابات « حَيْرُوت » الذين قتلوا زوجها فى شارع من شوارع البلدة المنكودة .. إن حالة هذه المرأة ومثيلاتها شَاهِدُ حالٍ على الواقع التَّعِسِ الذى شهدته البلدةُ المسكينة ، فاندفع الآلاف من أنحاء فلسطين حين سمعوا بما حدث إلى الهجرة خارج فلسطين أَمَلاً فى العودة بعد أيام ، وما علموا أنهم سيظلون أعواماً طويلة .. إنهم لو علموا لبقوا ولو ماتوا على تراب فلسطين. ثانيتهما: أن تلك الواقعة تعطينا دلالة على أن روح الشر تتجسم فى كل شىء اسمه « صهيونىٌّ » : (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ) .. إنَّ أمة من الأمم بوحىٍ من أخلاقها وطبائعها الإنسانيةِ وأَخْذِها بالاعتبارات الدَّوْلِيَّة لا تجرؤ مهما كانت قسوتها وعداؤها لعدوها أن تأتى بالشباب مُصَفَّداً وتضع على أعينه الخرق أمام أهليه وترميه بالرصاص بالجملة ، وكأنها تقوم بلعبة أطفال يتسلون بعلم الرماية ، وكذلك لا تستطيع أيةُ أمة أن تَبْقُرَ بطنَ حامل وُتخْرِجَ منه الجنين ، وتقتله برأس

الحراب ، ولا تستطيع أية أمة مهما كان إغراقها فى الوحشية أن تجبر نساءَ الأقليات على البغاء كهدايا للزائرين .. إن ذلك العمل الذى يَنْدّى له جبينُ الإنسان خَجَلاً هو طَبْعُ اليهودِ اللئامِ ، وتلك أعمال مَنَاحم بيجن وحزب « حَيرُوتَ » أناسٌ مرّغت كرامتُهم فى التراب واستباحَتْهُم النازيةُ جزاء أعمالهم فأرادت البقية الباقية منهم أن تنتقم من غيرها لأنَّ ذلك هو طبع اللئام الجبناء .. هذه مَذْبَحَةُ دَيْرِ يَاسِينَ كما وقعت على الطبيعة لا يعرفها إلا نحن العرب ، أما الْعَالَمُ فلا يعرف عن اليهود إلا أنهم أمة تعرضوا لكوارث النازية ويريدون أن يعيشوا على أرض لهم حرروها من العرب والبقاء فيها بسلام .. إن الترحم على شهداء دير ياسين لا يكفى ، والبكاء وسيلة الضعفاء . وشهداء دير ياسين وآباؤهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأبناؤهم لا يريدون إلا بطلا مثل « صَلاَح الدّينِ » فهل تخرج لنا أمٌ مسلمةٌ بطلا مثل صلاح الدين ، ليكون هديتها لشهداء « دير ياسين » و « كَفِرْ قَاسِم » فى مناسبات الذكرى ..

* * *

الرفض في يوم الأرض

لَعَلَّ من المناسب الْقَوْلَ بأن معظم المشكلات العالمية تأتى من الصراع على الأرض ، وليس هو الصراع بين أقوام مختلفين فى قوميتهم أو عقيدتهم فحسبُ ، بل هو صراع بين أصحاب القومية الواحدة بل والبلد الواحد . وهذا الصراع فى شكليه يَنْتجُ من مجموعة عوامِلَ مختلفةٍ ، منها ، أن التصاق الانسان بأرضه ماديًّا منذ تَكَوُّنِهِ يُوجِدُ عنده شعوراً نفسيا بأن هذا الالتصاقَ يعنى التحاما عُضْوِيًّا يستشعره وجوداً يتحتم عليه الدفاع عنه ، ويراه هدفا يناضل من أجله . واذا كانت الغريزة تعنى مَيْلَ الكائن الْحَىّ إلى ممارسة نشاطٍ مًّا ، بدافع إرادىّ ، فان ميل الانسان إلى الالتصاق بأرضه يعتبر غريزة من غرائزه الطبيعية رغم أن ذلك يخالف ما ألفه الناس من تصنيف كلاسيكى لغرائز الانسان ، .

ومن عوامل الصراع على الأرض أن وجود الانسان العقدىَّ والحضارىَّ ينبثق منذ تكونه المادىّ على أرضية الولادة أو النشأة ، وهذا الوجود فى تطوره التلقائىّ مع الانسان ينقلب وجوداً متلازما مع وجوده المادىّ ، فالعراة فى أدغال إفريقية يكافحون بمرارة من أجل الحفاظ على وجودهم الحضارىّ ، ويُصِرُّونَ على البقاء فى عالمهم الخاصّ . والهنود الْحُمْرُ فى « الأمازون » و « الإسكيمو » فى الشّمال يصرون على البقاء حيث يكونون .

وبِغَضّ النظرِ عن نظرتنا إلى الإنسان فى عالمِيَّتِهِ وأممية حضارته وتَلاَحُمِهِ الانسانىّ ثَمَّةَ حقيقةٌ لا ينكرها منكر هى : « ذاتية الانسان » فى أشكالها المتعددة ، يبحث عن الأرض حين يفقدها ، ويَحِنُّ إليها عندما يبتعد عنها . ويحافظ عليها عندما يعيش فيها ، ويدافع عنها حين يغتصبها منه غاصب ، بل ويموت من أجلها حين لا يكون له وسيلة غير الموت .. لقد رحل الانسانُ منذ قديم الزمان يبحث عن الأرض ، فمن السواحل إلى

السهول ، من أجل نبات الأرض ، ومن السهول الى السواحل من أجل كائنات البحر . القرطاجيون رحلوا الى شمال افريقية منذ غابر التاريخ ، والفينيقيون باسمهم الآخر رحلوا من الجزيرة الى سواحل البحر الأبيض .. الانكليز نزحوا من بعض أجزاء أوربية الى حيث يكونون اليوم ، ثم ذهب منهم من ذهب الى الأرض التى اكتشفها « كولمبوس » . الكل يبحث عن لقمة عيش ، كان يصعب عليه الحصول عليها بسهولة ، أو عن حرية كان يفقدها فى ظل طغيان غاشم ، أو يبحث عن مكان لحضارة تكون هى البديلةَ الأخرى سادت ثم تهيأت لِلأُفُولِ ، وسيظل إنسانُ الحاضر وإنسانُ المستقبل ، على نمط الانسان القديم فى بحثه عن مصادِرَ لحياته على الأرض وإن تباينت الوسائل بينهما .

قلت : أمَّا حنينُ الانسان لأرضِه وحُبُّهُ لها فأىُّ شاهد أبلغُ للتدليل على ذلك مما روى من أن محمداً اصلى الله عليه وسلم سأل « أصيلا » لما قدم إليه فى المدينة كيف عهد مكة فأجابه أصيل « بأنه عهدها وقد ابيضت بطحاؤها ، وأخصب جنابها ، وأسلب ثمامها ، وأغدق إذْخرُهَا ، وأمشر سَلَمُها فقال له الرسول : « كفى يا أصيل لا تحزن القلوب » أو كما قال .. وإذا كان حنين الرسول إلى مكة يُجَسّدُ حنيننا وحُبًّا روحيًّا لمكة وَبيْتِها العتيق وأمكنةِ العبادة فيها فانه يجسد حُبَّ الانسان للمكان الذى التصق به منذ كينونته الأولى ، وهل يكون الشاهد فى ذلك أبيات ابن الرومى :

ولى وطـــن آليـــتُ أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غـــيرى له الدَّهْـــرَ مَالِكَا
وحَبَّــبَ أوطـــانَ الرجـــال إلَيْهِمُ ... مَآربُ قَضَّاهـــا الشبـــابُ هنالِكَا
إذا ذَكرُوا أوطانَهُـــمْ ذَكَّرَتْهُمُ ... عُهَـودَ الصبـــا فِيهـــا فَحَنُّـــوا ، لِذٰلِكَا

إن حب الانسان لأرضه هو فى الحقيقة حُبٌّ لذاته .. وهذا الحبُّ فى الأغلب لا يتأثر بِعَوَارِضَ عابرةٍ ، فأرض الإنسان لا تغضبه ولا تجنى عليه ، فهى حبه وأمنيته ، يُغالى فى مدحها ، ويتأثر بذكرها ، ويرغب فى العيش فيها ، وإنْ لاَقَى مَصَاعِبَ أو عَوارِضَ . فهل جسد ذلك ابن عنيين فى قوله :

دمشـــق بِنَـــا شَوْقُ إلَيْـــكِ مُبَرحُ ... وإن لَجَّ واش أو أَلَـــحَّ عذول
بلاد بهـــا الحصبـــاء دُرٌّ وتربها ... عبـــير وأنفـــاس الريـــاح شَمُولُ
تَسَلْسَـــلَ منهـــا مَاؤُهَـــا وهـــو مُطْلَقٌ ... وصَـــحَّ نسيـــمُ الـــروض وهـــو عَلِيلُ

ان ارتباط الانسان بالارض ارتباط دائم لا ينتهى بانتهاء وجوده المادىّ بل يمتد هذا

الرباط إلى فترة البعث الأخروي فى أذهان المؤمنين بهذا البعث ، وهى فى أذهان الآخرين تمتد إلى فترة أخرى مادية تتجسد إمَّا فى بعث الانسان على صورة أخرى رغم موته كالمؤمنين بتناسخ الأرواح أو فى نهايته الأبدية وفى كلتا الحالتين نلمس بوضوح إصرارَ الإنسانِ على اختلاف تفكيره على الالتصاق بأرضه حيًّا وميتا .

فَذَا العرش لا تجعل ببغداد ميتتى   ولكن بِنَجْدٍ حبذا بلداً نَجْدُ

ومن نوحِ بنِ جرير صاحب هذا البيت إلى شاعر آخر يُوصِى رفيقيه بألاّ يَدْفنَاهُ فى مكان اقامته فى « حمص » بل فى أرضه أو يبلغاها سلامه إذا لم يستطيعا تنفيذ وصيته :

خَلِيلَىَّ إن حانت بِحِمْصَ مَنِيَّتِى   فلا تدفنانى وارفعانى إلى نجدِ
ومُرًّا على أهل الجناب بأعظمى   وإن لم يكن أهلُ الجناب على القصدِ
وإن أنتما لم ترفعانى فَسَلِّما   على « صَارَةٍ » فالْغَورِ فَالأَبْلَقِ الْفَرْدِ

أو كما يصور الحنين شاعِرُ بنى حنيفة وهو فى غربته فى العراق :

ألاَهَلْ إلى شَمِّ الْخُزامَى ونظرةٍ   إلى « قَرْقَرى » قبل الممات سبيلُ ؟
وأشْرَبُ من مَاءِ الْحُجَيْلاَءِ شَرْبَةً   يُدَاوَى بها قبل المماتِ عليلُ ؟

وقد لا يستطيع الإنسانُ العودةَ إلى أرضه فيحنُّ لا إليها فحسبْ بل وإلى كل الأشياء المادية فيها :

ألاَ لَيتَ شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً   بِوَادٍ وحَوْلِى إذْخِرٌ وجَلِيلُ ؟
وهل أرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مجنَّةٍ ؟   وهل تَبْدُوَنْ لى شَامَةٌ وطَفِيلُ ؟

وإذا كان ذلك هو إنْسان الماضى فما تَغَيَّرَ فى إنسانِ الحاضر إلا الوسائلُ فهو لن يتمنى اليوم أن يدفن فى أرضه متى أجبرته ظروفٌ على النزوح منها ، بل سيرصد المال من أجلِ تنفيذ وصيته فى دفنه فى أرضه ، فأوصياء « جيتى » المليونىّ الأمريكىّ جاهدوا من اجل دفن موصيهم فى ولايته « كاليفورنيا » فى مكان خاص ، برغم أن قوانين الولاية تمنع الدفن فى مكان كهذا ، وكان بامكانهم أن يدفنوه فى مكان خاص فى إحدى الولايات دون انتظار وقتٍ من أجل التغلب على القوانين ، ولكن المشكلة هى أن المليونىَّ وأوصياءه يريدون أن يُدْفَنَ فى مكان ولايته .. إنسانُ اليومِ لن يتذكر آثار أرضه بقصيدة أو لَوْحِ رسم بل سيرحل إليها متى ما غالبه الحنين .. ولقد عرفت أستاذاً أمريكيًّا عاش فى أمريكا أكثر من ثلاثين سنة وفى كل عام يرحل إلى قريته الصغيرة فى ألمانية وإذا حدثك عن

أمريكة وكبريائها فلا يلبث أن يحدثك عن قريته الصغيرة وجمالها وهدوئها ومناظرها ، وكيف أنجبت عباقرةً خدموا البشرية فى حضارتها الحديثة ، وعلى شاكلة هذا الأستاذ كثير وكثير ولو استطردنا فى ذكر الشواهد لطالت بنا المقدمة ولَكَرِهَ القارىء هذا الحديثَ كما كان أبو الفرج ابنُ النديم يكره المقدمات ويرتاح للنتائج .

وفكر ثوار عرب فلسطين أن يكون لارضهم حنين وذكرى تعبر عن كل معانى الرفض لوجود المعتدين وتكونت جماعة محاربة تسكن أرض فلسطين سمت نفسها « جماعة الأرض » وانفعالاً بتلك الذكرى وبالهدف الذى تسعى إليه أُلْقِيَتْ فى البلاد العربية الخطبُ والمواعظُ فى المنتديات وفى الجوامع وفى الساحات . وفى الذكرى تحدث عرب فلسطين إلى بعضهم فللجيل الذى أُخْرِجَ من أرضه عام ١٩٤٨ حديثٌ عن بساتين البرتقال فى يافا .. عن جبال الجليل الخضراء .. عن حيفا وعكا والناصرة واللد والرملة . وللجيل الذى أُخْرِجَ من أرضه عام ١٩٦٧ حديثٌ عن القدس الوادعة وأقصاها وبواباتها التاريخية ، وعن الخليل المحافظة والبيرة ورام الله . وللأشبال أحاديثُ عن قسوة اليهود وطغيانهم وكبريائهم وما يعلقه الآباءُ والأمهات على الشباب الثائر والرافض ، من آمال ، وفى البلاد العربية أحاديثُ شتى عن يوم الأرض،فالمتدينون لهم خطاب عن المسجدِ الأقصى ومسرى الرسول (ﷺ) ومعراجِه ومسجدِ عُمر ومقابرِ الأنبياء وحَرَمِ الخليل . وللمسيحيين خطاب عن بيت لحم وكنيسةِ القيامة والمهدِ ومريمَ العذراءِ وطريقِ الآلام . وللشباب خطابٌ عن عنصريةِ الصهيونيةِ وعن الكرامة العربيةِ المُهَانَةِ .. وهكذا . وإذا كانت أحاديثُ ذكرى الأرض أخَذَتْ مجرياتٍ متشعبة فان الهدف واحد ، والغاية منها تذكير فَرْدِنَا بأن أرض فلسطين عربيةٌ وأنها مغصوبةٌ بقوة السلاح ، وبالتالى استمرار صلة فردنا فكريًّا وروحيًّا بالأرض المغصوبة .

وفى ذكرى الأرض أَلْقَتْ بنا عصا الترحال فى مصيف « الزبداني » فى سورية العربية وأَصَخْنَا إلى خطيبِ الجمعة .. إنه شيخ وقور ترتسم على وجهه علاماتُ الخُلقِ والاستقامة . تَحَدَّثَ طويلا عن أرض فلسطين .. كيف حدثت المأساةُ .. أسبابُها وخلفياتها ، ثم تحدث عن ظلم العالم لعرب فلسطين ، وحث سامعيه على مُسَاعَدَتِهِمْ بالقوة للعودة الى أرضهم أرض الأنبياء أرض التاريخ ، ثم القت بنا عصا الترحال مرة أخرى لنصغي إلى خطبة الجمعة عن يوم الأرض فى مسجد « أبى حنيفة النعمانِ » فى بغداد .

المسجد كَعَظَمة أبى حنيفة يتسع لآلاف المصلين ، ويقع فى حيّ من أجمل أحياءِ مدينةِ الرشيد .. خطيبُ الجمعة يتكىءُ على سَيْفٍ يمثل القوة كشاهد حال وبدون مقدمات أو شواهد قال الخطيب : إنَّ يوم الأرض هو مناسبة نظرية فان كانت تمثل شيئا فهو تذكير لا يتعدى انفعال النفس بُرْهَةً من زمن ، ثم لا يلبث هذا الانفعال أن يهدأ فى غمرة مشكلات الحياة فما هو البديل فى نظره ؟ البديل هو السلاح والهجوم على المعتدين ، كما كان يفعل الرُوَّادُ الأوائل من قومنا .. الأرض المغصوبةُ (والحديث هنا للخطيب) لا تحتاج إلى تذكير ، ولا إلى أحاديثَ . الأرضُ المغصوبة لا تردها خِطَابَةٌ ولا صِحَافَةٌ بل يردها سلاحُ القوة وقوة السلاح ، وتلكم تحتاج إلى تضحيات . ثم إن عطف الناس لا ينفعنا بشيء .. وكَوْنَ الحق فى جانبنا لا يَعْنِى عودةَ هذا الحق بدون جهاد ، وهل يَسْلَمُ الشرف الرفيع من الأَذَى ما لم يُرَقْ فى جوانبه الدَّمُ ؟؟؟

هل كان خطيب الجمعة يتفق مع الشاعر العراقي كَاظِمِ الدُّجَيْلِيّ حين قال :

يقولــون : إن الحــق من فوقِ قوة   ومــا الحــقُّ إلا مدفــع وحُسامُ

إن ذِكْرىَ الأرض تمثل عدة معانٍ ، إبقاء فَرْدِنَا خارج الأرض ، على صلة وثيقة بالقضية من حيثُ انفعالاتُهُ وتصوراتُهُ وأفكارُهُ ، ومن هذه المعانى إذا كان روح الرفض لدى الفرد داخل الارض وذلك من أجل خلخلة أيّ استقرار يريده المعتدى . واذا كان الهدف هو الرفض فأيُّ شكل يكون عليه وما هى مقوماته وروافده وتطلعاته ؟ إنه الرفض المادىّ للاحتلال فى كل صوره أى دفع الاعتداءِ بالقوة . وهل تأتى القوة الا من فضائل تحمل راية الموت ؟ وإذا كان الجواب : بِنَعَمْ فما هى مقوماتُ هذه الفضائل ؟ .. واجباتُها ؟ . منطلقاتُها ؟ أو ما هى مقوماتُ الرفض ؟

إنَّ مُقوِّماتِ فضائلِ القوة تتمثل فى التنظيم والانضباط ، وفى تحديد الهدف ، كما تتمثل فى الانطلاق من أسس واضحة تلتزم بمنهاج وترتبط بسلوك ، وتنبثق من عقيدة وهدف . لقد ضحكنا على أنفسنا طويلا ، وضحك علينا العالم كثيراً ، قلنا للغير : إنَّ لدينا مُشْكِلاَتٍ ذاتيةً داخليةً وخارجية وسوف نَبدَأ بحل المشكلاتِ هذه قبل أن نبدأ بالرفض المادى للمعتدين ، وقيل لفردنا : إن الرفض لوجود المعتدين يتطلب أولا رفض بعض مفاهيمنا السابقة .. وتَقَبُّلَ فَرْدِنَا هذا المنطقَ، وهو كما يبدو فى ظاهرة بَرَّاقٌ ، وتبعا لذلك رفعنا راية الرفض فى نظرية محضة وتَخَلِّينا عن الرفض فى راية عَمَلِيَّةٍ جادة ، لماذا ؟ إنه لكى نحقق فلسفتنا فى التغيير ، ولَشَدَّ ما كانت فَرْحَةُ المعتدى كبيرةً لسلوكنا هذا الخطَّ

أو لقبولنا للسير فيه إذا كان قد وضعه لنا بشكل غير مباشر .. إن فرحة المعتدى جاءت من فرصته فى الحصول على نَفَسٍ طويلٍ لِيَبْنِيَ خلاله بصمت الذكاء وبتخطيطِ الْعلم وبدهاءِ السياسة . وكانت تجربتُنا مع ذاتنا صاخبة ومُتَرَجِحة قلنا أكثر مما فعلنا ، وفعلنا رغم إرادتنا .. صَمَتْنَا فى مجال الكلام ، وَتحدثنا فى مجالِ السكوت .

وتطورت الأمورُ فى بَجْرى لا أظن القارىء فى حاجة إلى تذكير به ، ووقعت الواقعة : واقعة أرض مغصوبة تُضَمُّ إلى أرضٍ مغصوبة ، وواقعة لاجئين ، وواقعةُ فَشَلٍ ذريع أمام الْعَالَمِ ، ثم واقعة المشكلات التى مازال فَرْدنا يعيشها فى حياته اليومية .

فى ذِكْرَى الأرضِ يُعْلِنُ فردُنا الرفض لوجود المعتدين،والرفضُ له مقوماتٌ ومُقَوماتُه وجود الفرد المناضل ، ثم التزام هذا المناضل بمسار صحيح لرفضه . إنَّ يوم الرفض يحتاج إلى تحديد مسار ، وهذا التحديد يكمن فى التخطيط الواعى ، وفى حمل البندقية على حدود الأرض أى فى اختفاء الرافض أو الثائر ، عن أعين المارة ، وعن شوارع الازدحام ، وعن متاهات السياسة . الرافضُ يجب أن يَتَلثم ويتعاملَ مع الارض ومع المعتدين على الأرض .

وان تحدثنا عن حرب فيتنام وكمبوديا فمن الاستدلال بالوسيلة فقط ، ففى تلك الحرب كانت هناك عجائبُ أَهَمُّهَا التخطيطُ والالتزامُ . وقد قرأتُ فى صحيفة « واشنطن بوست » مقابلة مع أسير من « الفايتكونغ » قال لسائله : إنه لا يعرف عن فيتنام الا القتال ، ولا يُهِمُّهُ سواه ، لا يعرف السياسة ، ولا عن العالم كثيراً ولكنه يعرف التنظيم والتدريب الذى يتعرض له . إن أحداً لم يكن يعرف عن تنظيات الفايتكونغ ، ولا عن تنظيات « الخمير روج » فى كمبودية وإن كان العالم يعرف عن القتال والمشكلات فى ذينك البلدين ، ولكنه عرف أخيراً الشيء الكثير حين أعلنت أمريكة تخلّيها عن الحرب فى فيتنام وحين تَرَكَ « لون نول » رئيس كمبودية بِلادَه .

الرافضُ للمعتدين يرفض بالتالى منطقَ الضجيج ، وعبادة الشخصية ، ومستنقعات الأفكار ومتاهات السياسة . الرافضُ أو الثائرُ يلتزم بقاعدة النضال ويؤمن بالهدف ، ويناضلُ من أجل العقيدة والحضارة .. يَطّلُب الموت ويعرف انه سيموت . يستلهم أفكار الرُّوَّادِ فى تاريخنا . يلتزم بالسلوكِ الفنىّ والموضوعى لحمل السلاح .. يؤمن بِنَيْلِ الغاية وغاية الهدف .

إنَّ أعظم شيء تَحَقَّقَ طيلة السنوات العجاف فى تاريخ الأرض المغصوبة هو ثورةُ

أصحاب الأرض . إنها المسارُ الصحيحُ للحنينِ والعودةِ إلى الأرض . ولا مِراءَ فى أن تحرير الأرض من المعتدين ، يرتكز كليًّةً على وجودِ واستمرارِ ثورةٍ كهذه وليس بغريب ما حدث فى الأمس أو اليوم ، وما سيحدث فى المستقبل من تعرض هذه الثورة لعقباتٍ وهى فى طريقها الى تحرير الأرض .

فأمر كهذا يُعتبر طبيعيًّا ومنطقيًّا : ولكن من المهم جِدًّا ان يَعْرِفَ ثوارُ الأرض كيف يتعاملون مع واقع كهذا ، ثم من المُهِم جِدًّا أن يعرف هؤلاء كيف يمكن الالتزامُ بمسارٍ بَيِنٍّ ، وواضحٍ ، يَرْفُضُ كُلَّ انحراف فى داخل الهياكل التنظيمية للثوار .. إن الخوفَ كل الخوف على ثوار الأرض ان يعودوا دون ان يشعروا أو يرغبوا ، الى المِلاكاتِ القديمة ، مِلاكاتِ « الضجيج » .. والشعوذة الفكرية ، والسياسية التى رفعت راية التحرير فى نظرية محضة . حينئذ سوف نخاف من أن تنطفىء شمعةٌ لاَقَتْ ولاقى العرب ـ كُلُّ العرب ـ عناءً قبل أن تضىء ، فهل يعرف إخوانُنا ثوارُ الأرض كيف تستمر هذه الشمعةُ لتضىء للأجيال الحاضرة والقادمة ، طَرِيقَ التحرير ؟ أجزم قاطعا بأنهم يعرفون .

* * *

الوسائل والنتائج في معركة الأرض .

لا توجد النتائج ما لم يكن لها وسائل تُؤَدِّي إلى وجودها . وبقدر ما تكون هذه الوسائل تكون نتائجُها خيراً أو شرّاً .. وعلى هذا يترتب القول بأن النتائج لا تحتاج إلى كثير من ذكاءٍ ، بعكس ما تحتاجه الوسائل المؤدية لها . والناس في ذلك أضدادٌ متفاوتون ، فمنهم من يبحث عن النتائج مُغَامِراً مجازِفاً بالوسائل المُوجِدَةِ لها ، ومنهم من تكون مغامرتُه أقلَّ من ذلك ، ومنهم من لا يغامر أبداً ما لم تكن الأسباب موزونةً لديه . وليس من الغريب أن يتفاوت هؤلاءِ المتضادون فيما يتوقعونه ، ولَكِنَّ الأغربَ أن يكون المنطق المعكوس للمغامرِ المجازفِ هو الإيجَابِيَّ ، في بعض الأحيان ، وأن يكون المنطق العاقل من الضد بمكانٍ ... أي إنَّ المجازفة بوسائل معكوسة قد تُؤَدِي إلى خَلْقِ نتائجَ باهرةٍ لكثير من الناس سواء في ذلك حياتُهم المنفردة أم العامة . وبالمقابل يكون وزنُ النتائج وتقدير أسبابها كارثةً على البعض الآخر ، لماذا ؟ هناك من يعلل ذلك بِعِلَلٍ مختلفة ، منها ما يلائم المنطق ، ومنها ما يجافيه ، وفي ظني أن المنطقَ بالنسبة لبعض الصُّوَرِ كما يَتَخَيَّلُها الإنسانُ ، غير مُوجود عملا ، فما يمكن أن نتوقعه بأن يكون تصرفا سليما موزونا يمكن أن يكون عكسَ ذلك ، فالمنطقيُّ في نظرنا قد يكون غير منطِقِّي في ذاته ، وهكذا يمكن الاستطراد .. وللتدليل على ضعف المنطق المُتَخَيَّلِ نأخذ طائفتين من الناس هما : علماءُ التنبؤ بأحوال الجو ، وفلاسفةُ الاقتصاد . الأُوَّلُ يبنون معلوماتهم على أساس من تصورٍ منطقيٍّ لأحْوَالِ الجو ، بل على أساس علميٍّ تَدْعَمُهُ أدلة مركزة ، ويَبْنِي على هذه الأدلة والظواهر أسباباً لنتائج تعكس كثيراً من الأمور الخطيرة ذات العلاقة بالإنسان في

حضارته ، ثم لا يلبث هذا التصور العلميُّ أن يتحول إلى أسطورة أو ما يشبهها ، وتنقلب المقاييس رأسا على عقب ، وبالتالى ينهدم كلُّ ما بنـى على تلك التصورات . ولعلك لا تعدم الذين يغضبون بقوة من رجال التنبؤ بالجو إذا ظهرت المفارقةُ بين ما يقوله هؤلاءِ ، وبين الواقع . وأكثر الناس حَسَّاسِيَّةً من هؤلاء هم أولئك الذين يعيشون في أماكن معرضةٍ للأمطار والرياح . وفلاسفة الاقتصاد أكثر من أصيب بالصدمات من جراء المفارقات بين ما يعتقدونه تَصَوُّراً منطقياً ، وبين ما يظهر من بطلانٍ عَمَلِيٍّ لذلك التصور ، فقد خرج إلى الوجود نظراتُ اقتصاديةٌ تصورت أن حل مشكلة الإنسان ، في دخله اليومـيِّ ، أو في علاقته الاجتماعية مع الدولة أو مع الآخرين يكمن فيها . وتسود تلك النظريات وقتا من الزمن على أساس الملامح المنطقية فيها ثم تزول . وهكذا دواليك من قرون خلت إلى عصر حضارتنا هذه . ولاشك أن لكل نظرية أساساً من منطق ، وتصور من عقل ، يبدو في حينٍ من الزمن ولعددٍ من الأقوام ، ولكنه يندثر في زمان آخر ، ولا يُقْبَلُ لدى أقوام آخرين .. وإذا تخطينا فلسفة النظريات الاقتصادية ، سواء منها ما ساد ومات ، أم ما كان سائدا إلى يومنا هذا .. إلى التكهنات الاقتصادية ، الحديثة ، نجد أنها وإن استندت إلى مقاييسَ علمية وعقلية ، معرضَةٌ إلى البطلان لسبب واحد ، هو التخيل والاستنتاج مما يحتمل معه الصحة والفساد .. ومرةً قرأنا تحليلا لاقتصاديات دولة أوروبية بما يشبه الجزم بأن تلك الدولة سوف تنهار في لحظة من اللحظات الآتية ومـرت شهـور بل سنـوات وما زالت الدولة تمارس حياتها الاقتصادية دون انهيار ... والشعوب في استعمالها لوسائل النتائج تبدو على أنماط مختلفة منها الهادىء في تصرفه المُدْرِك لتقديره ، فتأتي له النتائج محققةً لهدفه .. ومن هذه الشعوب من لا يعرف للنتائج أسبابا فتأتي هذه النتائج كيفما شاءت .. قد تكون وفق هواه ، وقد تكون ضده . وغالبا إن معظم الشعوب تعمل على إيجاد أسبابٍ للنتائج ولكنها تختلف في كيفية القيام بهذه الأسباب . وللواقع الحضاريِّ لكل شعب تأثيرهُ في ذلك . البريطانيُّ كفردٍ ، وما يقال عن الفرد يقال عن الجماعة ، يتظاهر بهدوء المزاج كما يُقال ، والإيرلنديُّ حادُّ المزاج بطبعه .. الأمريكيُّ في القارة الشّمالية يختلف عن الأمريكي فى القارَّةِ الجَنوبية .. الأول يحاول أن يعكس في تصرفاته ما أوصى به بعض قادته له في أن يحمل العصا الغليظة أولا ، ثم يتكلم بصوت ناعم ثانيا ، والثاني حَادُّ المزاج ، إذا حدثك فاستمع له بمثل سرعة حديثه ، وقد يوحي اليك ، إذا كنت قريبا من

سَحْنَتِهِ ، أنه قريب لك تماما في أفكاره وانفعالاته . وبعض الشعوب عندهـا قدرةٌ على التكيف في استعمال الوسائل ، فيخاطب كُلَّ قومٍ بما يعرفون ، وعلى قدر ما يفهمون ، ومرة سمعتُ يونانياً يخاطب آخر من قومه بلغـة حادة وسريعـة خِلْتُهـا طبعيـةً بالنسبـة لهما كَيُونَانِيِّينْ ، وفي نفس اللحظة تكلم مع امرىء من غير قومه عن ذات الموضوع ، وهو الديموقراطية في اليونان ، بِلُغَةٍ تختلف تماما في نبراتها وانفعالاتها ، فسألته : لماذا حديثك تغير في أسلوبه ؟ فقال : إن من حَدَّثْتُهُ أخيراً يختلف عن الأول في مزاجه وقبوله فلو كان حديثي واحداً لما استطعتُ إقناع مُحَدِّثِي الأخيرِ بل قد يكون ضد رأيي في النهاية .. وخلاصة ما نقول في هذه التوطئة أن الوسائل اذا وُزِنَتْ وفْقَ مَقاييسَ منطقيةٍ صحيحةٍ فان النتائج في الأغلب والأعم تكون سليمة مع تَخَطِّي الشواذِّ ، وعلى الضد من ذلك إذا كانت هذه الوسائلُ غيرَ موزونةٍ ولا عاقلةٍ فانها مدعاة لفساد النتائج بِغَضِّ النظر مرة أخرى عن شَوَاذَّ ونَوَادِرَ لا قيمة لها في قواعد المنطق والقياس .

ومحلُّ الاهتمام في حديثنا عن الكيفية التي يستخدمُ بها العربيُّ الوسائِلَ للوصول إلى النتائج .. وما حسبتُ الإجابة على هذا السؤال إلا صعبةً مثل صعوبة السؤال نفسه ، وتكون الإجابةُ أكثر صعوبة إذا كان يُرادُ بالسؤال ، الشمولُ لكل النتائج والأسباب . ويمكن قصرُ الإجابة على ما يتعلق بالفكر وكيفيةِ توجيهِه ، ويشملُ ذلك الإعلام في كافة صوره . ويسوغ القول بأن هذا الاستعمال يتم بواسطة استعمال غيرِ مسؤولٍ ، أو باستعمال مُغْرِضٍ .. الأول يتمثل فيه عفويةُ الوسيلةِ فتأتي النتائج كيفما شاءت ، والفئة التي تقوم على هذا الاستعمال قد لا تكون جاهلة في اختيار الوسائل المُنَاسِبَةِ ، ولكن علّتها تكمن في افتقاد الالتزام بالمبادىء التي يمكن أن تُؤَدِّيَ إلى نتائـج مُؤَثِّـرَةٍ بالنسبـة للغايـة التـي تتواخاها .. إنها تُؤَدِّي عملا تلقائيا ومستديما ولكنه عمل ماديٌّ بَحْتٌ لا تلتفت بعده إلى ما سَيُؤدِّي إليه من نتائج .. مَثَلُها في ذلك مَثَلُ من يحمل مطرقة من حديد يضرب بها على صفحة معدنية في دقات متفرقة دون أن يعرف ما هو الهدف من هذا الضرب .. ففي مجال التربية مثلا قد يكون الطالب ملتزما بدراسة موادَّ رياضيةٍ معينةٍ يُؤَدِّي فيها في النتيجة امتحانا نهائيّاً ويتجلى عدمُ الالتزام حين يَنْكَبُّ هذا الطالب على دراسة هذه المواد للحصول على شهادة دراسية وحين يَنْصَبُّ ذهنُ المدرس على أداءِ برنامجه أداءً ماديّاً بَحْتاً ، وليس في ذهن الاثنين أن لدراسة هذه المواد غايةً تتمثل في التزام روحِي يهدف إلى الوصول إلى

الغاية الحقيقية من دراسة هذه المواد .. وفي مجال الفكر والدعوة مازلنا نلمس النتائج السيئة إذا نظرنا إلى المَجَالَيْنِ اللذين طبق فيهما ، ففي الداخل نعود القهقرى وفي عَجَلَةٍ عاجلة إلى أسلوب الفكر العربيّ الحديث . فَقَبل سنواتِ التحرر والانعتاق من الأجنبيِّ كانت الدعوةُ محصورةً في محاربة الأجنبيّ وركائزه .. وأيّاً كان القولُ حول ضعف ذلك الفكر فان من الإنصاف القولَ بأن طائفة من المفكرين العرب عملت في نزاهة وشرف وفي نطاقٍ واحدٍ ثابتٍ .. وقد يكون الأساس في ذلك أن العامة من الناس في بلادنا لم تكن مُتَهَيِّئَةً لِتَقَبُّل أيّ دَعَاوَى أخرى سوى طرد الأجنبى أولا ، مما هيأ الثبات لذلك الفكر ، وقد يكون الافتراض الآخر أن رجال الفكر أَنْفُسَهُمْ عرفوا أنه ليس ثمة أقدسُ من دعوةٍ للخلاص من دخيل غاصبٍ ، وأنَّ ما عدا ذلك قد يأتي تباعا ..

* * *

وبعد الاستقلال تشعب هذا الفكر يمنةً ويسرةً وامتزج بمفاهيم كثيرة حتى صار لا يمثل اتجاها وَاحِداً ، بل إن الاتجاه الواحد منه كان ينقسم على نفسه في عدة اتجاهات ثم غرق هذا الفكر في نظرية « الصوت الخشن » والاقناعِ بالقوة مع تموج الفكرة المطروحة . كان هناك محاولةٌ للوصول إلى نتائج معينة يتوقعها الذين كانوا يخططون لها ، وأغلب الظن إن لم نَقُلْ بالجزم ، أنَّ وزن الوسائل كان مُسْتَبْعَداً لاسباب منها : أن ذلك ربما يَنْهى عن انتهاج الفكرة أصلا ، ومنها : أنَّ المغامرة بهذه الوسائل ربما تكون أكثر إسراعا في تحقيق نَتائِجَ لا يحسن أن يُنتظرَ لها وقت طويل .. ولقد كان رَدُّ الفعل بالنسبة للفرد مُتَبَايِناً ، وَفْقاً لفئته ، فكانت فئة قليلة تدرك ما تنطوي عليه تلك المغامرة من مَخَاطِر ، لها آثارها الخطيرةُ على الكيان العام سياسياً وعسكرياً واقتصاديّاً ، ولكن هذه الفئة لا تستطيع الرفض والمواجهة إما لكونها قلةً لا تستطيع التأثير في الكثرة ، أو لأنها محفوفةٌ برهبةِ المنفذين للفكرة .

أما الأغلبية الغالبة فكانت واقعة كلية تحت تأثير دَعَاوَى ومعاناةٍ نفسيةٍ حادةٍ ، وعلى نمطِ الأغلبيةِ كانت هذه الفئاتُ عفويّةً وتلقائيةً تستوعب كل شيء .. كانت صورُ الفكر تتقلب واحدة بعد الأخرى ، فمرة كانت تبدو هَادِئَةً لامعةً بَرَّاقَةً بعكس مظهرها الخارجيِّ وما يهفو الانسان اليه ، فبذلك تجتذبه في هدوءٍ وأنَاةٍ فينجذب إليها طائعا مختارا .. ومرة تكون هذه الصورةُ عنيفة المظهر قاسية المخبر تنتزع إعجابه رغم عدم حريته في الاختيار ، فينجذب إليها مُكْرَهاً في الحقيقة ، وإن كان يتظاهر بأنه مختار لها .

قُلْتُ : وكانت الصورة الواحدة تتلون فى ذهن الفردِ العادي تلقائيًا ولمرات عديدة . وتَلَوُّنُ الصورة وتقلباتُها المتناقضةُ تؤدى إلى تلجلج العقل واختلال الوزن ، وبالتالى الى فقدان الرؤية الحقيقية للأشياء ، وقد نتج عن ذلك أن الفرد فى عَالَمِنَا العربىّ صار لا يهتم بذكر الحقيقة ، فالكلمة هى الحقيقةُ وإن كانت كَذِباً ، واللفظُ المعسول هو البديلُ عن الوصول إلى الغاية بوسائلها العلمية الصحيحة .. بات لا يهتم بتعليل القاعدة وفلسفتها وإن كان يرى بالعين المجردة ، وبالعقل البسيط بُطْلاَنَ هذه القاعدة وفَسَادَها من الأساس ، وإذا حدث أن علل وفلسف فان المنطق معكوس والدليل ضعيف . ومرة كنا نتحدث فى أعقاب هزيمة حزيران عن سوء التوجيه الدّعَاوِىّ آنذاك ، وكيف أنه أعطى العدو فرصةً فى ضرب القواتِ المتحركة ، فقام أحدهم يُدَافِعُ عما حدث برغم أن القوات المعادية آنذاك مازالت تضرب بقايا الجيوب العربية المستميتة .. قَالَ : أَلاَ تعرف أن خالد بن الوليد كان يمرر الجند مرات عديدة حتى يقذف الرعب فى قلوب الأعداء ؟ ألا تعتقد أن ما حدث فى حربنا هذه من ذكر للجيوش المتحركة للنجدة كان لِمِثْلِ الْهَدَفِ الذى هدف إليه خالد ؟ قلت : ألا ترى أن ذلك قياس يختلف أصلا مع المقيس عليه ؟ فخالد حين فعل ذلك كان واثقا بأن فعله سَيُؤَدّى نتائِجَه الايجابية بالكامل ، هذا إذا اسْتَبْعَدْنا تَبَايُنَ الظروف والوسائل ، أما ما فعلناه فكان ولابد يؤدي الى نتيجتين : إيجابيـةٍ وسلبيـةٍ ، أولاهما : رفـع معنوية المجاهد حين يعرف أن ثمة من جاء ليساعده فى القتال فيقوى عزمه ويشتد بأسه. ثانيتهما إعطاء العدو فرصتين إمَّا التوجهُ الى مكان القوات المتحركة وضربها بسهولة لأنها فى حال انتقال وتحرك وليس فى حال مجابهة وحرب أو الاستعدادُ لهذه القوات بزيادة قواته والتركيز على مواقع القوة أينما وُجِدَتْ.. والمقارنةُ بين أىّ من هذه الوسائل يعتبر اقل خطرا وأكثر نفعا هو فى الموازنة بين النتائج ، فدرء الضرر أولى من جلب المنفعة . فالجندىُّ المحارب وإن كان يحتاج إلى تقوية عزمٍ واشتدادِ بأسٍ فان ذلك لا يتمثل كلية فى إعلامه بوصـول النَّجَدَاتِ إليه فهو أصلا فى المعركة ، وأمامه خياران إمَّا الاستمرارُ فى القتال لتحقيق النصر او الاستسلامُ .. وضربُ القوات قبل وصولها الى الهدف لايُقاس بمنفعةِ تقوية عزمِ الجنودِ الآخرين ، بل إن انهيارَ معنوياتِهم سيكون عنيفا اذا علموا بما حدث لغيرهم ممن جاء لِيُنْجِدَهُمْ .. وما دمنا عند ذكر حرب حزيران فَأَذْكر للقارىء ، أن إحدى الصحف العربية فى بيروت ، وكانت تمثل اتجاها فكريا معينا ، قد نشرت ملحقا بعد الحرب بيومين أو ثلاثة

مُزَيَّناً بالصور ، وحوى فى نفس الوقت إحصائِيَّةً عن السلاح العربى فى الدول التى دخلت المعركة ، والسلاح اليهودى ، وخرجت بنتيجة مُفَادهَا أن السلاح العربى اكثر وأكثر ، وقرأتها لعدة ساعات أتعمق فى الحروف وأحفر الكلمات ، أتفحص الاتجاه وأستنتج النتيجة متلهفا إلى ذكر الحقيقة عن الهزيمة ، ولكن هذه الصحيفة لم تقل شيئا برغم ما سُطِّر فى ذلك الملحق من دَعَاوَى ، وقلت لصاحبى : ألا تعتقد أن ذلك خطأ فادحٌ فى حق العقل العربى ؟ قال : أتريد منا أن نُعَرّىَ ما كنا نؤمن به من فكر ؟ أتريد ان ننقد ذاتنا ونهدم ما بنينا خلال سنوات طويلة ؟ .. أتريد منا مثالية الأنبياءِ وإنسانيةَ المصلحين ؟

ولم أحر جوابا لما قال ، ثم خَرَجَتْ مجلةٌ أخرى قائلة : إنها تَخْرُجُ إلى القارىء العربى فى لباس التوبة بعد سنين من الزيغ الفكرىّ والتلجلج الدّعَاوِىّ ، نقدت ذاتَها ، ونقدت الذين كانوا يوجهونها ، وشجبت الوسيلة التى كانت تلتزم بها ، بل تبرأت من كل كلمة قالتها .. ومع ذلك كانت دقيقة فى ذلك وفى مَسٍّ خفيفٍ خوفا من هياج العامة عليها ، وخوفا من فقدان رصيدها فى ذلك المُنَاخِ ، وقلت لمحدثى مرة أخرى : ما رأيكم فيما قالت مجلتكم ؟ قال : أنا أعتبر ذلك رِدَّةً وخروجاً عن خطَّة الفكر التى سرنا عليها . قلت له : مهما تكن الأسباب والعلل لما حدث فإن التاريخ فى مستقبله قد يكشف أن تلك الهزيمة لم تكن عسكرية .. لم تكن سياسية .. لم تكن .. لم تكن .. لقد كانت هزيمةَ فِكْرٍ قبل كل شىء .. كان الفكر السائدُ قبلها فى عددٍ من الأقطار العربية انحساراً عن الفكر الحقيقى . كان سالبا للعقلية الحرة . كان امتهانا لكل مفاهيم التفكير المُتَعَارَفِ عليها ، وكان قبل كل شىء امتهانا للمنهاج الروحىّ والخلقى . الذى سنته موروثاتُ فَرْدِنَا عَبْرَ أجيال التاريخ .. حَقًّا لا أحد منا ينفى أن تلك الحرب كانت منظمة من قوى متحالفةٍ ولكنها ما كانت لتكون لو كان الفكرُ العربىُّ سلمياً فى وسائله .. صحيحاً فى داخله .. متماسكاً فى أهدافه .. متوحّداً فى غاياته .. حرًّا فى نطاقه .. مُلْتَزِماً بموروثاتِهِ .. خلقيا فى جميع صوره وأشكاله .. فالغزو هو الغزو فى كل زمان ومكان ، مع فرق بسيط جدا يفرضه تغير الزمن والفكر هو القوة الكامنة فى الخلايا المختلفة من الكيان والجسم ، الذى يدفع الغزو ، ليس الا قوةً ماديةً تتحرك وَفْقاً لتوجيه قوة الروح ، أىْ إن انطلاقة المحارب إلى الموت تتنازعها قوتان مادية وروحيةٌ الأولى كالجهاد لا تعمل حراكا من ذاتها والثانية كالماء ولكن الماء يتعرض للجريان فى اندفاعه ودون ذلك يركد الجسم ويسكن حِرَاكُهُ .

أمَّا الاستعمالُ المُغْرِض لقصد توجيه الفكر فى اتجاهين : باطنٍ وظاهرٍ .. يسترُ الظاهِرُ حقيقةَ الباطن ، إلى أن تتم النتيجة ، فمن حيث العموم ليس منا أحد يجزم بالقول به ويُعَمّمُهُ وإن كان ثمة ظِلاَلٌ وَرِيَبٌ تدعو الى وضع علامات للسؤال ولكن مما لاشك فيه أن ثمة عناصر فرديةً معينةً استفادت من الاستعمال الجاهل للفكر ، وذلك عن طريق قيامها بازدواجيةِ الكلمة وازدواجية الولاء والتغلغل فى أعماق الخلايا الهَشَّةِ لتوسيع دائرة الانحسار . وقد يقول قائل : إنَّ معرفة الفرض والقصد أمر يصعب التَفَرُّس به أو اكتشافُهُ بسهولة . وهذا صحيح .. ولكن ما حَسِبْنَا أحداً ينكر القول بأن انفتاح الفرد على ذاته وعلى ما حوله هو السَدُّ المانعُ لكل انجذاب مُتَوَقَّعٍ ، كما أنه الحاجزُ لكل غزو مستتر .. وانفتاحُ الفرد لا يتم إلا من خلال الفكر فى صوُرِه التى ذَكَرْتُ سلفا .. وبكلام آخر إن الطحالب لا تُوجَدُ ما لم يكن هناك مياه راكدة ، والدمامِلُ لا تَنْبُتُ ما لم يكن الجسم مريضا ، وفيما عدا ذلك تختفى الدماملُ ، وتنعدم الطحالبُ ، وتذوبُ الطفيلياتُ .

* * *

الفصل السادس

الإنسان العربي وقضايا الفكر

- الباطن والظاهر في الأدب .
- أدب في مفهوم جديد .
- واقعية الكلمة .
- الفكر بين الفرض والاختيار .
- الفكر الذي يُباع في المزاد .
- حرية التعبير والأصنام المنصوبة .
- كتابة التاريخ .
- ماذا يريد أمير الشعراء ؟



الباطن والظاهر في الأدب .

ليس بغريبٍ أن يكون لبعض تصرفات الانسان المختلفة صورتـان متغايرتـان فى الدلالة على حقيقة سلوكه ، وليس بمستغرب أن يكون فيه هذا السلوك إذا كان ثَمَّةَ ما يوجبه فتلك خصيصة لا أقول : إنها من طباعه الأساسية ، ولكنها لازَمَتْ بعضه منذ عرف العلاقة مع غيره من بني جنسه والسؤال المطروح أمامنا : هل النفس البشرية الحـرة تستهجن هذا السلوكَ المتغايرَ وتنفرُ منه أو تحبذه وتقبله ؟ قُلْتُ : يجب أن يكون للإنسان سلوكٌ واحد ، يتلاقى ظاهره مع بَاطِنِهِ وحَقِيقَتِهِ ما لم يكن ثمة أسباب قاهرة تدعو لهذا التغاير علَّها الاكراه من الملجىء فما لا يطاق فى وقت يكون التلاقى فيه غير جائز وفقا لقاعدة : « النُّورَ الخافِتُ خير من الظُّلمة » . واذا أخذنا هذا فى اطار العلاقات الاجتماعية وجدنا الانسان قد يَحْمِلُ فى ظاهره صورتين مختلفتين فى الدلالة على نفسه ، فقد يكتئب فى ذاته ويضحك عند غيره ، ويكون حربا على بعض جِنْسِهِ وسِلْماً على البعض الآخر ، وان كان من عَدُوّهِ ويتظاهر بالغفلة وما هو بالغافل ، ويتجاهل حتى يُظَن أنه الجاهل ، وإن كان فى حقيقته غير ذاك وهكذا .

ولما رأيتُ الجهـل فى النـاس فاشِياً تجاهلـتُ حتـى ظُنَّ أنّـي جَاهِلُ

وإذا أخذناه فى إطار الفكر حَقَّ لنا التساؤلُ : هل يكون للفكر ظاهر وباطن ؟ وما إخال الجواب إلاَّ القولَ بداهة بأن الفكر يَظَلُّ بلا قيمة ما لم تكن نفس المفكر قد طُبِعَتْ بفكرة حتى طغت أحاسيسه ومشاعره عليه فى صفاء ونقاء .. بلا تزويق .. بلا واجهاتٍ ليقول ظاهراً ما يعتقده باطنا ، ويَحْكِي جِهَاراً ما يخفيه إسْرَاراً . وبالتالى تكون روحه معبرة بجلاءٍ عَنْ كنهها وحقيقتها دون تَغَايُرٍ إلا ما أوجبته قاعدة الضرورات ، وفى نطـاق

محدود ، وما سوى ذلك يُوصَفُ بأنه تجارة مادية مستهلكة وكفى . قُلْ : هو المديح لماذا يوصف بأنه « نُفَايَةُ الفكر » ألم يكن لأنّهُ غير معبر عن حقيقة المادح وباطنه ؟ أليس لأنه قد يمدح من يَكْرَهُ وَيَذُمُّ من يُحِبُّ ؟ لا يعبر عن وجدانه وروحه إلا بقدر ما تمليه ظواهرُ العلاقة العارضة والمناسبة المادية الرابحة .. وبالتالى يحلو القول بأن الفكر ما كان ليصاب بأخطرَ من التغاير فى دلالته . وما كانت الأُمَمُ لِتُبْتَلى بأشَدَّ فجيعةً فى حضارتها وتاريخها من أن يَرْقَى بفعلِ هذا الفكر أناسٌ هم فى حقيقتهم في السفح ، ويَهْبِطَ آخرون وهم في حقيقتهم فى القِمَّةِ .

* * *

أدبٌ في مفهوم جديد .

واقع الحال في الماضى والحاضر يُؤَكِّدُ في كل مكان أن الأدب نتاج ينفث من خلال واقع المُنْتِجِ وإحساسه بما حوله في مجتمعه من سلبيات وإيجابيات ، وقد يشارك في هذا النتاج تَأَثّر بالماضى وتَوَقُّعُ في المستقبل . فالأول فيه عودة إلى واقع عَاصَرَهُ المُنْتِجُ فهو المنفعل به المتأسف عليه ، أو الانفعال بواقع لم يعشه ولكنه عاصره من خلال ما سمع عنه ، والثانى فيه تَوْقٌ إلى مستقبل يتوقع فيه حَدَثاً قد يقع وقد لا يقع ، وفي كلتا الحالتين يمكن أن يُسَمَّى هذا هروبا من واقع المُنْتِجِ في مواجهةِ واقعهِ في سلبياته وإيجابيته ، فيلجأ إلى طبع إنتاجه بالتأسّى على ماضٍ آفِلٍ ، أو الترقب لحدث قادم . لا مراء في أن الانفعال بالماضي له آثاره الهامَّةُ في الواقع ، إذا استُحْسِنَ الانتفاعُ بها ، ولكن ذلك لا يبدو مطلقا ، فالماضي هو فترة زمنية لها طابع مميّز ولها وصف معيّن قد تكون إيجابياتُها ، بالنسبة للواقع سلبياتٍ ، وقد تكون سلبياتُها ايجابياتٍ ، فيمكن النظر إلى آثار تلك الفترة من خلال زاويتين .. الأولى : تاريخية تتميز في حوادثَ وقعتْ وانتهتْ ، أو في نظرياتٍ فلسفية سادتْ ثم بادتْ .. تصطبغ هذه الوقائع بالمجتمع الذي وُلِدَتْ فيه ، في سلوكه .. في مزاجه .. في تصرفاته ، فيبدو التعلق بهذه الآثار قُصوراً في انتاج المتعلق مهما كانت العلل ، بل إن ربط واقع الانسان بها يبدو في غاية الخطورة ، لأَنَّ العقل الانسانيَّ بمثابة الوليد ينشأ من تدرج إلى آخر إلى أن يصل مرحلة الإدراك والتام .. إن الوصول إلى المرحلة لا يتم إلا اذا لم يتعرض الوليد لعوائق تُوقِفُ نموه وتطوره ، فربط العقلِ بتلك الوقائع والآثارِ شَبِيهُ بالوليد ، حين يتعرض لعلة عقلية أو جَسَدِيَّةٍ .. في القانون مثلا نَعْرِفُ أن مُدَوَّنَة جُوسْتِنْيَانَ كانت

أفضل أداةٍ قانونية وجدت في العصر الرومانيّ ولكنها على وجه الاطلاق لا تُعْتَبَرُ صالحة لأَنْ تطبق في إيطاليةَ اليوم .. في التاريخ العربي كان الفرد يفخر بمآثِر قبيلته وبُطولاتِها حتى وإن كان هو خاملا . وفى التاريخ المعاصر لا يبدو أن ذلك سهل أو مقبول . فليس للإنسان إلا ما سعى لأمته ككل ، لا لقبيلته كجزء .. ولست هنا في مجال المفاضلة بين واقعين فذاك أمر آخر بل الأهم هو القول بأنَّ الماضي في أغلب الأحيان له كينونته وميزاته ، والحاضر واقع له مثل هذه المميزات فما كان مقبولا في ذاك يمكن الاّ يكون كذلك في هذا والعكس بالعكس . الثانية : من آثار الماضي حضارته .. وهنا يجب التوكيد بان الانسان ليس جديداً ، وليس وليد واقعه بل هو مزيج من هذا وذاك إنه وليد عصره فيما يعايشه من واقع ، ووليد ماضيه فيما ورثه من حضارة كونت واقعه أو على الأقـل شاركت فى هذا التكوين، حضارة الاسلام بالنسبة لِلْعَرَبِيّ ماض كَوَّنَ الحاضر ، فانفصامُ العربِيّ عن هذا التكوين هو انفصام عن حضارته التي يعيشها .. الأوروبِيُّ لم يحرق مُدَوَّنَةَ جوستنيان القانونية بل طورها تبعا لواقعه .. آدابُ القرون الغابرةِ في أمم كثيرة مات منها ما مات ، وبقي منها ما بقي ، كحضارة تمتزج مع الواقع وتقبل التطور فيما يلائم هذا الواقع ، وإذا كان ارتباط الماضي بالحاضر في هذه الجزئية أمْراً مسلما به من حيثُ اللزومُ والضرورةُ ، فَإِنَّ الخطورة لا تكمن في الامتزاج ، كما قد يدعى مُدَّعٍ ، بل تكمن في كيفية هذا الامتزاج . إنَّ الامتزاجَ إذا لم يُصَاحَبْ بعملية تطويرٍ وتجديدٍ سيكون بدايةَ (الضعفِ ثم الشيخوخةِ ثم النهايةِ) لقد توقفنا كعرب وكمسلمين عند نظريات ابن سينا وابن رشد والخوارزمى والفارابى وغيرهم حالما تلقاها غيرُنا وطَوَّرَهَا أيَّما تطوير ، فأصبحت لنا تلك النظرياتُ بمثابة تاريخٍ حضاريٍّ ، وأصبحت لذلك الغير بمثابة واقع حضاريٍّ لقد كان للإغريق حضارةُ هائلة في شتى المجالات . فى الفلسفة .. في الطب .. في الحرب ، ولكن اليونان في عصرها الحاضر لم تكن كما كانت في تاريخها الغابر , « فأثينا » الأرض منذ آلاف السنين هي أثينا اليوم وعلى تلك الأرض مازال من الممكن تطوير نظريات أرسطو وأفلاطون بنظريات اخرى تأخذ فوارق الزمن بعين الاعتبار . إنَّ التجديد ليس غريبا على تاريخ الحضارات فهناك صور كثيرة لا تقع تحت حصر .. عمر بن الخطاب اجتهد في منع العطايا عن المؤلفة قلوبهم . كان يأخذ بالعلة وفلسفة النص ، فَدَفْعُ الصدقات لهم كان مربوطا بوقت كانت فيه الحضارة في بداية الْخَلْقِ ، وتحتاج إلى تعضيدٍ ، ولكن الوليد في عهد عمر لم يكن هو

الواقع تحت خوف الراغب في مؤازرةٍ ، أو الخائف من مُخاطرة ، ذلك النص القرآنى يبقى مرتبطا بواقع الحضارة وظروفها فعندما تكون ضعيفة في مكان ، فإن النص يوجب البذل لاستمالة من يكون في استمالته نصر للحضارة أو عندما يكون هناك شر يُتَّقى للمحافظةِ على وجودها . واجتهد عمر فى عدم توزيع أراضى العراق على المحاربين حتى تظل قوة للكافة وعونا للحضارة في كفاحها من أجل البقاء والاستمرار . لم يكن عمر بذلك المعطّل للنصوص وحاشاه أن يكون مُعَطِّلاً لها ، بل كان مجتهدا يعرف الحكمة ويفهم العلة ويَزِنُ النتيجة .. الانكليز من أكثرِ الناس اجتهاداً في حضارتهم ، يوفرون لها قوة الدفع متى رأوا أنها خارت وأصيبت بعطب اقتصاديّ أو اجتماعيّ قد لا يرون تجديدها على الأرض التى نشأت فيها ، بل ينقلونها إلى مكان آخر ، فالعلة التي دفعت بالمهاجرين الانكليز الى ركوبِ الخطر وقطع المحيط إلى القارة الأمريكية لم تكن كُلِيَّةً في البعد عن الاضطهاد الدينيّ الذى كان يمارسه ملك انكلترا آنذاك أو إنهم فَرُّوا ليوفروا لأنفُسِهِمْ ، على اختلاف مذاهبهم ، حرية دينيةً . هذه واحدة من عِلَلٍ كثيرة أهمها كان خَوْفَهُمْ من هرم الحضارة الانكليزية في ذلك الوقت إن لم تكن قد شاخت . لقد أرادوا تكوين حضارة من جديد إن لم تكن كُلُّها انكليزيةً فعلى الأقل ذاتَ لحمةٍ وطابعٍ انكليزيٍ فأمريكةُ اليوم ليست انكليزية المظهر بل هي حضارة مميّزة ولكن لُحْمَتَها انكليزيةً . في اللغة . في القانون . في الآداب . في كثير من الظواهر والخفايا . إن حضارة الانكليز تبدو أكثر فى كندا فما في ذلك الصُّقعِ من العالم إلا صورة لما في انكلترا نفسها .. مرة أخرى جدد الانكليز تلك الحضارة في استرالية وفي غيرها .. شعب مغامر يخاف على حضارته أن تذوب فيعمل على تجديدها مَتَى وجد ذلك مناسباً ، من هنا يجوز القول بأن حضارة الإنكليز المادية لم تشخ ، فإن كانت كذلك في بريطانيا ذاتها فهي قد ازدهرت في تلك الأصقاع المذكورة آنفا .

وعَوْدٌ على بدءٍ بعد مقدمة ظننتها طالت فَأَسْأَمَتْ قارئاً لم يَرَ في صُلْبِ الحديثِ ما يربطه بعنوانه ، ولكنى قصدت إيضاحَ مدى تأثيرِ الماضي في الحاضر ، ومقدار هذا التأثير ، وان أحد أسرارِ تطورِ حضارةٍ ما يُمَكِّنُ في تنشيطها بأساليب تتلاءم والوقت الذى تمر فيه ، وان الأدب يقوم بِدَوْرٍ هَامٍّ في هذا التنشيط ، وان جموده يُعْتَبَرُ أحدَ عواملِ ركودِ حضارةٍ مَّا .

قُلْتُ : ينبغى أن ننظر الى الأدب فى ماضيه من زاويتين : تاريخيةٍ وحضاريةٍ . الأولى :

ينبغى أن تتوقف عند حد التدوين ، والثانيةُ عند حد الانفعال ، فالأولى أثر لواقع مَضَى ، وانتهى ، وليس فيه ما يفيدُ إنساناً يعيش فى وقت يتناقض مع ذاك كَماً وكيفاً ، فهو ذلك الأثر الشائخ . والثانى وإن كان أثرَ ماضٍ ، فانه حَيَوِىُّ الوجود ، قَابِلٌ للاستمرار ، عايَشَ إنساناً فى الماضى ولاَءَمَ مِزَاجَهُ وعايش إنسان الحاضر ويلائم مزاجه ، ويمكن أن يعايش إنسان المستقبل ويفعلَ كذلك . فَدَيمومَتُهُ كانت نتيجة لموضوعيته وتركيبه ، فهو قد تخيل الانسان كاحساس لايمكن ان يتغير فى عناصره الأساسية مهما تباعدت بينه عملية التتابع صورة فى انفعالاته .. فى غضبه . فى هواجسه . فى أفكاره . وفى مواطن القوة والضعف فيه . قُلْتُ : إن الأدب ليس غاية فى ذاته بقدر ما هو وسيلة لِخَلْقِ غايةٍ يُرَادُ منها أن تؤثر فى سلوك الانسان بما يخدم وجوده . ومن الماضى والحاضر يمكن إقامةُ الدليل ، فهناك كلمات منشورة منذ قرون خالية لو مُزِجَ مِدادُها بماء البحر لغيره .. هُجِرَتْ مَاتَتْ .. لأنها لم تؤثر فى الانسان بما يخدم وجوده . هناك أدباءُ بالالآف إن لم يكونوا بالملايين ماتوا كما مات أدبهم . برز منهم قلة مازالت أسماؤها وأفكارها حية الوجود . لقد أثرت فى الانسان من خِلاَلِ إدراكها لإحساسه وخواطره .. حَرَّكَتْ فيه حوافِزَ التأثير ، فَعَمِلَ .. أذكت روح التفكير والْخَلْقِ ، فَفَعَل .. بتهوفن أثر بموسيقاه فأطربَتْ واهتزت منها مشاعر عشاقها ..

« برنارد شو » أثر فى قارئه كما لو كان الأول ساحراً له ملايين الأتباع .. المتنبىُ هَزَّأوتار قارئه حتى صار شِعْرُه جِماعَ الحِكم والأمثالِ ، ليس عند الخواص ولكن عند عامة الناس . إقبالٌ هزَّ أوتارَ المسلمين فى الهند فَقَرَّرُوا خَلْقَ باكستان .. والأدب بهذه المعانى « أىْ معانى التأثير » ليس وقفاً على محترفى الكلمات ولا على مُتَمَحّلِى الحروف . الأدبُ ليس وقفا على أولئك الحفظة لآلاف الأبيات من الشعر أو كُتُبِ السَّجْعِ والرَّنِينِ .. إنهم غير أولئك جميعا .. إنه وقف على المؤثرين فى حياة الإنسان ، فى واقعه أو مستقبله .. ذلك هو ما عناه معاويةُ حيث رُوِىَ أنه قال : اجعلوا من الشعر مواضع إرشادكم ، فانى يوم « الْهَرِيرِ » كنتُ عازماً على الفرار فما كان يَرُدُّنِى إلاَّ قَوْلُ ابْنِ الاطْنَابَةِ الأنصارىّ :

أَبَتْ لى عِفَّتِى وَأَبَى تلادِى ... وأخْذِى الحمدَ بالثمنِ الرَّبيحِ
وإجْشَامِى على المكروه نفسى ... وضَرْبِى هامةَ البطلِ الْمُشِيحِ
وَقولى كلما جَشَأَتْ وجَاشَتْ : ... مَكَانَكِ تُحْمَدِى أو تَستريحِى

وبين ابن الاطنابةِ الأنصارىّ وبين جرير فَرْقٌ فى صناعة الشعر ، ولكن بينهما فَرْقٌ فى

مدى تأثيرهما فى الانسان . يمكن لمس هذا التأثير فى حادثتين : الأولى : حين أَثَّرَ الأولُ فى مُعَاوِيَةَ وَثَناه عن النكوص ، وفى الثانية : يتأثر الوليد حين بلغته أبياتُ جرير القائلة :

إنَّ الَّـــذِى حَرَم الخِلافَــةَ تَغْلِبــاً ... جَعَــلَ النُّبُــوَّةَ والخِلاَفَــةَ فِينَا

مُضَرٌ أبِـى وَأَبُــو الملــوكِ وهَــلْ لكم ... ياخــزر تَغْلِــبَ من أبٍ كأبينا

هذا ابــنُ عمــى فى دمشــق خليفةٌ ... لو شِئْــتُ ساقَــكُمُ إلى قطينا

وقد سخر الوليد من تلك الأبيات حين قال : أكان جرير يعتقد أنىّ شرطى له ؟؟؟

« مارك توين » الأمريكىُّ كان بَحَّاراً ثم تاجراً ومع ذلك كان لكلماته الساخرة أعظمُ تأثير فى الحياة الأمريكية وتطورها الصناعىّ .. بنجامين فرانكلين كان سياسيًّا أكثر منه أديباً ، ومع ذلك أثر فى الأمريكيين أيّمَا تأثير .. كلماتُه عن العمل والاخلاص له .. أحاديثُه عن دَوْرِ الفرد فى المجتمع ، وأهميةُ هذا الدَّوْرِ ، فى بناء البلاد وتكوينها ـ أثرت بلاشك فى الحياة الأمريكية حتى صارت الأسرةُ تَنْصَحُ ابنها الْخَامِلَ ليقرأ قليلا من أفكار بنجامين فرانكلين ، وكأن تلك الكلمات تفعل فيه من التأثير أكثر مما يفعلـه الطبيـب فى علاج المرضى .

الأدب هو التأثير وكفى إنسان اليوم فى مرحلة تتصارع مكونات البؤسِ والقنوط ، يَشْرُدُ تفكيرُه فى متاهات الضياع والانحلال من الْقِيَمِ .. يَغُـوص فى غياهـبِ الشرودِ الذهني ، بِفِعْلِ المشكلات المعاصرة ، يتلمس الطريـق فَيَضلُّـهُ أحيانـا .. يبحـث عن ساحل الأمان فيرتطم بصخور الغرق والموت . تُرَى أَلَيْسَتْ هذه المشكلات فى حاجة إلى دراسة وحُلُولٍ ؟ أليس الأدبُ هو الوسيلة الوحيدةَ لخَلْقِ هذه الدراسة وإيجاد الحلول ؟ وإذا سلَّمْنا بهذا ألاَ يُعْتَبَرُ الغوصُ فى أعماق هذه المشكلات أجْدَى للإنسانِ من قطعةٍ أدبيةٍ تَتَغَنَّى بالنجوم والقمر ؟ مرة أخرى إذا سلمنا بهذا ألاَ ينبغى نَبْذُ كثيرٍ من المفاهيم الأدبية التى تُعُورِفَتْ من مدح ونحو ذلك مما يعتبر خروجا على المفاهيم الصحيحة للفكر. أديبُ الأمسِ كان يمدح طلباً لِرِفْدٍ ، ، ويَقْدَحُ هجوماً أو دفاعاً فى إطار مَصَالِحِهِ الذاتية الضيقة ، ولْكِنَّ أديبَ اليوم قد لا يحتاج لذلك لأنَّ فوارق الزمن غَيَّرَتْ تلك الظواهر . أديبُ الأمس كان يَتغنّى بالقمر وشُعَاعِهِ وضوئه الساحر ، ولكنه قد لا يفعل ذلك اليوم بعد أن عرف عن

القمر الشيء أو بعضه . الحياةُ المعاصرةُ تفرض على الأدب أن يغوص فى الخلايا الصغيرة ، وفى منعطفات المجتمع ، وفى زوايا الإنسان ، ليبحث ويعبر عن واقع إنسانِ اليوم ، يريدُ لفظا ومعنى يحملان التوجيه والتأثير .. يريد كلماتٍ ساخنةً تَنْقُدُ ذَاتَهُ ، وتُبَيّنُ له دَوْرَه فى حياته تَعْصرُهُ ليعمل ويأخذ .. تقسره لِيَخْلقَ دَوْرَاً مًّا فى الخلية الاجتماعية وَفْقَ أهدافها وقيمها الخلقية عندئذ ، يكون هناك أدب عربى فى مفهوم جديد ..

* * *

واقعية الكلمة .

الإنتاجُ الأدبى في ضروبه المختلفة ليس مِلْكاً خاصًّا لمنتجه بقدر ما هو ملك عَامٌّ . والمِلْك العامُّ فى المفهوم القانونىّ « ما يَنْتَفِعُ به العامة بشكل مباشر أو غير مباشر » . وإذا سلَّمْنا بأن هذا المفهوم ينطبق على الإنتاج الأدبىّ أمكن القول بأن واقعية الأدبِ أساسٌ من أُسُسِ وجوده ، فاذا فَقَدَ هذه الواقعية تَجَرَّدَ من كل نفع يمكن أن يؤديه أو يُوصَفَ به .. وانطلاقا من هذا يتعين القول بأن أدب الخواصّ الذى يُكتَبُ لفئة معينة تتسامر أو تتسلى به أو تضعه للذكرى والتاريخ ـ بصرف النظر عن فائدته ـ أدب محنط عجز فى مضمونه عن القدرة والعطاء الفكرىّ للانسان ، فصار من المحدودية والعزلة بمكان .. وقس على أدب الخواص ، أدبَ « الحُلُميّين » الذين يكتبون وهم مستغرقون فى بحيرات الخيال المُجَنَّحِ أدباً يعزف عن الواقع وينأى عنه .. يصور الحقيقة على نقيضها ، ويشيح بناظره عن الرُّؤى الحقيقية للحياة ، متخذا من التلبيس طريقا رَحْباً لا يهُمُّهُ أن يصور السرَّابَ ماء ، والغبار سحاباً ، والكذب صدقاً . وقد يتعشق ذلك النمطَ أناسٌ تستهويهم الأحلام وتستبد بهم الأوهام .. نَشْوَتُهُمْ لا تكون إلاَّ حين يبتعدون عن الواقع ، وسرورهم لا يوجد إلاَّ حين يغيبون فى متاهات الخيال .. هؤلاء « الحلميّون » و « الوهميون » ألاَ يحِقُّ لنا أن نناقشهم بالتساؤل الآتى : ما قيمة الكلمة إذا لم تَخْلُقْ تأثيرا صادقاً فى مفاهيم الناس ؟ وأى نفع لها إذا لم تُوجِدْ تغييراً جذريا فى مجريات تفكيرهم قلباً وقَالَباً من أجل سلامتهم ونفعهم العامّ ؟ وأىُّ رواءٍ لها إذا لم تحول الشُّحُوبَ الباهت إلى حيوية وجمال ؟ دون هذه المعانى هل للأدب معنىً ، ودون هذه الصُّوَرِ هل يكون وجوده ضروريًّا ؟ إنَّ ثمة فرقاً جوهريا بين أدبٍ يشبه آلة محنطة لا حراك فيها يتراكم عليها الصَّدَأُ ثم تحللها عوامل

الطبيعة إلى أن تصير ذراتٍ من تراب لا خير فيه ، وأدب يشبه آلة متحركة تنتج فى كل لحظة ما ينتفع به الإنسانُ .. الصُّورةُ والشَّبَهُ واحد.. فالأدب الذى لا يقوى على الحركة فى نفسه ، ولا يتغلغل فى الخلايا الاجتماعية لكشف أمراضها وعللها . أَدَبٌ عقيمٌ ومريضٌ ، ضَرُّه آكد من نفعه ، باعتبارِ أنَّ الأدب فى غايته وأهدافه عاملٌ من عوامل الحركة والتأثير فى أوجه النشاطات المختلفة فى الخلايا الاجتماعية ، فاذا فقد هذا العامل أصبح الضرر مُؤَكَّداً ..

إن الانسانَ فى عالم اليوم بحضارته المتفاعلة ، أحوجُ ما يكون إلى فكر واقعىّ واضحٍ يصور الانسان على حقيقته فى صفاء ونقاء .. يقول له : إن الحق هنا والخطأ هناك .. يَدُلُّهُ على الأسلوب العملىّ فى حياته كيف يفكر وكيف يعلم ويعمل .. أدب واقعىّ منهاجىّ فى مرحليّته أو أَبَدِيَّتِهِ يبين له الواقع كما هو ويكشف له الحياة على وضوحها حتى يتعود على الرؤية ببصيرة ، وحتى يستطيع الامتزاج والتأثر مع حياته بكل واقعية ونقاوة . إنَّ نظرة بسيطة نلقيها على كثير مما يُكْتَبُ تعطينا دليلا على عُقْمِهِ وغثاثته حتى يتحسر المخلص على ذلك المداد الذى يُكتبُ به وعلى الورق الذى يُكتبُ عليه وعلى الجهد الذى يُبذلُ فيه .. أدب نستطيع أن نقول عنه لا يكفيه تجاهله لحقيقة الانسان فى نزعاته وسلوكه بل صارت غايته البحث عن أوابد اللغة وشوارد الألفاظ فيها ومعتسفِ الأسلوب ليخرج وكأنه جنازة يريد أهلها الخلاص منها لتذهب إلى عالم القبور .. ماذا يقال عن هذا الأدب ؟ وأىُّ صفة يمكن أن تُسْبَغَ عليه ؟ وأىُّ لِبَاسٍ يمكن إضفاؤه عليه ؟ هل هو أدب خواص أم أدبٌ باطنىٌّ أم ظاهرىٌ . لكنه قد لا يكون لا هذا ولا ذاك . إنه أقل من هذا بكثير . إنه أدب جامد ومُحَنَّطٌ لا يستحق أن يوضع فى مُتْحَفِ التاريخ بقدر ما يستحق أن يلقى به فى وعاء النُّفايات . إنَّ أولئك الذين يكتبون بعد أن يغلفوا كتاباتهم بغرائب الألفاظ ينبغى أن يعرفوا لماذا فاق المتنبى أقرانه ونظراءه وسجل لأجيال العربية دُرَراً من القول تُصِيخُ لها الأسماعُ ، وتَطْرُبُ لها القلوبُ ، وتنفعل معها المشاعرُ والعواطفُ .. فهل كان المتنبى ساحرا أم ماذا ؟ نعم إنه ساحر فى بيانه حين تخيل عواطف الناس ومشاعرهم فى زمانه ، والزمانِ الذى بعده .. تَصَوَّرَ وفاء الناس وكرمهم وبخلهم .. سعادتَهُمْ وأسبابَهَا وشقاءَهُمْ وأسبابَهُ ، تَصَوَّرَ كل ذلك بـ « خيال واقعى وواضح » ثم صَبَّهُ فى قالبٍ شعرى أثر فى النفوس أيما تأثير حتى صار شِعْرُهُ أهازيج أجيال عربية فى ماضيها وحاضرها ، وسيكون كذلك فى مستقبلها على حد سواء ..

الفكر بين الفرض والاختيار .

الأمة التي تجتاز المراحل الأولية للتطور ، لأُبدَّ ـ وهي في طريقها إلى الجوانب الايجابية من تلك المرحلة ـ أن تَعْرُجَ على جوانبَ سلبية معقدةٍ ومتنافرةٍ يبدو كأنها ضرورية لازمة ولكنها في نفس الوقت من الصعوبة بمكان . إنَّ الصعوبة تكمن في عملية (الاختيار) للنمط نفسه .. هل هو صالح في ذاته ؟ وهل في اختياره صلاحُ تلك الأمة أو فسادُها ؟ وهل ستتمكن من الوصول الى الغاية السليمة إذا التزمَتْ به ؟ مثلا ـ لو فرضنا أُمَةً كَأُمَتِنَا لها سبق حضاري تاريخي ، وتمر بمثل ذلك الدَّورِ هل تستطيع المحافظة على تلك الحضارة ؟ وهل في مقدورها التجددُ تبعا لتجددِ متطلبات العصر الذي تعيش فيه ؟ أستطيع القول بأن مرحلة (الاختيار) أقسى ما تواجهه أُمَةٌ في طريقها إلى الانطلاق والانعتاق .. الانطلاق من الأغْلالِ الأجنبية اذا كانت تلك الأمة في طريقها الى الانطلاق والانعتاق من الرواسب الحضارية المتخلفة ومن الركود الفكرى الذي فرضته عليها عواملُ متعددة .. هذا الاختيار قد لا يكون لأُمَّةٍ ما ، إرادة فيه حين يكون بمثابة قسر تفرضه قوة مادية مسيطرة مصحوبة بعنف فيتحول عبر الأجيال المتتالية الى ما يشبه الاختيار أو ما يمكن تسميته بـ« الاختيار المفروض » المشكلة أن تلك الأصول المعاصرة والتى لها حافز تاريخى قد لا تجاريه والأدْهَى أن هذه الأصول سوف تنتهى وتختفى عن مسرح الحياة ، وستخلّف فروعا نبتت في ظل « الاختيار المفروض » ولَقّنَتْ بأن ذلك الخطَ مرتبط بحضارة الأصول ارتباطا عضويا وتاريخيا ـ بموجب التلقين ـ حضارة تاريخية لها وتكون الكارثة حين يكون من ذلك الفكر ابتلاع فورى او تدريجى لحضارة أمة بكاملها

إن الأمة ـ اى امة ـ في المراحل الاولى من تطورها الاجتماعى والاقتصادى تحتاج الى موجه أمين يأخذ بيدها ويدلها على الطريق بل تكون في الغالب تائهة مائجة في خِضَمّ

الأفكار والنظريات المتباينة : الحسن منها والسيء والطيب والخبيث .. هي مرحلة فراغ قلقة يسودها انتظار وترقب : انتظار للمنقذ الصالح الذى يقول : هذا حسن فابتغيه ، وهذا سيء فاجتنبيه ، لتنصهر بعد ذلك فى البوتقة التى يراها . إن الأُمَّة في تلك المرحلة بمثابة العليل الذى ينتظر العلاج والمفكرون هم الاطباء وهم في الوقت نفسه القادرون على تحقيق نتيجتين .. إما مُحَاوَلة العلاج . وأثرهُ يتوقف على مهارة الطبيب وسلامة قصده وإما الإجهازُ المُتَعَمَّدُ وشبه المُتَعمّدِ ونتيجته حتمية الموت للعليل،لذا فان السؤال يظل دائما يدور حول وجود هؤلاء المفكرين في « كَيْفِهم » قبل « كَمِهّمْ » .

* * *

الفكر الذي يُباع في المزاد .

من يصدق أن الفكر يباع كما تباع الأشياء التالفة في الأسواق ؟ بل من يصدق أنه يباع بأقل الأثمان كما هو الحال في سقط المتاع الذي هان على اهله ؟ . سماسرةُ البيع كثيرون والباعة أكثر والمبتاعون ينتقون ما وسعهم الانتقاء .. وقِلة هم الذين لا يبيعون الا على القراء الخُلَّص وهؤلاء من حيث الثمن المادى لفكرهم اتعس الناس ربحا ، وما حيلتهم اذا كان المبتاع ـ القارىء ـ كاسد القراءة قليل الأخذ لا يهوى من الفكر الا ما كان براقا لماعا تستهويه صورته ويبهره شكله ومظهره وكثرة هم الذين يبيعون غُثَاءهم الفكرى ان لم يجروا وراء ماء الحياة فهو يجرى وراءهم يَطْلُبُهم .. يُلاَحِقُهم ، ليس بضنين ولا شحيح بل معطاء مدرار .. ولا يعنينا الممول ففعله قد يكون فيه له ضرورة يطلب به يمنع به .. يتقصد به شيئا لا يدركه الا به يتفيأ شيئا ويلتمس مطلبا ، واذا كان المُصَبُّ الذي يُفَرَّغُ فيه هذا الفكر يعنينا ولو بقدر معين فينبغى ان نعرف انه قد يكون في قابليته على نوعين : إما نوع قاصر وهنا سيكون سيء الاستيعاب .. او نوع لا يبالى بحيث لا يُعَلِل ما قيل له ولا يَتَعَلَّلُ برفض ما يضره في الوقت الذى يستطيعه فهنا زاوية الخطورة .. والفرق بين النوعين ان الاول هو الجاهل بالعلم لا يدركه .. والثانى هو المتخاذل عن الرفض يعرفه فيتغافل عنه ، فعذر الاول واضح وان كان على غير اطلاق ، ولا عذر للثانى الا انهزام النفس امام رهبة الغزاة .. فمن هو ياترى المسؤول الملوم ؟ انه الفكر مرتبط برجاله فَهُمْ ليسوا أهل غفلة فَيُنَبَّهون ، ولا أهل جهالة فيعذرون . وهم ان تعامَوْا عن الحقيقة المجردة وتغافلوا عن الكلمة المخلصة ، صاروا من وصف الذين ضلوا فأضلوا .. وفي ذلك بداية النهاية لهم أنفسهم .. انهم بمثابة حَمَلَةِ المشاعل الزيتية ان أحسنوا حملها صار الطريق مضيئا وسالكا ، وان كانوا غير ذلك سقطت من أيديهم فاحترقت وأحرقت .. انهم المُوَجِّهون ، يقولون فَيُصَدَّقُونَ ـ بالتشديد ـ ويأمرون فيطاعون .. فحين يُخْلِصُونَ يَعْمُرُ كَوْنٌ وتُبْنَى أُمَمٌ و تَرْقَى .. وحين يَضِلُّون تهدم ديار وتدك حصون .. وناهيك بها

مسؤولية الاَّ تؤدى على وجهها . وأعيذك من حامل لها لا يقدرها حق قدرها . ومَدَارُ التساؤلِ أنه اذا كان المفكر بهذه المسؤولية والمكانة فما قوامه وعماده ؟ هل هو القول المُنَمَّقُ ؟ أم هو الحديث البارع ينمق فيشغف النفوس ببريقه ، ويستحوذ على الالباب بسحره ام هو الأسلوب المرن يتمدد ، وينكمش تبعا للأحوال والظروف أم ماذا ؟ قلت انه لا ذا ولا ذاك إنه « القول المخلص الامين » يُسَجِلُ التاريخ كما هو واقعا محسوسا ، أو ماضيا مشهودا .. هو الكلمة الموجهة الهادئة الهادفة ، تخلب اللب لا لجمالها بل لعظمتها وصدقها .. هو النتاج الصافى يُبْدِعُهُ العقلُ الراشدُ الثابتُ وما إخالُ ذلك الفكرَ الا عاملا فاعلا ، به تُبْنَى الحضاراتُ ، وتشاد الأُمَمُ وتُطلبُ به الانتصاراتُ ، وما عداه كَغُثَاء السيل ، يبقى كنفاية تافهة .. وللحديث شاهد ودلالة عابرة تُلْقى بهذه المناسبة في معنى الذكرى .. فمرة جَمَعَتْنَا نَدْوَة في أحد منتديات بيروت تَعَرَّفنا فيها على رجل كان يُسَمِّى نفسه بالمفكر .. كتب صحفا والف كتبا وصال وجال في ميادين الفكر علها الفترة السابقة لمأساة حزيران وسَمَّيْتُهَا بـ« فترة التمدد الفكرى الشاطح » .. وكانت ندوتنا مُتْرَعَة بأحاديث المفكر العربى يحلل ويستنتج .. يتخيل ويتوقع .. يصنف ذلك البلد العربى مغوارا بطلا ، وذاك جبانا رعديدا .. وللسفن الفضائية والصواريخ الموجهة مكانة في الحديث ، وكان في المنتدى فضلاء لم يكونوا الا أدباء نفس وأصحاب عفة عن اللغو ، وان كانوا معه على خلاف تمالكوا أنفسهم وسكتوا على مضض ، ومرت الايام تترى وسقطت أقنعة الفكر الشاطح .. وتقصدوا ان يروا هذا الذى كان له في هزيمة فكرنا أثر كبير ، لم يكن ذلك للشماتة او للتطاول عليه ، ولكن لتذكره بسوء صنعه ، وليقولوا له : لقد كنت مدخولا في فكرك وغير سليم فى منطقك .. وها نحن وأنت نقتطف ثمار عبث أمثالك ممن أماتوا في الفكر العربى جذوة الحقيقة ، وسلامة الغاية ، ولكنه أدرك ذلك في نظراتهم فقال : بالحرف الواحد .. « حقا لقد ساهمت انا وأمثالى في الهزيمة الا تعتقدون أن منْ أهم إثبات الجريمة الاعتراف بها . وحسبى ان تقولوا شيئا يبعث المرارة ويوجد الخصومة واللجاجة . » . قلت : ما أكثر ما قيل لأولئك : اتقوا الله في أمتكم .. اكتبوا لها الحقيقة كما هى .. تعودوا على الصدق وعفاف الكلمة .. قولوا الحقيقة وان كانت مرة قاسية .. ألبسوا القول لباس الطهر والايمان فالدعاوة الكاذبة ما كانت في يوم من الايام الا وسيلة الضلالة وبداية النهاية .

حرية التعبير والأصنام المنصوبة .

تعتبر حرية التعبير حقا أساسيا من حقوق الانسان في العصر الحديث سواء بالنص عليها في بيان حقوقه ام في ممارستها فعليا في العديد من الدول .. فمن الناحية النظرية لا يوجد قانون في بلد يحظر التعبير ولكن التفاوت يبرز في تطبيق هذه الحرية في أمكنة الانسان فلكل قوم أساليبهم في ممارستها وفق طقوسهم وتراثهم الثقافي وللحكومات أساليبها كذلك فيما يمكن ان يكون ممارسة للحرية ، وفيما لا يمكن ، وللظروف المختلفة والمتمايزة أفعالها وتأثيرها في كيفية الممارسة ومداها ، ولكن هل ثمة جدار مميز يفصل بين قوم يمارسونها بأسلوبهم المتميز دون رقابة ، وبين آخرين يخضعون لرقابة ؟ أو على الأصح هل يحتاج التعبير الى وصاية ؟ واذا كان كذلك فمن هم الأوصياء ؟ .

إن ممارسة التعبير لا تختلف عن ممارسة التصرفات المدنية الاخرى ، وهذه الممارسة غير مقيدة مالم تتعرض أهلية الممارس لعارض ملازم ،والعلة في منعه حينئذ تكمن في الخشية من تأثير هذه التصرفات عليه نفسه او على غيره ، ومادام الانسان قد يكون غير حر في شراء متاع زهيد فهل يكون حرا في ان يقول دون وصاية ؟ والاجابة على هذا تشبه الاجابة السابقة ، فالراشد لا يحتاج الى وصاية والعكس بالعكس .. ان الفكر أخطر تصرف يمكن أن يقدم عليه انسان . وخطورته قد لا تكون آنية فكلمات هامشية قد تكون ذات آثار تكفى لأن تغير هيكلا كاملا لحياة جيل ما وحضارته الى الابد .. فأسعد الناس حظا أولئك الذين بلغ فيهم التعبير مرحلة الوصاية الذاتية بفعل إدراك الفردِ وقدرتهِ على اداء المسؤولية .. وأتعسهم أولئك الذين يعجزون عن ادراك هذه المسؤولية وخطورتها فاحتاجوا بالتالى الى وصاية الغير . إن الوصاية على الفكر اختيار صعب وهي بالتالى سلاح ذو تأثيرين أحدهما قد يحقق الهدف في الحيلولة دون وجود مناخ معين قد يغير مجرى واقع

جيل بما يتعارض مع رغبته الحقيقية فيما لو أعطى مجال الادراك ومناخ الاختيار وثانيهما : ربما يوجد المناخ الاكبر لانبثاث هذا الفكر وانتشاره بفعل قاعدة الفعل المعاكس . والعسير في كل الأحوال أنه قد لا يكون خيارا في هذا أو ذاك والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن الوصولُ إلى مرحلةِ وصايةِ التعبير على ذاته ؟ إن الاجابة على هذا ترتبط بالمراحل الحضارية التي مر أو يمر بها مجتمع التعبير كما يرتبط بِعُمْقِ فهمِ إنسانِ المجتمعِ لِدَوْرِه فيما إذا كان مفكراً ، وفيما إذا كان ميداناً للفكر، وأهم من ذلك الواقعُ الذي يعيشه هذا المجتمع وقت وجود التعبير، فالمناخ الاجتماعي في بلد تقر تقاليده وطقوسه أن يُغْسَلَ رئيسه قبل توليه الحكم باللبن الرائب ثم بالطين المستخرج من نهر مقدس غير المناخ في مكان تقر تقاليده ان يركب رئيسه دراجة نارية مثله في ذلك مثل تلميذ بسيط يذهب الى المدرسة في غير مبالاة بالتقاليد المألوفة : إن وحدة التركيب في مجتمع ما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا اساس كامل لمرحلة التعبير الواعي .. وافتقاد هذه الوحدة سبب مباشر في تخلف التعبير عن بلوغ مرحلة الوصاية الذاتية، والمشكلة الاصعب ان افتقاد هذه الوحدة يخلق مناخا لنمو تفاعلات كثيرة معقدة قد توجدها عفوية ساذجة ثم لا تلبث ان تتحول الى فكرة ملتزمة وملزمة سرعان ما تؤدي الى خلق استراتيجيات معينة داخلية او خارجية .

وينطرح سؤال يتفرع من هذه الحقيقة .. ماذا يكون مصير العامة في مجتمع بذلك الشكل ؟ إنها تفقد وحدة التركيب وتفقد القدرة الكاملة على أبعاد التصور للتفاعلات المعقدة هل تكون العامة والحالة هذه كبش الفداء تساق الى التصديق بفعل التأثير ؟ فاذا كان ٩٪ من القرويين في الهند مثلا يعرفون رئيس الهند و ٢٥٪ منهم يعرفون رئيسة وزرائه فكيف بهم في الامور ذات الاهمية في نظرنا كالفكر ونحوه؟ ويرد على ذلك بانه حتى في الولايات المتحدة الامريكية وهي مثال للتقدم العلمي وثقافة الفرد لا يتصور ان كل مزارعي القمح في الوسط الغربي للولايات المتحدة يدركون التفاعلات المختلفة لمجتمعهم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ولكن الفرد العادي في دولة كأمريكا يعرف جيدا معظم الخفايا والتفاعلات اذا كانت تمس طائفته، فمزارع القمح في كنساس يعرف معنى صفقة الحبوب التي تعقدها بلاده مع روسية، ومزارع القطن في جنوب الولايات المتحدة يعرف معنى استيراد القطن الأجنبي وهكذا وبطبيعة الحال يظل الفرد العادي حتى في أرقى بلاد العالم ثقافة يعتمد على « القوالب » التي تصاغ له في أشكال مختلفة وهو في الغالب يتقبلها مادة

فجة، فمن هم الذين يصوغون هذه القوالب وما مدى مسؤوليتهم في حال اساءة الاستعمال ؟ اذا أخذنا الجانب المادي من القوالب وجدنا ان كل القوانين في العالم ، وفق اعتباراتها المختلفة تعاقب على اساءة الاستعمال حين ممارسة الخدمات العامة فالخبز المغشوش معرض للمصادرة وقد يتعرض الفاعل لأقسى العقوبات ولكن اذا أخذنا الجانب الروحي فلربما وجدنا أن القوانين التى تعاقب على اساءة استعمال القوالب الفكرية أقل من الاولى ، وفي تصوري أن الاختلاف يرجع الى اسباب معقدة ترتبط بأساليب جهات المعاقبة وقدرتها على تصور خطورة هذه القوالب .. لا أدرى على وجه التأكيد:هل القانون الفرنسى مثلا يعاقب على الدعوة الى استعمال حرف غير الحرف اللاتينى الذي تكتب به اللغة الفرنسية ؟ المتصور ان القانون الفرنسى ، مهما بلغت حرية الكلمة في فرنسة لا يسمح لكاتب أو مفكر فرنسى ان ينشر على الملأ وبواسطة الأجهزة الاعلامية أفكارا بالغاء الحرف اللاتينى ليحل محله الحرف الصينى مثلا ، والحال كذلك في امريكا اذ لا يتصور ان كاتبا امريكيا سوف يكرس نفسه لتعميق فكرة ترمى الى تهيئة الأمريكيين لتقبل سلام يدعو الى تسليم ولاية فلوريدا مثلا الى كوبة في سبيل السلام معها ومع روسية ؟

إن استقراء التاريخ حتى تاريخ الشعوب المهزومة لا ينبئنا بان هناك من نَادَى علنا بالتنازل عن أرضه لآخرين ينازعونه فيها،الهنود الحمر في وقت قريب ادعوا الغبن في بيعهم « منهاتن » في نيويورك بل ان منهم من اعترض على البيع أصلا .. فرنسة الحكومة أيدت الذين يتكلمون الفرنسية في مقاطعة « كويبك » في كندة برغم المسافات الطويلة بين فرنسة وكندة .. الهنود الحمر في الولايات المتحدة مازالوا يعلمون ابناءهم تاريخهم وثقافتهم ويتغنون بالأبطال منهم ومازال بعضهم منغلقا على نفسه حتى لا يذوب نتيجة للاختلاط ولم تذكر الروايات عنهم انهم يريدون التنازل عن أرض آبائهم وأجدادهم برغم أنهم انتهوا كحقيقة،أما نحن في بعض البلاد العربية فلنا ومنا غرابه سعيد عقل ـ كما قلنا مرة عنه ـ ينادى بهدم الحرف العربى ونجيب محفوظ الروائى المصرى ينادى بالتخلى عن الارض في سبيل السلام،والمناداة بتغيير الحرف العربى دعوة لم تقتصر على سعيد عقل في كتبه التى يطبعها في لبنان العربى ولم يقتصر على غرسها في نفر قليل من أبناء زحلة ، مقرّ سعيد عقل ودائرة انتخابه بل قد روجت لها في سذاجة مفرطة اذاعة دولة عربية .

والمناداة بالتخلى عن الارض في سبيل الحضارة والسلام لم تكن دعوة التزم بها نجيب

محفوظ لنفسه بل نشرها عبر اجهزة الاعلام العربى في مصر والكويت وغيرهما .. ان اعتقاد نجيب محفوظ بعدم قيمة الارض يمكن ان يبنى على افتراضين فإما هي البلاهة الفكرية والضحالة في المنطق لأن الحضارة ترتبط بالارض ارتباط العدم والوجود وهناك أمثلة على ذلك ففى حضارتنا العربية كانت الارض ثم كانت العقيدة . وحضارة امريكا لم توجد الا عندما وجدت الارض وحضارة الهنود الحمر انتهت بانتهاء الأرض منهم ما عدا بقية باقية في حيز صغير في ولاية « اكلاهوما » وفي اجزاء متناثرة في الولايات المتحدة والمكسيك .. روسية العقيدة المادية تبحث عن الارض في امريكا الجنوبية وافريقية وآسية وأما الافتراض الآخر فان نجيب محفوظ يلتزم منطلقا فكريا لم تتبين مراميه الحقيقية بعد .

ان فردنا عبر تاريخه السحيق رفض ويرفض باصرار هذه المنطلقات مهما كانت النيات وراءها .. الفلاح المصرى في « نجع حمادي » في الصعيد المصري والبدوى الأسمر في سيناء الصحراء لم يتخليا عن مواقعهما برغم أن الاول تعرض للقصف بالطائرات والثانى عانى الاحتلال المباشر .. المصرى من اشد العرب تعلقا بالأرض حتى أولئك الذين أجبرتهم حياة الشظف الى التجنس بجنسية المهجر يعتبرون انفسهم مصريين .. فاروق الباز خطط لمركبة ابوللو جغرافيا واول ما كان يراوده أن يضع سورة الفاتحة في العربة، وما كان صنيعه ذاك الا حبا للعقيدة التى عاشها وعرفها في ارض وسماء مصر .

أحمد عويس المصرىُّ الأصلِ الأمريكىُّ الجنسيةِ أراد أن يخدم حضارته التى عرفها فى أرض مصر فأسس مركزاً للدراسات العربية المعاصرة فى جورج تاون الجامعةِ فى أمريكة .

عربىٌّ آخرُ من مصر لم يعبأ بالذين قالوا إن أمه كانت ممثلة سخر منهم وأسس إذاعة فى احدى مدن أمريكة تتكلم عن الحضارة العربية . وغير هؤلاء كثيرون مازالوا يَحْلُمُونَ بصعيد مصر وأزقة القاهرة برغم أنهم يعيشون فى بلاد كأمريكة . وماذا يمكن ان نقول عن جزائر العرب التى ضحت بأكثر من مليون شهيد فى سبيل الأرض والْحَرْفِ العربىّ ؟ ماذا نقول عن الاريتريين الذين يموتون جوعا ونضالا مستميتا فى سبيل الأرض والْحَرْفِ العربى ؟ هل نرفض كل ذلك ونقبل أفكار سعيد عقل ونجيب محفوظ ؟ وإذا كانت هذه الأفكارُ مرفوضةً سلفاً من الْفَلَاّحِ المصرىّ ، ومرفوضةً بعناد من الفلاح والقروىّ السورىّ ، وإذا كان اللاجىءُ الْفِلَسْطِينِيُّ مازال يعيش فى التعاسة ويحمل

السلاح للتدليل على حُبِّهِ للأرض واذا كان ابن الثرى اللُّبْنَانِيُّ الأصل ، الأمريكيُّ المنشأ والولادة يعرف فلسطين معرفته بولاية ميتشيجان التي عاش فيها ، وإذا كان هناك مُهاجِرٌ عربي وُلِدَ في ولاية « نورث كارولينا » أصرَّ على أن يكتب وصيته لابنته الأمريكية ، باللغة العربية فماذا يريد سعيد عقل ونجيب محفوظ أو على الأصح : هل من حق هذين الرجلين بسط أفكارهما الغربية والمريبة في حرية كاملة وعن طريق إعْلام مُتَدَاوَل ؟ إن الجواب سيكون من وجهَتَيْ نظرٍ متباينتين . الأولى أن من حق أيِّ كاتب أن يقول رأيه في حرية مطلقة ، وأن المناداةَ بِالْحَجْرِ عليه يتعارض مع المفاهيم الحديثة ، فسارتر الوجودي مثلا بسط آراءه بشكل يتعارض مع عقيدة الكاثوليك ومع ذلك لم يُنَادَ بِالْحَجْرِ عليه . والامريكيُّ العاديُّ وغير العاديّ انتقد بعنف تَدَخُّلَ بلادِهِ في فيتنام ، ومع ذلك لم يُحْجَرْ على احد لمجرد إبداءِ رأيه . أمَّا من الوجهة الثانيةِ المُضادة فان حريةَ الكلمة يمكن أن تُصَانَ عندما تكون مُنْطَلَقاً للبناءِ أو على الأقل متفقةً مع الأهداف والتكوين الحضاريّ لأصحاب العلاقة المُعْنِيِّينَ بالفكرة . ولا مراء في أن الدساتير والمواثيق الدولية حينما تنص على حق الإنسان في صيانةِ ما يتعلق بحريته الشخصية كمراسلاته وأسرته ، استندت على عِلَلٍ كثيرة من أهمها عدمُ ايذاء مَشَاعره وإن فعل شخص أو أشخاص يعملون على هدم التكوين الحضاري للجماعة التي ينسبون اليها يعتبر في حقيقته وغايته أكثر من ايذاء للمشاعر بل يكوّن - بتشديد الواو - جُرم الاعتداء على المقومات الحضارية للجماعة،ويعتبر هذا الجرم أشد خطرا عندما يصاحب بعملية « ترويج » في وقت تشعر فيه الجماعات ذات العلاقة بحساسية معينة اما لعدم تهيؤ الظروف لها من حيث القدرة على ممارسة الوصاية واما لعدم وجود الرقابة المدركة على الأوصياء فيما يمارسون من تصرفات .

قُلْتُ : إنَّ ممارسة الإنسان لِدَوْرٍ مُعين سواء أكان روحيا أم مادياً هو نتاج ومُحَصلات أوقات متعاقبة ، ويفترض أنه في قبوله للممارسة قد قبل بخلفياتِ ما يمارسه ، فأصبح جزءاً من كيانه ، بل إن كيانه بما فيه من مَشَاعِرَ وأحاسيسَ وتفاعلاتٍ سوف يُسَخَّرُ لخدمة هذا الدَّوْرِ ، فالبوذيُّ عندما أحرق نفسه علنا احتجاجا على الحرب عند نهر « الميكونج » أقدم على فعله دون مواربة أو خوف ، وماذاك إلا لأنه يخدم المبدأ الذي يؤمن به وَفْقاً لتعاليم بُوذَا ، بِغَضِّ النظر عما إذا كان فعله مقبولاً في نظر الآخرين . و « البراهميُّ » عندما يطوف شوارع دلهي أو بومباي يسأل المارة قليلاً من « الرّوبِيّاتِ » يستند على نظرية عند

« البراهما » تقول بأنه عندما يملك النقود شَخْصٌ وأنت تفقدها وجب عليك سؤالُهُ ولذلك هناك من يقول بأن ظاهرة التَّسول فى الهند ليست ظاهرة فَقْرٍ بمعناها الواسع ، بل عقيدة عند البراهمة . والانسانُ ـ أيُّ إنسانٍ ـ عندما يتمسك بمبدأ الحفاظ على أرضه التى عاش فيها نتيجة تَسَلْسُلٍ تاريخىّ « دائم » واستنادا على أساس صحيح من التوارث المتتابع إنما يعمل مايمليه المنطق التاريخىُّ وهو ـ أى الإنسان ـ حينما يُضَحِى بذاته من أجل هذا المبدأ فإنما يغلبه على ذاته فهو بالتالى أغلى من كيانه المادىّ . وإذا كان الاعتداءُ من الغير على الذات كالقتل ، يُعتبر فى كل القوانين من الجرائم الأولى أفلا يكون من باب القياس المنطقى اعتبارُ الاعتداء على مبدأ الإنسان فى احتفاظه بأرضه أخْطَرَ من الاعتداء على ذاته المادية ؟ وبالتالى ينطرح ثانيا هذا السؤال : هل من حق سعيد عقل ونجيب محفوظ[1] الاعتداءُ على مفاهيمنا الحضارية ؟ الجوابُ سيكون : « كَلاًّ ! وسيكون الرفْضَ المُطْلَقَ لِكُلّ عِلَلِ ومفاهيمِ الاثنين ، ولكن ماهى القيمة المُؤثِّرَةُ للرفض ؟ ربما يكون الجوابُ فى رفضٍ فكري ينطلق كالزلزال العاصف يَقْضِى على القشرة البغيضة لأرْضِيَّة الفكر الخائن لأبسطِ مفاهيم الحضارة لأمة تريد أن تعيش على أرض توارثتها عبر آلاف السنين .

* * *

---

(١) فى مقابلة صحفية أجرتها صحيفة القبس فى الكويت مع نجيب محفوظ قال انه يدعو الى التخلى عن الأرض فى سبيل السلام والحضارة .

كتابة التاريخ .

كتابة التاريخ ليست أمرا يسيرا بل هى صعبة وشاقة لأى مؤرخ حين يُقَوِّمُ ـ بالتشديد ـ حقبة مَّا . وأسباب الصعوبة تبدو فى أن المؤرخ قد يتعرض لضغط داخلىّ من ذاته أو خارجىّ من غيره .. فالأول ربما يسبب له الشذوذ عن صفات المؤرخ المتجرد ، فتأثره وانفعاله بما يؤرخ له قد يكون هو التحيز بذاته . وتعليل ذلك ليس صعبا فالإنسان عندما يتأثر بفكرة ما يصرّ أمام ذاته وأمام غيره على أن مايعتقده هو أسمى من غيره فهو لهذا يحاول أن يجعل كل شىء يسير مع مايعتقده .. إن هناك من يسمى هذا التحيزَ بالأنانية . وقد يكونُ هذا صحيحا وقد لايكون . ولكن الذى لايقبل الجدل أن اعتقاد الإنسان بشىء مَّا يجعله جزءاً منه فهو حين يدافع عنه يدافع عن ذاته ، بل إن مجرد الاستجابة لأىّ فعلٍ آخر مضادّ قد يعتبره نوعا من الهزيمة .

إن المؤرخ يمكن أن يُوَجَّهَ ـ بفتح الجيم وتشديدها ـ ليكتب ماتريده طائفة أو فئة من الناس حين تقسره قسراً ليقول ظاهراً ما يخالفُه باطنا .. وقد يكون التصور الأقرب إلى الذهن أن المؤرخ قد يجد نفسه محاطا بمؤثرات خارجية لايستطيع الفكاك منها ، فيكتب كل ماحوله بغض النظر عما يعتقده من سلامتها ، يؤرخُ وكأنه يطريها . يُسَجِّلُهَا وكأنه يعتقدها .. يستوعبُ كل دقائقها وجلائلها وكأنه مُعْجَبٌ بها . ولكنه فى ذاته يكتب وقائع مجردة قد لايعجبه أىٌّ منها .. إن مشكلته أدق من الشّعرِ فهل يكتب دون أن ينتقد ؟ وهل يؤرخ دون أن يلاحظ ؟ كيف يفهم القارىء هذا التاريخ ؟ هل يقرؤه مجرد وقائع من خلال التعرف على نفسية المؤرخ أم يقرؤه على مجرد سطحيته ، ويتفاعل معه سلبا وإيجابا ؟

إنَّ المؤرخين ـ وشأنهم شأن غيرهم ـ فئات مختلفة فى أساليبها فمنهم فئة تكتب للتاريخ.. للحقيقة.. للكلمة المجردة.. تكتب ماتعتقده وتؤرخ ماتراه صدقا، تقول ماتؤمن به قلبا وقالبا ، ظاهرا وباطنا ، لاتقصد التشويش ولكن خدمة الحقيقة .. خدمة الأجيال .. خدمة التاريخ ذَاتِهِ . وقد تقع هذه الفئة ـ شأنهُا شأن غيرها ـ تحت تأثيرٍ داخلىّ ولكنها مع ذلك تستطيع دفعه بعنف النزاهة وبصلابة الأمانة وأمانة الضمير ، إذا عايشت الواقع . عَايَشَتْهُ بصدقٍ وأَرَّخَتْ له بنزاهة ، واذا نقلت التاريخ نقلته من ثقة إلى آخر تَسْتَحْيِي من ستر الحقيقة حتى وإن كانت مرة . تفهم كتابة التاريخ على أنها وقائع تُسرد ، وكما كانت ، وقد تفهمه نقداً سالباً حتى ولو على نفسها فهى تبحث عن الحقيقة من خلال ذلك ولاتطمسها ، خوفا من اتهام ، أو طلبا لِمَغْنَمٍ أو جاهٍ .. عمرُ بن الخطاب فى شاهدنا هذا لم يكن يُدَوّنُ التاريخ ولكنه كان يصنع التاريخ لِيُدَوِّنَهُ غيرهُ لم يخش من الاتهام بعدم العلم حين اعترف بصواب امرأة اعترضت على رأيه فقال : لقد أصابت امرأة وأخطأ عمر ، اعترف أمام الملأ ، لِيُكْتَبَ فى التاريخ أنَّ العلم لا يقصر على واحد من الناس حتى وإن كان ذكيا .. ونحن فى تاريخنا علمنا أن نقول الحقيقة حتى وإن كانت مرة ، وأن نقولها حتى على أنفسنا ، ولكن ذلك على أىّ حال لايعنى فوضى الغوغائية وحماقة الحمقى ، بل فى أدب المتأدبين ، وعرف غيرنا كذلك مثل هذا أو ضربا منه ، فَعَرفَتْ بعضُ الأمم اتهامَ الذات وهو أصعب مايُوَجِّهُ الإنسانُ لنفسه من تُهَمٍ وأخطاءٍ حين يكون قاضيا ضدها ، فهو يُسْأَلُ عادة فى المحاكمات عما اذا كان يعتبر نفسه مذنبا أو بريئا . ويفترض فيه قول الحقيقة فان زاغ عنها وثبتت الإدانة عوقب بعقوبتين : عقوبة الخطيئةِ ذاتِها وعقوبة الكذب فى إخْفائها .

إن هناك فئةً لاتكتب التاريخ إلا من خلال تصورها هى . تَصَوُّرِهَا لما ينبغى أن يكون عليه التاريخ ، حتى وإن كان هذا التصور مريضا . تنفعل بتصورِها الخاصِ ، وتتأثر بفلسفتها من خلال ما تقول به تاريخا حتى وإن كان زيفا ، وتُوجَدُ هذه الفئة فى بعض الملتزمين بفكرة عمياء ، أو المعتقدين فى عقيدة جَهْلاَءَ ، أو المنتحلين لأىّ نِحْلَةٍ هَزْلاء . التاريخ عندهم مايشاؤون هم أَنفسُهُمْ ، والوقائع مايوافق رَغَبَاتِهِم ، وقَالَبُ التاريخ هو مايوافق تصورهم ، وبالمعنى الآخر : هذه الفئة قد تكذب كذبا شنيعاً ، وقد تُزَوِّرَ كُلَّ

الحقائقِ والوقائع ، وفى تاريخنا الماضى مَثَلٌ لهذه الفئة فعن العصر العباسّى كُتِبَ الشّىء الكثير ، ويهمُّنا هنا ماكُتِبَ فى الأخلاقيات ، فأنت حين تقرأ فصلا من فصول تلك الكتب شعراً أو نثراً تَغْدُو كئيبا عما قيل عن مجون وفساد ، ونحن هنا لاننكر ماقد وقع فى مثل ذلك العصر من جوانب ضعف ، فهناك شىء حدث ، ولكن هل كل ماقيل قد حدث ؟ أو هل كل ماحدث قد قيل ؟ اننا نعتقد إلى حد اليقين والجزم بأن كل ماكتب من تاريخ عن ذلك الجانب لم يكن كله صحيحا . ولعل سائلاً يسأل : لماذا كتب هذا التاريخ ؟ المُجَرَّدَ العبث أم لمجرد التسلية لعدد من القراء الذين ينفعلون إيجابا بقصص الغرام مثلا ، قد يكون بعض أولئك النقلة أو المؤرخين قد قصد من هذا الجانب اللين للقراء يغريهم ويُسَلِّيهم .

ولكن الأقرب للعقل أن بعض أولئك المؤرخين كتب لِيَدُسَّ ، وأرخ ليهدم فالشعوبية فى ذلك العصر أثارت صراعا حضاريا طغت فيه العِرْقِّية على العقيدة . فأرادت تلك الفئة تحقيق غايتين الأولى : خلق صورة من صُوَرِ التحلل والتمزق الخُلقىّ ، لتُعطِى دليلا على أن قوماً هذا شأنهم لم يُعْطوا الانسانية أىَّ معنى من معانى الرقىّ الإنسانىّ أو المشاركة فى هذا الرُّقِى .. الغاية الثانية ربط ماحدث فى الماضى مع تَصُّور وقائعَ محتملة فى المستقبل حتى وإن لم تحدث .. وأعتقد أن هذا التخطيط كان محكما ورهيبا .

إن هناك فِئةً تكتب لتهدم عن طريق التاريخ ، ولامراء فى أن هذه الفئة أخطر من الفئات الأخرى ، قد تكون أقل خطراً كما قد يُتَصَوّر لأنها أقرب إلى الفضيحة من مثيلاتها ، ولكنَّ الأمر هو العكس فقد لَبِسَتْ هذه الفئة لَبوساً دقيقا ، وبَرَعَتْ بشكل يعجز عن الوصف .. اليهود فى مقدمة هذه الفئة . دخل الكثير منهم الاسلام لا ليُسْلِمَ ، ولكن ليهدم . ليدس ، ليشكك . يَسْتَغِلّ البسطاء من الناس . هذه الفئة بصنيعها ذاك ابْتَغَتْ وتبتغى هدفا واحدا اسمه (التدمير) لحضارة مَّا ، حين تناصبها العداء . تكتب كل مايُوجِدُ التشكيك ، وتغرس كل مايُوجِدُ الخراب تندس فى الخفاء ، لتهدم الباطن والظاهر ، وتتعايش مع كل الظروف لتهدم الكيان .. من السهل جِدّا عليها أن توجد طائفة منها تَتَدَيَّنُ لِتُعايِشَ المتدينيين ، وتَتَصَوَّفُ لِتُعَايشَ المتصوفين ، حتى إنها قد تتبرع بالمال فى سبيل الفقراء والمساكين ، وهى بالمعنى الآخر تَتَلَوَّنُ مع كل لون . تبكى مع الباكى ، وتضحك مع الضاحك ، ولكن خلال ذلك تُنَفّذُ خَطًّا مُحْكَماً ، وعلى درجاتِ تَتَكَيَّفُ حسب

الواقع ، ولكنه ـ الخطّ ـ فى النهاية يُوصِلُ إلى النتيجة : إلى نقطة الغاية حين يكون كل شيىء قد تهيأ للتدمير والإجهاز ، وحين ذاك ليس أيْسَرَ من تلك النتيجة .

وهناك فئة تكتب تشويهاً للتاريخ ، وهذه الفئة لاتتبع مثل الأساليب السابقة فى كتابة التاريخ فهى ذات نمطٍ آخر ، ولكنَّ النتيجة لتلك الأحوال قد تتماثل إلى حد بعيد .. هذه الفئة تكتب بلا غاية وبلا هدف .. تكتب وفقا للظروف ، وقد تكون على سُنَّةِ طَيِبِ الّذِكْرِ : (الْحُطَيْئَةِ). فمن السهل جِدًّا أن يكون الأبيض بالأمس أسود باليوم ، أو بالعكس . وإن كان اللونُ هو اللونَ لم يتغير ، قد يُقال ، إن هذه الفئة قد تُحاط بمؤثرات خارجية لاتستطيع الفكاك منها ولكن هذا ليس بصحيح ، فالعلة فى نظرى تَكْمُن فى أنها غيرُ مخلصة للكلمة . للحقيقة . للتاريخ نفسه . إن عدتها الوحيدة سلالِمُ للبناء فى وقتٍ مًا ، ومَعَاوِلُ لِهَدْمِ ذلك البناءِ ، فى وقت آخر ، مع أن ذلك البناء لم يحتَجْ إلى هَدْمٍ لِعِلَّةٍ أو خللٍ فيه . ويخطر لى أن هذه الفئة لم تكن فى الماضى ذاتَ وجود أو على الأقلِ ، ذاتَ شَأْنٍ يُذْكَرُ . فمنها الْهَجَّاؤون الْبُسَطاءُ حين يمدحون ويَذُمُّون على قدر الرِفد ، ولكن زمننا الحاضر قد حوى أكبر عدد من هؤلاء (غير الْبُسطاءِ) سجَّلوا التاريخ فى غير أمانة العالم ، وفى غير ثقة المؤرخ ، وفى غياب الايمان ، وفى هجر كل الاعتبارات الخلقيّة الملتزمةِ ، وإذا بحثنا عن أسباب هذا التشويه لكتابة التاريخ وجدنا أن انهزام الذات لدى أولئك هو السببُ الوحيد . ومن انْهَزَمَتْ ذاتُهُ سقط إلى حضيض غيره يَسْتَجْدِيهِ حتى ولو لم يكن فى حاجة للاستجداء ويخافه حتى ولو لم يكن بحاجة للخوف . لقد قسرت تلك الفئة الحقائق لتكتب تزييفا ، وشوهت الحقائق لتكتب تزويرا . تجردت من الإيمان بِالْقِيَمِ ، لِتَكْتُبَ تاريخاً وإن كانت تعتقد كَذِبَهُ أو تعرفُ بطْلاَنَهُ وإفْكَهُ . ومن هنا كانت كتابة التاريخ فى حقبةٍ مّا فى عالمنا العربىّ سبيلا إلى تزييف الحقيقة أمام الغاية . وبالتالى سبيلا من سُبُلِ الهزيمةِ : هزيمةِ الذات ، وفى رأيى أنه لاتُبْتَلَى أمَّةٌ بِشرّ أشد من هزيمة الذات .

* * *

ماذا يريد أمير الشعراء ؟

مرة أخرى يعود الجدل مع ابن زحلة وكاتب لبنان ، ومن سمَىَّ نفسه أمير الشعراء سعيد عقل حول اللغة العربية أو بمعنى أصح حول دعوته إلى طرح الحرف العربىّ واعتناق اللاتينية باعتبارها المدخل الأَوَّلي للتطور الفكرىّ والانعتاق من التخلف كما يتصوره عقل بدافع غير شريف .. هذا الجدل سبق أن بدأ به منذ زمن طويل كُتَّابٌ فى مصر ولبنان ، وانتهى إلى نتيجة يعرفها سعيد عقل جيداً . لقد انقسم المجادلون لسعيد عقل إلى فريقين : فريّقٍ وصف صاحب الدعوة بما وصفه به من نعوت متعددة بدافع الذود عن كرامة اللغة العربية التى يرتبط بها العربىُّ ارتباطه بكيانه وتكوينه . وفريقٍ جادل عقلا ، برباطةِ جأش وسعة أُفُقٍ ومنطق علمىّ ابتغى من ورائه إقناع الكاتب بطريقة علمية مُؤِّكداً له أن ذلك الدرب الذى سلكه شاق وعسير ويستحيل بلوغه وحاول أن يتبين له من خلال الإقناع العلمىِ خطأُ دعوته وخطلُ رأيه وضعفُ مبناه شكلا وموضوعا . قُلْتُ : إن سعيد عقل لن يقتنع بهذا أو ذاك من الرأى مهما كانت قوته وتأثيره وماذاك إلا لأَنَّ الدافع غير شريف ، فنظرة دقيقة إلى السلوك النفسى لذلك الرجل ومثله من أصحاب تلك الدعوات المشابهة توجب تصنيفهم إلى صنفين : صنفٍ يتخيل صواب فكرته بدافع يعتقده باطنا وظاهرا بِغَضّ النظر عن نظرة الناس اليه ، وهذا قد تفرض عليه طبيعة تفكيره قبول الحجة التى قد تزيل الفكرة الخاطئة من ذهنه والرجوع إلى الرأى الأصوب ، وهذا حُسْنُ النية فيه مفترض . وصنف آخر يدعو إلى فكرة معينة بدافع يتجلى من ورائه سوء المقصد وفساد الطوية . هذا النوع من الفكر لايمكن خضوعه لمنطق علمى مهما كانت قوته وتأثيره،وسعيد عقل قد كان من ذلك النوع، ولعلى بأولئك الذين حاولوا جاهدين اقناع الرجل بالمنطق العلمى يعرفون جيدا حقيقة موقفه من الجنس العربىّ كجنس ، ناهيك عن

موقفه من مُعْطَيَاتِ ذلك الجنس الحضارية والفكرية،فالرجل الذى كان يفخر بأنه لم يكتب قط فى حياته كلمة ـ عربىّ ـ هو بالتأكيد حاقد على هذا الجنس ، ولو كان ينتمى إليه شكلا ، وهو بالتالى سيكون سَيِىّء النية فى نظرته إلى تراثه الحضارىّ والثقافى القديم منه والجديد من أجل هذا يمكن القول بأنه لم يُرِدْ من محاولته تلك إشباعَ رغبةٍ علمية مجردة أو كان متأثرا بدافع إصلاحىّ نبيل ،ودعوته كأىّ دعوة أخرى دعوة لنشاز مكتوب لها الموت الأبدىُّ . ولقد سبق لفهمى باشا فى مصر وللأب غصن فى لبنان أن بشرا بمِثـل تلك الدعوة . كما سبق لِعَقلٍ أن ألقى نفسه فى التهيئة النفسية لتلك الدعوة وتعميق مفهومها بكل الممكنات المادية فى كتاباتِ أتباعه وكتاباتِهِ التى سلخ عنها فصاحةَ اللغة فانسلخ عنها جمالُ التعبير وقوةُ التركيب ، وبارزة أيضا فى جائزته المادية السنوية التى تعطى للاتباع حينا ولغيرهم حينا آخر من أجل إخفاء الصفة الحقيقية لها ، وكانت النتيجة لتلك التهيئة الفشل المريعَ .. قُلْتُ إن تكراره لتلك المحاولة مرده إلى سببين : إمّا أن يكون قد اعتقد ـ خطأ ـ أن الجو العربىّ الحاضر مُنَاخ ملائم للتبشير بالدعوة الجديدة لعلها تظفر ولو بأقل نسبة من النجاح مهما كانت ضآلتها .. وإمّا لأنه نسج على منوال ذلك الرجل الذى أراد أن يبول فى زمزم ليذكره التاريخ على صفحاته ولو جاء ذكره باحتقاره وازدرائه ..

ولست أدرى هل سعيد عقل يتصور أن التاريخ العربىَّ لن يذكره إلا من هذه الزاوية المظلمة أم ماذا يريده من أمة تعتز بلغتها بنفس اعتزازها بجنسها وماضيها الخالد ؟ وليت سعيد عقل يعرف أو يستذكر أن هذه اللغة إبان العُصُورِ المظلمة التى مرت بها الحضارة العربية وفى وقت كانت المجامع الْأَجنبيةُ قد أوصت المتنفذين فيها بوضع مخطط مَرْحَلىّ لغزو العرب من زاوية تَهْدِيم معطياتهم الحضارية ، لم تعدم هذه اللغة من يحافظ عليها كما يحافظ على بقائه .. وأظن سعيد عقل لو رجع إلى معلوماته التاريخية لوجد أن الْأَدِيِرَةَ فى جبل لبنان الأشم كانت معقلا من معاقل الحفاظ على العربية الفصحى ، ولعلـه يذكر بجانب ذلك أن الرهبان الذين ينتمى إلى معتقدهم الدينىّ كانوا يرددون كثيراً من شعائرهم الروحية بها . وليت سعيد عقل يتذكر أن الشعب الجزائرىَّ ـ كمثال للشعب العربىّ فى الشمال الإفريقىّ ـ ظل تحت الحكم الْأَجنبىّ .. مائة وثلاثين عاما كلها تكريس لطمس التراث الفكرىّ فى الجزائر ، ورغم ذلك كان ذِكْرُ اللغةِ العربية وآدابها دافعاً مشوقا له إلى البذل والفداء من أجل التحرر . ومرة كان أحد الشعراء الجزائـريين يقف على منصـة

للخطابة فى مدينة دمشق ، ولما رأى الجماهير قد التفت به اغرورقت عيناه بالدمع ثم أجهش بالبكاء وأحجم عن القاء قصيدته الشعرية . وحين سُئِلَ عن سبب بكائه قال : « بكيتُ لأنِىّ لا أجيد العربية الفصحى كما أريد أن تكون إجادتى لها .. » هذا واحد من أبناء الجزائر وُلِدَ فى ظل حكم أجنبى وعاصره سياسة واقتصادا وثقافة وحضارة وأُجْبِرَ ولو نفسياً على هجر لغته وتراثه الفكرىّ ومع ذلك ظل يعرف لغته جيدا ولكنه يريد أن يكون فيها عِمْلاَقاً .. هذان مثالان بسيطان لاأظن أن ابن زحلة وكاتب لبنان يجهلهما ولكنه رغم ذلك ظل مُكَابِراً ، على غرار من قال : « نَبِىٌّ وإن ضاقت شيوخ ورهبان » سؤال يترك الجواب عليه لواحد من أصحاب الفكرة القديمة والحديثة ، ويقينى أنه سيعرف فى النهاية أن تلك المحاولة ستظل دائما فى سجل نُفَايَاتِ الفكر الرخيص .

وَآخِرُ دَعْوَاهُم اَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِيْنْ .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الأول

الانسان .. السلوك والصراع

الفصل الثانى

الانسان .. الوحدة .. السلوك .. الحقوق

الفصل الثالث

الانسان الحضارة والعقل

الفصل الرابع

الانسان والروح

الفصل الخامس

الانسان العربى والحرب وقضايا الأرض

الفصل السادس

الانسان العربى وقضايا الفكر



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : الكتاب العربي السعودي

صدر منهـا :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
الجبل الذي صار سهلا	(نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
عهد الصبا في البادية	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
التنمية قضية	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
غداً أنسى	(قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي بن طلال الجهني
أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
عواطف إنسانية	(ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
تاريخ عمارة المسجد الحرام	(نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
وقفة		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
أفكار بلا زمن		الأستاذ عبدالله الحصين
كتاب في علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
الإبحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
الحضارة تحد	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	(تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي

● نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر
● السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
● قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● عن هذا وذاك	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● الأمثال الشعبية في مدن الحجاز	الأستاذ أحمد السباعي
● أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
● فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
● خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
● نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
● التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية)	الأستاذ أمين مدني
● المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
● تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
● خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
● السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
● جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
● تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
● الحمى (ديوان شعر)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
● ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
● زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
● الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
● كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
● شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
● أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
● قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
● نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي	الأستاذ بدر أحمد كريم
● الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
● الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
● ألحان مغترب (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● غرام ولادة (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
● سير وتراجم	الأستاذ عمر عبدالجبار
● الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
● لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
● نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
● حوار.. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد السباعي
● سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
● خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة

الكتاب		المؤلف
• البترول والمستقبل العربي		الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• إليها .. (ديوان شعر)		الأستاذ حسين عبدالله سراج
• من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء)		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية		الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث		الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى (ديوان شعر)		الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب		الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي

تحت الطبع :

الكتاب		المؤلف
• تاريخ القضاء في المملكة العربية السعودية		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• قصص من تاغور (ترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
• ماما زبيدة (مجموعة قصصية)		الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية		الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)		الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• وحي الصحراء		الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• طيور الأبابيل (ديوان شعر)		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• عمر بن أبي ربيعة		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز (تراجم)		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• دعوة ودفاع		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• لن تلحد		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• سرايا الإسلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
• رحلات وذكريات		الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى (قصة طويلة)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• الحضارة تحد	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• الجبل الذي صار سهلا	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد قنديل

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري، الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي

تحت الطبع :

- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- تاريخ طب الأطفال عندالعرب — الدكتور محمود الحاج قاسم
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر
- الاقتصاد الاداري — الدكتور فرج عزت
- التعلم الصفي — الدكتور محمد زياد حمدان



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
  (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات
- الطب النفسي معناه وأبعاده — الدكتور محمد محمد خليل
- الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخارجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي

تحت الطبع :

• قراءات في التربية وعلم النفس	الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
• الموت والابتسامة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله أحمد باقازي
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	الدكتور حسن محمد باجودة
• الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي	الدكتور جميل حرب محمود حسين
• ملامح وأفكار	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• المذاهب الأدبية في شعر الجنوب	الدكتور علي علي مصطفى صبح
• النظرية الخلقية عند ابن تيمية	الدكتور محمد عبدالله عفيفي
• الكشاف الجامع لمجلة المنهل	الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
• ديوان حمام	الأستاذ محمد مصطفى حمام
• رحلة الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• فجر الأندلس	الدكتور حسين مؤنس
• الماء ومسيرة التنمية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
• الدفاع عن الثقافة	الدكتور عبدالعزيز شرف
• من فكرة لفكرة	الأستاذ مصطفى أمين
• المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر)	الأستاذة منى غزال
• الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث	الأستاذ على مصطفى عبداللطيف السحرتي
• ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة: وطني الحبيب	• جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
	• جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
مجموعة: حكايات ألف ليلة وليلة :	• السندباد والبحر	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
• الديك المغرور والفلاح وحماره		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الطاقية العجيبة		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• الزهرة والفراشة		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• سلمان وسليمان		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• زهور البابونج		الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• اليد السفلى		الدكتور محمد عبده يماني الأستاذ يعقوب محمد اسحق

تحت الطبع :

• سنبلة القمح وشجرة الزيتون	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• نظيمة وغنيمة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
• جزيرة السعادة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر الحلواني

تحت الطبع :

- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الحسا (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة عبدالملك آل الشيخ
- تقييم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

كتاب للأطفال

صدر منها :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد • الكلب • السلحفاء • الأسد • الحمار الأهلي • الفرس • الغزال • الوعل • الضفدع
- الضب • الغراب • الجمل • البغل • الفراشة • الدجاج • الحمار الوحشي • الجاموس • الدب
- الثعلب • الأرنب • الذئب • الفأر • الخروف • البط • الببغاء • الحمامة • الخرتيت
- البوم • البجع • الهدهد • الكنغر
- الخفاش • النعام • فرس النهر • التمساح

مجموعة: حكايات كليلة ودمنه — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- أسد غررت به أرنب
- الغراب يهزم الثعبان
- المكاءالتي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- سمكة ضيعها الكسل
- الكلمة التي قتلت صاحبها
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة: التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر • الصلاة • صلاة العيدين • صلاة المسبوق • الشهادتان • التيمم
- قد قامت الصلاة • الاستخارة • صلاة الجمعة • أركان الاسلام • الوضوء
- صلاة الجنازة • صلاة الكسوف والخسوف

مجموعة: حكايات للأطفال — نقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- ضيوف نار الزينة
- الحصان الذى فقد ذيله
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- تورتة الفراولة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By: F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference **Second Edition'**
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.

- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai

- Diseases of Ear, Nose and Throat

  By: Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk

- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Baha Bin Hussein Azzee

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.

طبعت بمطابع دار البلاد
جدة ـ ص . ب : ٧٦١٤
ت : ٦٧١٦٤٦٦ خمسة خطوط